

{ملتقى التفاسير}

تفسير

سورة التين

جمع وإعداد

محمد مريس الحجاجي

[ملتقى التفاسير]

[تفسير المَعُودَتَيْنِ]

♦ قال الالوسي: " تسمى . المَعُودَتَيْنِ بِكَسْرِ الواوِ، وَالْفَتْحِ خَطًّا، وَكَذَا بِالْمُقَشَّقَتَيْنِ .. وهي سِتُّ آيَاتٍ لَا سَبْعُ، وَإِنْ اخْتَارَهُ بَعْضُهُمْ".

♦ وقال الطاهر بن عاشور: " وفي "الإتقان": أنها وسورة الناس تسميان المشقشقتين بتقديم الشينين على القافين من قولهم خطيب مشقشق اه. أي مسترسل القول تشبيها له بالفحل الكريم من الإبل يهدر بشقشقة وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب ولم أحقق وجه وصف المعوذتين بذلك.

وفي "تفسير القرطبي" و"الكشاف وقيل: إِنَّ الْمَعُودَتَيْنِ كَانَ يُقَالُ لَهُمَا الْمُقَشَّقَتَانِ. بتقديم القاف على الشينين زاد القرطبي: أَيُّ ثُبْرَتَانِ مِنَ النَّفَاقِ ، وكذلك قال الطيبي، فيكون اسم المقشقة مشتركا بين أربع سور هذه، وسورة الناس، وسورة براءة، وسورة الكافرون". (ولعل حصل تصحيف هنا فمناسبة التسمية على المعنى الأول وهو البراءة من النفاق سائغ لكن مناسبتة على معنى الاسترسال غير ظاهر).

[تفسير سورة { الفلق }]

♦ قال الطاهر بن عاشور: " سميت في أكثر المصاحف ومعظم كتب التفسير "سورة الفلق". واختلف فيها أمكية هي أم مدنية، فقال جابر بن زيد والحسن وعطاء وعكرمة: مكية، ورواه كريب عن ابن عباس. وقال قتادة: هي مدنية، ورواه أبو صالح عن ابن عباس.

والأصح أنها مكية لأن رواية كريب عن ابن عباس مقبولة بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس ففيها متكلم.

وقال الواحدي: قال المفسرون إنها نزلت بسبب أن لبيد بن الأعصم سحر النبي صلى الله عليه وسلم، وليس في "الصحاح" أنها نزلت بهذا السبب، وبنى صاحب الإتقان عليه ترجيح أن السورة مدنية وستكلم على قصة لبيد بن الأعصم عند قوله تعالى: {وَمَنْ شَرَّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [الفلق: ٤].

وقد قيل: أن سبب نزولها والسورة بعدها: أن قريشا ندبوا، أي ندبوا من اشتهر بينهم أنه يصيب النبي صلى الله عليه وسلم بعينه فأنزل الله المعوذتين ليتعوذ منهم بهما، ذكره الفخر عن سعيد بن المسيب ولم يسنده.

وعدت العشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الفيل وقبل سورة الناس.

وعدد آياتها خمس بالاتفاق".

◆ مقدمة السورة

• روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لکنه دعا ودعا ثم قال يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل فقال مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال في أي شيء قال في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر () قال وأين هو قال في بئر ذروان فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه فجاء فقال يا عائشة كأن ماءها نفاعه الحناء أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين قلت يا رسول الله أفلا استخرجته قال قد عافاني الله فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً فأمر بها فدفتن تابعه أبو أسامة وأبو ضمرة وابن أبي الزناد عن هشام وقال الليث وابن عيينة عن هشام في مشط ومشاطة يقال المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط والمشاطة من مشافة الكتان

• وأخرجه المستغفري في فضائل القرآن والبيهقي في الدلائل بلفظ [وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فأتاه جبريل بالمعوذتين، فقال: يا محمد، ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ وحل عقدة، ﴿من شر ما خلق﴾ وحل عقدة، حتى فرغ منها وحل العقد كلها، وجعل لا ينزع إبرة إلا وجد لها ألماً، ثم يجد بعد ذلك راحة، ف قيل: يا رسول الله، لو قتلت اليهودي. فقال: «قد عافاني الله، وما وراءه من عذاب الله أشد» وقال الألباني في الصحيحة ٦١٨/٦ «هذا إسناد ضعيف جداً»

١ - مايز الله تعالى بين الذكر والانثى في الحيوان وفي النبات وفي البشر فالشريعة الإسلامية تومئ إلى أن العلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة تكامل وليست ماثلة مطلقة، حيث يقرر الفكر الإسلامي أن العدل في إعطاء كل ذي حق حقه هو الأساس، وليس المساواة الصماء التي تتجاهل الفوارق الفطرية.

قال ابن عثيمين: "دين الإسلام دين العدل في العمل والجزاء، وانتبه دين العدل في العمل والجزاء وليس كما يقول المحدثون: «إنه دين المساواة»، هذا غلط عظيم، لكن يتوصل به أهل الآراء والأفكار الفاسدة إلى مقاصد ذميمة، حتى يقول: المرأة والرجل، والمؤمن والكافر سواء، ولا فرق، وسبحان الله إنك لن تجد في القرآن كلمة المساواة بين الناس، بل لابد من فرق، بل أكثر ما في القرآن نفى المساواة {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} وآيات كثيرة، فاحذر أن تتابع فتكون كالذي ينعم بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، بدل من أن تقول: (الدين الإسلامي دين مساواة) قل: (دين العدل الذي أمر الله به، يعطي كل ذي حق حقه)، أرايت المرأة مع الرجل في الإرث، وفي الدية، وفي العقيقة، وفك الرهان يختلفون. وفي الدين: المرأة ناقصة إذا حاضت لم تصل ولم تصم، وفي العقل المرأة ناقصة: شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وهلم جرا، والذين ينطقون بكلمة مساواة إذا قررنا هذا وأنه من القواعد الشرعية الإسلامية ألزمتنا بالمساواة في هذه الأمور، وإلا لصرنا متناقضين، فنقول: دين الإسلام هو دين العدل يعطي كل إنسان ما يستحق".

وفي رواية الثعلبي : [«يا عائشة، أما شعرت أن الله تعالى أخبرني بدائي» . ثم بعث رسول الله ﷺ علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء البئر كأنه نُّقاعة الحِثَاء، ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجُفَّ، فإذا فيه مُشاطة رأسه، وأسنانٌ من مشطه، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة، مغروزة بالإبر. فأنزل الله تعالى السورتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خَفَّةً، حتى انحلت العقدة الأخيرة، فقام كأنما أنشط من عقال، وجعل جبريل عليه السلام يقول: باسم الله أريقك، من كل شيء يؤذيك، من حاسد وعين، والله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نأخذ الخبيث نقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن يثير على الناس شراً»] (قال ابن كثير ٥٣٨/٨ بعد إيراد سياق الثعلبي للحديث معزواً إليه: «هكذا أورده بلا إسناد، وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم» .)

- وعن عن زيد بن أرقم، قال: سحر النبي ﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى، فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين، وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان. فأرسل علياً، فجاء به، فأمره أن يحلَّ العقد ()، ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحلُّ، حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال] (أخرجه عبد بن حميد في المنتخب من مسنده ٢٢٨/١ (٢٧١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ١٨٠/١٥ (٥٩٣٥). وأخرجه بنحوه أحمد ١٤/٣٢ (١٩٢٦٧)، والنسائي ١١٢/٧ (٤٠٨٠). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٦١).
- وروى مسلم عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلْتُ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلُهُنَّ قَطُّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ].
- وروى البخاري عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَفَثَ فِي كَفَيْهِ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَبِالْمُعَوَّذَتَيْنِ جَمِيعًا ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَمَا بَلَغَتْ يَدَاهُ مِنْ جَسَدِهِ قَالَتْ عَائِشَةُ فَلَمَّا اشْتَكَى كَانَ يَأْمُرُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ
- قَالَ يُؤْنَسُ كُنْتُ أَرَى ابْنَ شَهَابٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ إِذَا أَتَى إِلَى فِرَاشِهِ.
- وفي لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمي عن عقبة: أن رسول الله ﷺ قال له «ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟ قلت: بلى. قال: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس».
- وفي الترمذي: حدثنا قتيبة أخبرنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة»
- وقال: هذا حديث غريب.

١ - ولذلك من وجد فعلية ان يحل العقد ولا يتركها .

• وفي الترمذي والنسائي وسنن أبي داود. عن عبد الله بن حبيب قال: «خرجنا في ليلة مطر وظلمة، نطلب النبي ﷺ ليصلّي لنا، فأدركناه، فقال: قل. فلم أقل شيئا. ثم قال: قل. فلم أقل شيئا. ثم قال: قل. قلت: يا رسول الله، ما أقول؟ قال: قل: قل هو الله أحد والمعوذتين، حين تمشي وحين تصبح، ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

• وفي الترمذي أيضا: من حديث الجريري عن أبي هريرة عن أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان. فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما» قال: وفي الباب عن أنس. وهذا حديث غريب. ♦ قال ابن القيم في بدائع الفوائد: "ورواه مالك عن الزهري عن عروة عنها «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث. فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عليه بيده، رجاء بركتها» وكذلك قال معمر عن الزهري عن عروة عنها «أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها. فسألت ابن شهاب: كيف كان ينفث؟ قال: ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه» ذكره البخاري أيضا.

وهذا هو الصواب: أن عائشة كانت تفعل ذلك. والنبي ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك. وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى. فظن أنهما لما فعلت ذلك وأقرأها النبي ﷺ: أنه كان يأمرها. وفرق بين الأمرين. ولا يلزم من كون النبي ﷺ قد أقرأها على رقيته أن يكون هو مسترقيا. فليس أحدهما بمعنى الآخر. ولعل الذي كان يأمرها به: إنما هو المسح على نفسه بيده. فيكون هو الراقي لنفسه ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه. ويكون هذا غير قراءتها هي عليه، ومسحها على بدنه. فكانت تفعل هذا وهذا. والذي أمرها به إنما هو نقل يده لا رقيته. والله أعلم.

والمقصود: الكلام على هاتين السورتين. وبيان عظيم منفعتهما، وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما. وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيرا خاصا في دفع السحر والعين، وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس".

• وروى النسائي وابن ماجه وصححه الالباني عن أبي سعيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من عين الجان وعين الإنس فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك .

• وروى احمد وصححه محققو المسند عن أبي العلاء (هو يزيد بن عبد الله بن الشخير)، قال: قَالَ رَجُلٌ (هو عقبة بن عامر): كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ وَالنَّاسُ يَعْتَقِبُونَ ، وَفِي الظَّهْرِ قِلَّةٌ ، فَحَانَتْ نَزْلَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَزَلَتِي ، فَلَحِقَنِي مِنْ بَعْدِي ، فَضَرَبَ مَنْكِيَّ ، فَقَالَ : " قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " ، فَقُلْتُ : أَعُوذُ بِرَبِّ

الْفَلَقِ، فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَرَأْتُهَا مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: " قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ "، فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَرَأْتُهَا مَعَهُ، قَالَ: " إِذَا أَنْتَ صَلَّيْتَ فَاقْرَأْ بِهِمَا "

- وعن عقبة بن عامر قال: كنت آقوذ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاقَتَهُ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ لِي: " يَا عَقْبَةُ! أَلَا أَعْلَمُكَ خَيْرَ سَوْرَتَيْنِ قُرَيْتَا؟! ". فَعَلِمَنِي: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) وَ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) . قَالَ: فَلَمْ يَرِنِي سُرُوتَ بِهِمَا جَدًّا! فَلَمَّا نَزَلَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ؛ صَلَّى بِهِمَا صَلَاةَ الصُّبْحِ لِلنَّاسِ. فَلَمَّا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ التَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: " يَا عَقْبَةُ! كَيْفَ رَأَيْتَ؟! ". رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَقَالَ الْإِسْلَابِيُّ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَالْحَاكِمُ) .
- وعن عقبة بن عامر الجهني قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم قل قلت وما أقول قال قل هو الله أحد قل أعوذ برب الفلق قل أعوذ برب الناس فقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لم يتعوذ الناس بمثلهن أو لا يتعوذ الناس بمثلهن . رواه النسائي وقال الألباني : صحيح

- وعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : أمرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن أقرأ المعوذات دبر كل صلاة. رواه النسائي وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٣٣٥) والسلسلة الصحيحة (١٥١٤)

وروى احمد والبخاري عن عبد الله بن مسعود -من طريق عبد الرحمن بن يزيد-: أنه كان يحكّ المعوذتين من المصحف، ويقول: لا تخطوا القرآن بما ليس منه، إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما. وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما. قال البخاري: لم يتابع ابن مسعود أحدًا من الصحابة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وأثبتنا في المصحف (صححه محققو المسند) .

- ♦ قال ابن كثير : " وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء: أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعهما من النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتواتر عنده، ثم لعله قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإن الصحابة، رضي الله عنهم، كتبوهما في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، والله الحمد والمنة. " .
- والاحاديث المتقدمة تثبت أنها من القرآن كما في حديث عقبة ابن عامر [أنزلت علي الليلة آيات () لم أر مثلهن قط: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس].

فالأحاديث الصحيحة الصريحة، وأقوال الصحابة التي تثبت قرآنية السورتين، وتبين أن قول ابن مسعود -رضي الله عنه- -على جلالته وعظم منزلته إذا ثبت عنه(وفي ثبوته نزاع)- خطأ منه -رضي الله عنه-، وأنه قول شذ به عن بقية الصحابة. ولو لم تكونا من كتاب الله تعالى لما أثبتنا في المصحف، وأجمعت عليهما الأمة التي لا تجتمع على ضلالة، فإجماع الأمة معصوم كما هو معلوم، ولكن خطأ الأفراد وارد مهما كانت منزلتهم وعلو قدرهم، فلا عصمة لأحد بعد

١ - وهذا نص صريح أنها من القرآن الكريم.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولعل هذا من شواذ ابن مسعود -رضي الله عنه- التي تذكر في التراث الفقهي والتاريخ الإسلامي، فيقال: شواذ ابن مسعود، ورخص ابن عباس، وشذائد ابن عمر، كما قال الخليفة المنصور للإمام مالك عندما طلب منه أن يؤلف كتاباً يتجنب فيه للمسلمين هذه الأمور.

♦ قال مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْكَرَجِيُّ الْقَصَّابُ (ت: ٣٦٠هـ): (وهما من القرآن، وَمَنْ قَالَ: لَيْسَتْ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَدْ أَعْظَمَ الْقَوْلَ، وما ذَكَرَ عن ابنِ مسعودٍ فهو عنه غَيْرُ صحيحٍ، ولو صحَّ عنه أَهْمَا غَيْرُ مَكْتُوبَةٍ فِي مُصَحِّفِهِ، ما دَلَّ على أَهْمَا لم تكونا عنده من القرآن، لأنه كَانَ يَحْفَظُهُمَا، وَمَنْ حَفِظَ شَيْئًا فَلَيْسَ بِحَتَمٍ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَهُ ولو أَنَّ حَافِظًا لِلْقُرْآنِ كُلِّهِ لم يَكْتُبْهُ، واقتصرَ على تلاوته آناءَ الليل والنهار في الصلاة وغير الصلاة ما ضرَّه، وإنما كُتِبَ إِشْفَاقًا على مَنْ لا يَقْدِرُ أَنْ يَحْفَظَهُ، فَكُتِبَ لِيَسْتَوِيَ فِيهِ الْحَافِظُ وَغَيْرُ الْحَافِظِ، وَلِيَرْجِعَ إِلَيْهِ النَّاسُ إِذَا نَسِيَ مِنْهُ الشَّيْءَ، أو اشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْحَرْفُ، وَلِيَنْظُرَ فِيهِ النَّاطِرُ فَيَصِيرَ نَظْرُهُ فِيهِ عِبَادَةً، وَلِيَقْرَأَ فِيهِ الْحَافِظُ أَيْضًا فَيَجْمَعَ الثَّوَابَيْنِ؛ ثَوَابَ التَّلَاوَةِ، وَثَوَابَ النَّظَرِ.

• وقد سَأَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْمُعَوَّذَتَيْنِ، فَأَمَّهُ بِهِمَا فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ). [نكت القرآن: ٥٦٨-٥٧٠].

• وفي مسند احمد: " عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ بَيْنَا أَنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النَّقَابِ (النقب: الطريق بين جبلين) إِذْ قَالَ لِي يَا عُقْبَةُ أَلَا تَرَكُبُ قَالَ فَأَجَلَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَرَكُبَ مَرْكَبَهُ ثُمَّ قَالَ يَا عُقْبَةُ أَلَا تَرَكُبُ قَالَ فَأَشْفَقْتُ أَنْ تَكُونَ مَعْصِيَةً قَالَ فَزَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَكِبْتُ هُنَيْئًا ثُمَّ رَكِبْتُ ثُمَّ قَالَ يَا عُقْبَةُ أَلَا أَعْلَمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ قَالَ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَأَقْرَأْنِي قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ بِهِمَا () ثُمَّ مَرَّ بِي قَالَ كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عُقْبَةُ اقْرَأْ بِهِمَا كُلَّمَا نَمَتَ وَكُلَّمَا قُمْتَ. (وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات)

♦ وقال علم الدين علي بن محمد السخاوي (ت: ٦٤٣هـ): وَهَاتَانِ السُّورَتَانِ مِنَ الْقُرْآنِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، وَيُرَوَّى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَحْكُهُمَا مِنَ الْمَصَاحِفِ وَيَقُولُ: (لا تزيدوا في كتاب الله ما ليس منه، فَإِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا عَنْهُ فَسَبَبُهُ أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ بِهِمَا سَبْطِيَهُ فَظَنَّ أَنَّهُمَا عُودَتَانِ).

والمسلمون كلهم على خلاف ذلك. [جمال القراء: ١/٢٠٣-٢٠٤].

♦ وقال مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَهَادَرَ الرَّزْكَشِيُّ (ت: ٧٩٤هـ): (والمعوذتان من القرآن واستفاضتهما كاستفاضتهما جميع القرآن. وأما ما روي عن ابن مسعود، قال القاضي أبو بكر: فلم يصح عنه أَهْمَا ليسا بقرآن، ولا حفظ عنه أَنَّهُ حَكَّهُمَا وَأَسْقَطَهُمَا مِنْ مَصْحَفِهِ لَعَلَّ وَتَأْوِيلَاتِ).

١ - ولو كانتا مجرد تعويذات لم يكن ليقرا بهما.

قال القاضي: ولا يجوز أن يضاف إلى عبد الله أو إلى أبي بن كعب أو زيد أو عثمان أو علي أو واحد من ولده أو عترته جحد آية أو حرف من كتاب الله وتغييره أو قراءته على خلاف الوجه المرسوم في مصحف الجماعة بأخبار الآحاد، وأن ذلك لا يحل ولا يسمع بل لا تصلح إضافته إلى أدنى المؤمنين في عصرنا، فضلا عن إضافته إلى رجل من الصحابة... وقال النووي في شرح المهذب: أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن وأن من جحد منها شيئا كفر وما نقل عن ابن مسعود باطل وليس بصحيح.

♦ وقال ابن حزم في أول كتابه المحلى: هذا كذب على ابن مسعود وموضوع وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زر بن حبیش عنه، وفيها المعوذتان والفاتحة. (ولعل الأقرب أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يرى أن المعوذتين ليستا من القرآن ثم تراجع عن ذلك فهو أحد أعمدة القراءات المتواترة للقرآن الكريم وقراءته فيها المعوذتان)

♦ وقال القاضي أبو بكر بن الطيب في كتاب التريب: لم ينكر عبد الله بن مسعود كون المعوذتين والفاتحة من القرآن وإنما أنكر إثباتهما في المصحف وإثبات الحمد؛ لأنه كانت السنة عنده ألا يثبت إلا ما أمر النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإثباته، وكتبه، ولم نجده كتب ذلك ولا سمع أمره به وهذا تأويل منه، وليس جحدا لكونهما قرآنا.

وفي صحيح ابن حبان عن زر قلنا لأبي بن كعب: إن ابن مسعود لا يكتب في مصحفه المعوذتين فقال: قال لي رسول الله صلى عليه وسلم: قال لي جبريل: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} فقلتها وقال لي: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} فقلتها. فنحن نقول ما قال رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (البرهان في علوم القرآن: ١٢٥/٢ - ١٢٨)

♦ وقال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيُّ (ت: ٧٩٥ هـ): (وَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمُعُودَتَيْنِ فَقَالَ: ((قِيلَ لِي فَقُلْتُ)). وذلك إشارة منه إلى أنه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَلِّغٌ مُحَضَّرٌ لِمَا يُوحَى إِلَيْهِ، لَيْسَ فِيهِ تَصَرُّفٌ لِمَا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ بَرِيادَةً وَلَا نَقْصٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مُبَلِّغٌ لِكَلَامِ رَبِّهِ كَمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ، فَإِذَا قَالَ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}. كَانَ امْتِنَالًا لِلْقَوْلِ الَّذِي قِيلَ لَهُ بَلْفُظِهِ لَا بَمَعْنَاهُ). [تفسير سورة الإخلاص]

♦ قال محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦ هـ): (حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ، عَنْ زُرِّ بْنِ حَبِيشٍ. وَحَدَّثَنَا عَاصِمٌ، عَنْ زُرِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ: قُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ كذا وكذا؟

فَقَالَ أَبِي: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِي: ((قِيلَ لِي فَقُلْتُ)).

قَالَ: فَتَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). [صحيح البخاري: ٣١٢/٥]

♦ قال محمد بن يوسف بن علي الكرماني (ت: ٧٨٦ هـ): (قَوْلُهُ: (عَاصِمٌ) هُوَ ابْنُ أَبِي النَّجُودِ بَفَتْحِ التَّوْنِ وَضَمِّ الْجِيمِ وَبِالْمُهْمَلَةِ أَحَدُ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ، وَ(عَبْدَةُ) ضِدُّ الْحُرَّةِ ابْنُ أَبِي لُبَابَةَ بَضَمِّ اللَّامِ وَخِفَّةِ الْمُوحَّدَةِ الْأُولَى الْأَسَدِيِّ وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى

عاصِم، و(زِرُّ) بكسر الزاي وشدة الراء (بُنُّ حُبَيْشٍ) مُصَغَّرُ الْحَبَشِ بِالْمُهْمَلَةِ وَالْمُوَحَّدَةِ وَالْمُعْجَمَةِ، و(المُعَوِّذَتَيْنِ) بكسر الواو.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى السُّؤَالِ عَنْهُمَا؟

قُلْتُ: كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنَّهُمَا لَيْسَا مِنَ الْقُرْآنِ فَسَأَلَ عَنْهُمَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَقَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ((قِيلَ لِي: قُلْ أَعُوذُ)) أَي: أَقْرَأْنِيهِمَا جَبْرِيلُ يَعْنِي أَكْتُمَا مِنَ الْقُرْآنِ.

قَوْلُهُ: (قَالَ) أَي: سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَحَدَّثَنَا عَاصِمٌ وَ(أَبُو الْمُنْذِرِ) بِكسر الْمُعْجَمَةِ الْحَقِيقَةِ كُنْيَةُ أَبِي رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ كَتَاهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَّا (أَخَاكَ) فَهُوَ بِحَسَبِ الدِّينِ، وَ(كَذَا وَكَذَا) يَعْنِي أَكْتُمَا لَيْسَتَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَ(قِيلَ لِي) أَي: أَنَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَهَذَا كَانَ مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ الصَّحَابَةُ ثُمَّ ارْتَفَعَ الْخِلَافُ وَوَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَيْهِ فَلَوْ أَنْكَرَ الْيَوْمَ أَحَدٌ قُرْآنِيَّتَهُ كَفَرَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ فِي قُرْآنِيَّتِهِمَا بَلْ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِمَا وَخَاصَّةٍ مِنْ خَوَاصِّهِمَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ تَحْتَمِلُهُمَا وَالْحَمْلُ عَلَيْهِ أَوْلَى، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ). [شرح الكرماني: ٢١٨/١٧ - ٢٢٠]

♦ قال أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ): (قَوْلُهُ: (حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، وَحَدَّثَنَا عَاصِمٌ عَنْ زُرِّ) الْقَائِلُ: وَحَدَّثَنَا عَاصِمٌ هُوَ سُفْيَانُ، وَكَأَنَّهُ كَانَ يَجْمَعُهُمَا تَارَةً وَيُفَرِّدُهُمَا أُخْرَى، وَقَدْ قَدِّمْتُ أَنَّ فِي رِوَايَةِ الْحَمِيدِيِّ التَّصْرِيحَ بِسَمَاعِ عَبْدَةَ وَعَاصِمٍ لَهُ مِنْ زُرِّ.

قَوْلُهُ: (سَأَلْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ قُلْتُ: أَبَا الْمُنْذِرِ) هِيَ كُنْيَةُ أَبِي بْنِ كَعْبٍ، وَلَهُ كُنْيَةُ أُخْرَى: أَبُو الطُّفَيْلِ. قَوْلُهُ: (يَقُولُ كَذَا وَكَذَا) هَكَذَا وَقَعَ هَذَا اللَّفْظُ مُبْهَمًا، وَكَانَ بَعْضُ الرُّوَاةِ أَكْتُمَا اسْتِعْظَامًا لَهُ، وَأَطْنُ ذَلِكَ مِنْ سُفْيَانَ، فَإِنَّ الْإِسْمَاعِيلِيَّ أَخْرَجَهُ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْجُبَّارِ بْنِ الْعَلَاءِ عَنْ سُفْيَانَ كَذَلِكَ عَلَى الْإِثْمَامِ، وَكُنْتُ أَطْنُ أَوَّلًا أَنَّ الَّذِي أَكْتُمُهُ الْبُخَارِيُّ؛ لِأَنِّي رَأَيْتُ التَّصْرِيحَ بِهِ فِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ عَنْ سُفْيَانَ وَلَفْظُهُ: (قُلْتُ لِأَبِي: إِنَّ أَخَاكَ يَكْتُمُهُمَا مِنَ الْمُصْحَفِ، وَكَذَا أَخْرَجَهُ الْحَمِيدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ، وَمِنْ طَرِيقِهِ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْمُسْتَخْرَجِ، وَكَانَ سُفْيَانُ كَانَ تَارَةً يُصْرِّحُ بِذَلِكَ وَتَارَةً يُبْهِمُهُ. وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ أَيْضًا وَابْنُ حَبَّانَ مِنْ رِوَايَةِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ بِلَفْظٍ: (إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَانَ لَا يَكْتُبُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ).

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَيَّاشٍ عَنْ عَاصِمٍ بِلَفْظٍ: (إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ يَقُولُ فِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ)، وَهَذَا أَيْضًا فِيهِ إِثْمَامٌ. وَقَدْ أَخْرَجَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي زِيَادَاتِ الْمُسْنَدِ وَالطَّبْرَانِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ النَّخَعِيِّ قَالَ: (كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يَكْتُبُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ مِنْ مَصَاحِفِهِ وَيَقُولُ: إِنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ). (وهذا يدل على أنه رضي الله عنه كان يرى أنهما ليستا من كتاب الله تعالى وفيه رد من قال أنه لم يكتبها لشهرتهما) قَالَ الْأَعْمَشُ: وَقَدْ حَدَّثَنَا عَاصِمٌ عَنْ زُرِّ عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ فَذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ فُتَيْبَةَ الَّذِي فِي الْبَابِ الْمَاضِي، وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبَزَّازُ، وَفِي آخِرِهِ يَقُولُ: (إِنَّمَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهِمَا).

قَالَ الْبَزَّازُ: وَلَمْ يُتَابِعِ ابْنُ مَسْعُودٍ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَرَأَهُمَا فِي الصَّلَاةِ.

قُلْتُ: هُوَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، وَزَادَ فِيهِ ابْنُ حِبَّانٍ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَفُوتَكَ قِرَاءَتُهُمَا فِي صَلَاةٍ فَافْعَلْ). [فتح الباري: ٧٤٢/٨]

♦ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ (ت: ٨٥٢هـ): (وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ بْنُ حَبِيبٍ أَبُو طَرِيقٍ أَبِي الْعَلَاءِ بْنُ الشَّخِيرِ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَأَهُ الْمُعَوَّذَتَيْنِ وَقَالَ لَهُ: ((إِذَا أَنْتَ صَلَّيْتَ فَاقْرَأْ بِهِمَا)) وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَلِسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى الصُّبْحَ فَقَرَأَ فِيهِمَا بِالْمُعَوَّذَتَيْنِ. وَقَدْ تَأَوَّلَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ فِي كِتَابِ الْإِنْتِصَارِ، وَتَبَعَهُ عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ -مَا حُكِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ فَقَالَ: لَمْ يُنْكِرْ ابْنُ مَسْعُودٍ كَوْنَهُمَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ إِثْبَاتَهُمَا فِي الْمُصْحَفِ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ لَا يُكْتَبُ فِي الْمُصْحَفِ شَيْءٌ إِلَّا إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدْنَى فِي كِتَابَتِهِ فِيهِ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْهُ الْإِذْنُ فِي ذَلِكَ. قَالَ: فَهَذَا تَأْوِيلٌ مِنْهُ وَلَيْسَ جَحْدًا لِكَوْنِهِمَا قُرْآنًا.

وَهُوَ تَأْوِيلٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّ الرِّوَايَةَ الصَّحِيحَةَ الصَّرِيحَةَ الَّتِي ذَكَرْتُهَا تَدْفَعُ ذَلِكَ حَيْثُ جَاءَ فِيهَا: وَيَقُولُ: (إِنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ).

نَعَمْ يُمَكِّنُ حَمَلُ لَفْظِ كِتَابِ اللَّهِ عَلَى الْمُصْحَفِ فَيَتِمَّ شَيْءُ التَّأْوِيلِ الْمَذْكُورِ، وَقَالَ غَيْرُ الْقَاضِي: لَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُ ابْنِ مَسْعُودٍ مَعَ غَيْرِهِ فِي قُرْآنِيَّتِهِمَا، وَإِنَّمَا كَانَ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِمَا. انْتَهَى.

وَعَايَةُ مَا فِي هَذَا أَنَّهُ أَهْمَ مَا بَيَّنَّهُ الْقَاضِي، وَمَنْ تَأَمَّلَ سِيَاقَ الطَّرِيقِ الَّتِي أوردَناها لِلْحَدِيثِ اسْتَبَعَدَ هَذَا الْجَمْعَ، وَأَمَا قَوْلُ التَّوَوُّيِّ فِي شَرْحِ الْمُهَذَّبِ: (أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْمُعَوَّذَتَيْنِ وَالْفَاتِحَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ مَنْ جَحَدَ مِنْهُمَا شَيْئًا كَفَرَ، وَمَا نَقَلَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ بَاطِلًا لَيْسَ بِصَحِيحٍ). فففيه نظرٌ، وَقَدْ سَبَقَهُ لِنَحْوِ ذَلِكَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ فَقَالَ فِي أَوَائِلِ الْمُحَلَّى: (مَا نَقَلَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ إنْكَارِ قُرْآنِيَّةِ الْمُعَوَّذَتَيْنِ فَهُوَ كَذِبٌ بَاطِلٌ).

وَكَذَا قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي أَوَائِلِ تَفْسِيرِهِ: (الْأَغْلَبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ هَذَا التَّنْقُلَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ كَذِبٌ بَاطِلٌ).

وَالظَّنُّ فِي الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ بَعِيرٌ مُسْتَنَدٌ لَا يَقْبَلُ، بَلِ الرِّوَايَةُ صَحِيحَةٌ وَالتَّأْوِيلُ مُحْتَمَلٌ، وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي نَقَلَهُ إِنْ أَرَادَ شُؤْلُهُ لِكُلِّ عَصْرِ فَهُوَ مُحْدُوشٌ، وَإِنْ أَرَادَ اسْتِقْرَارَهُ فَهُوَ مَقْبُولٌ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَانِعِي الزَّكَاةِ: (وَإِنَّمَا قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ عَلَى مَنَعِ الزَّكَاةِ وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا لَمْ يَكْفُرُوا لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ لَمْ يَكُنْ اسْتَقَرَّ، قَالَ: وَلَنَحْنُ الْآنَ نَكْفُرُ مَنْ جَحَدَهَا).

قَالَ: (وَكَذَلِكَ مَا نَقَلَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي الْمُعَوَّذَتَيْنِ يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَهُ الْقَطْعُ بِذَلِكَ، ثُمَّ حَصَلَ الْإِتِفَاقُ بَعْدَ ذَلِكَ).

وَقَدْ اسْتَشْكَلَ هَذَا الْمَوْضِعَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فَقَالَ: (إِنْ قُلْنَا: إِنَّ كَوْنَهُمَا مِنَ الْقُرْآنِ كَانَ مُتَوَاتِرًا فِي عَصْرِ ابْنِ مَسْعُودٍ لَرِمَ تَكْفِيرُ مَنْ أَنْكَرَهُمَا، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ كَوْنَهُمَا مِنَ الْقُرْآنِ كَانَ لَمْ يَتَوَاتَرَ فِي عَصْرِ ابْنِ مَسْعُودٍ لَرِمَ أَنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ لَمْ يَتَوَاتَرَ). قَالَ: (وهذه عُقْدَةٌ صَعْبَةٌ).

وَأَجِيبَ بِاحْتِمَالٍ أَنَّهُ كَانَ مُتَوَاتِرًا فِي عَصْرِ ابْنِ مَسْعُودٍ لَكِنْ لَمْ يَتَوَاتَرَ عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَانْخَلَّتِ الْعُقْدَةُ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى. [فتح الباري: ٧٤٢/٨-٧٤٣]

♦ قال أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ): (قوله: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((قيل لي: قل، فقلت)))، قال: فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)

القائل: فنحن نقول إلخ هو أبي بن كعب، ووقع عند الطبراني في الأوسط أن ابن مسعود أيضًا قال مثل ذلك، لكن المشهور أنه من قول أبي بن كعب، فلعله انقلب على رآويه وليس في جواب أبي تصريح بالمراد إلا أن في الإجماع على كونهما من القرآن غنية عن تكلف الأسانيد بأخبار الآحاد، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب). [فتح الباري:

٧٤٣/٨]

♦ وقال محمود بن أحمد بن موسى العيني (ت: ٨٥٥هـ): (قوله: (قيل لي) أي: إنيهما من القرآن، وهذا كان مما اختلف فيه الصحابة ثم ارتفع الخلاف ووقع الإجماع عليه، فلو أنكر اليوم أحد قرآنيتهما كفر، وقال بغيرهما: ما كانت المسألة في قرآنيتهما بل في صفة من صفاتهما وخاصة من خاصتهما. ولا شك أن هذه الرواية تحتلها فاحمل عليها أولى - والله أعلم -). فإن قلت: قد أخرج أحمد وابن حبان من رواية حماد بن سلمة، عن عاصم بلفظ: أن ابن مسعود كان لا يكتب الموعودتين في مصحفه. وأخرج عبد الله بن أحمد في زيادات المسند والطبراني وابن مردويه من طريق الأعمش، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد النخعي قال: كان عبد الله بن مسعود يحك الموعودتين من مصحفه ويقول: إنيهما ليستا من القرآن أو من كتاب الله تعالى.

قلت: قال البرزالي: لم يتابع ابن مسعود على ذلك أحد من الصحابة.

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها في الصلاة وهو في صحيح مسلم عن عتبة بن عامر، وزاد فيه ابن حبان من وجه آخر، عن عتبة بن عامر: ((فإن استطعت أن لا تفوتك قراءتهما في صلاة فافعل)). (وأخرج أحمد من طريق أبي العلاء بن الشخير عن رجل من الصحابة أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه الموعودتين وقال له: ((إذا أنت صليت فاقرا بهما)). (وإسناده صحيح، وروى سعيد بن منصور من حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الصبح فقرأ فيهما بالموعودتين).

قوله: (قال: فنحن نقول) القائل هو أبي بن كعب). [عمدة القاري: ١١/٢٠].

◆ وقال جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ): (قال ابن حجر: ليس في جواب أبي تصريح بالمراد، إلا أن في الإجماع على كونهما من القرآن غنية عن تكلف الأسانيد بأخبار الآحاد). [التوشيح: ٣١٦٣/٧]

◆ وقال أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ): ((وبه قال: (حدثنا فتية بن سعيد) البغلاني الثقفاني قال: (حدثنا سفيان) بن عيينة (عن عاصم) هو ابن أبي النجود بفتح النون وبالجيم المضمومة آخره دال مهملة أحد القراء السبعة (وعبد) بفتح العين، وسكون الموحدة ابن أبي لبابة بضم اللام، وتخفيف الموحدة الأسدي كلاهما (عن زر بن حبيش) بكسر الزاي وتشديد الزاء، وحبيش بضم الحاء المهملة وفتح الموحدة آخره معجمة مصغرا، وسقط: ابن حبيش لأبي ذر أنه (قال: سألت أبا بن كعب عن المعوذتين) بكسر الواو المشددة، وعند ابن حبان وأحمد من طريق حماد بن سلمة عن عاصم: قلت: لأبي بن كعب: إن ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه (فقال) أبي: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم) عنهما (فقال) ولأبي ذر: قال: ((قيل لي ((بلسان جبريل، ((فقلت: ((قال أبي: (فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)).

وعند الحافظ أبي يعلى عن علقمة قال: كان عبد الله يحك المعوذتين من المصحف ويقول: إنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ بهما ولم يكن عبد الله يقرأ بهما، ورواه عبد الله بن الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن يزيد، وزاد ويقول: إني لست من كتاب الله.

وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء أن ابن مسعود كان لا يكتبهما في مصحفه. حينئذ فقول التووي في شرح المذهب: (أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاحة من القرآن، وأن من جحد شيئا منها كفر وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح) فيه نظر كما نبه عليه في الفتح؛ إذ فيه طعن في الروايات الصحيحة بغير مستند، وهو غير مقبول، وحينئذ فالمصير إلى التأويل أولى.

وقد تأول القاضي أبو بكر الباقلاني ذلك بأن ابن مسعود لم ينكر قرآنيتهما وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنه كان يرى أن لا يكتب في المصحف شيء إلا إن كان النبي صلى الله عليه وسلم أذن في كتابته فيه، وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك، فليس فيه جحد لقرآنيتهما.

وتعقب بالرواية السابقة الصريحة التي فيها: ويقول: إني لست من كتاب الله، وأجيب بإمكان حمل لفظ كتاب الله على المصحف، فيتمشى التأويل المذكور. قاله في فتح الباري.

ويحتمل أيضا أنه لم يسمعهما من النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتواتر عنده.

ثم لعله قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فقد أجمع الصحابة عليهما، وأثبتوهما في المصاحف التي بعثوها إلى سائر الآفاق). [إرشاد الساري: ٤٤٢/٧].

♦ وقال أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ): (وهذا مما اختلف فيه ثم ارتفع الخلاف ووقع الإجماع عليه، فلو أنكروا أحد اليوم قرآنه كفر).

♦ وقال عبد الله بن محمد بن أبي شيبه العنسي (ت: ٢٣٥هـ): ((حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: رأيت عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ): (وعن عبد الرحمن بن يزيد - يعني: النخعي - قال: كان

عبد الله يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول: إني لست من كتاب الله تبارك وتعالى.

رواه عبد الله بن أحمد والطبراني، ورجال عبد الله رجال الصحيح، ورجال الطبراني ثقات). [مجمع الزوائد: ١٤٩/٧]

♦ وقال محمد بن أحمد بن مطرف الكناي (ت: ٤٥٤هـ): قال أبو محمد في المشكل في آخر باب القراءات: أما نقصان مصحف عبد الله بن مسعود بحذفه المعوذتين وأم الكتاب، وزيادة مصحف أبي سورة القنوت، فإننا لا نقول: إن عبد الله وأبياً رحمه الله عليهما أصابا، وأخطأ المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، ولكن عبد الله ذهب فيما يرى أهل النظر إلى أن المعوذتين كانتا كالعوذة والرقية للعين وغيرها، وكان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ بهما الحسن والحسين عليهما السلام وغيرهما، كما كان يعوذ به ((أعوذ بكلمات الله التامات)) وغير ذلك، فظن أنهما ليستا من القرآن، وأقام على ظنه ومخالفة الصحابة جميعاً كما أقام على التطبيق، وأقام غيره على الفتيا بالمتعة والصرف، ورأى آخر أكل البر وهو صائم، ورأى آخر السحور بعد طلوع الفجر الثاني، في أشباه لهذا كثيرة، وإلى هذا ذهب أبي رحمه الله في دعاء القنوت؛ لأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به في الصلاة دعاء دائماً فظن أنه من القرآن، وأقام على ظنه ومخالفة الصحابة.

وأما فاتحة الكتاب فإنني أشك فيما روي عن عبد الله من تركه إثباتها في مصحفه، فإن كان هذا محفوظاً فليس يجوز لمسلم أن يظن به الجهل بأنها من القرآن، وكيف يظن به ذلك وهو من أشد الصحابة عناية بالقرآن وأحد الستة الذين انتهى إليهم العلم؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه: ((من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد)).

وعمر رضي الله عنه يقول: كُنَيْفٌ مُلِيٌّ عِلْمًا، وهو مع هذا متقدم الإسلام بدري لم يزل يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم بها، وقال: ((لا صلاة إلا بسورة الحمد)) وهي السبع المثاني وأم الكتاب، أي: أعظمه وأقدم ما نزل منه، كما سميت مكة أم القرى؛ لأنها أقدمها، قال الله تبارك وتعالى: { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا } [آل عمران: ٩٦]. ولكنه ذهب فيما يظن أهل النظر إلى أن القرآن قد جمع بين اللوحين مخافة الشك والتسنيان والزيادة والنقصان، ورأى ذلك لا يجوز في سورة (الحمد) لقصرها، وأنها تثنى في كل صلاة وكل ركعة، ولأنه لا يجوز لأحد من المسلمين ترك تعلمها كما يجوز ترك تعلم غيرها وحفظه إذ كانت لا صلاة إلا بها، فلما آمن عليها العلة التي من أجلها

كُتِبَ الْمُصْحَفُ تَرَكَ كِتَابَتَهَا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا مِنَ الْمُصْحَفِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَتَبَ مِنَ الْقُرْآنِ سُورًا وَتَرَكَ سُورًا لَمْ يَكْتُبَهَا لَمْ نَرِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ وَكَفًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ). [القرطبي: ٢٢٣].

♦ وَقَالَ أَبُو الْمُظَفَّرِ مَنْصُورُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّمْعَانِيُّ (ت: ٤٨٩هـ): (فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَمْ يَكْتُبِ ابْنُ مَسْعُودٍ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ؟ وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَشْتَبَهَ عَلَى أَحَدٍ أَهْمَا مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ لَيْسَتَْا مِنَ الْقُرْآنِ؟

وَالْجَوَابُ عَنْهُ: أَنَّ حَمَّادَ بْنَ سَلَمَةَ رَوَى عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَدَلَةَ، عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: قُلْتُ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ لَمْ يَكْتُبْ فِي مُصْحَفِهِ الْمُعَوَّذَتَيْنِ! فَقَالَ أُبَيٌّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((قَالَ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} فَقُلْتُهَا، وَقَالَ: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} فَقُلْتُهَا)) فَخُنْ نَقُولُ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كَأَنَّ أَبِيًّا وَافَقَ ابْنَ مَسْعُودٍ.

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَخْبَرَنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ النُّقُورِ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ حَبَابَةَ، أَخْبَرَنَا الْبَغَوِيُّ، أَخْبَرَنَا هُدْبَةُ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ. الْحَدِيثُ، خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ، فَيَجُوزُ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ وَأَبِيًّا مِنْ كَثَرَةِ مَا سَمِعَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ وَيَتَعَوَّذُ بِهِمَا ظَنًّا أَهْمَا غُذُوَّةً، فَلَمْ يُشَبَّهَا فِي الْمُصْحَفِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُمَا مَكْتُوبَتَانِ فِي مُصْحَفِ أُبَيٍّ وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ لَمْ يَشْتَبَهَ عَلَيْهِ أَهْمَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكْتُبَهُمَا لِشَهْرَتِهِمَا، كَمَا تَرَكَ كِتَابَةَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ لِشَهْرَتِهَا.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَلَأُ). [تفسير القرآن: ٣٠٩/٦-٣١٠]

♦ قَالَ عَلَمُ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّخَاوِيُّ (ت: ٦٤٣هـ): (وَهَاتَانِ السُّورَتَانِ مِنَ الْقُرْآنِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، وَيُرَوَّى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُهُمَا مِنَ الْمَصَاحِفِ وَيَقُولُ: (لَا تَزِيدُوا فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ)، فَإِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا عَنْهُ فَسَبَبُهُ أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوَّذُ بِهِمَا سَبْطِيَهُ فَظَنَّ أَهْمَا غُذُوتَانِ.

وَالْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ عَلَى خِلَافٍ ذَلِكَ). [جمال القراءة: ٢٠٣/١-٢٠٤].

♦ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْقُرْطُبِيُّ (ت: ٦٧١هـ): (وَزَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَهْمَا دُعَاءً تُعَوَّذُ بِهِ، وَلَيْسَتَْا مِنَ الْقُرْآنِ؛ خَالَفَ بِهِ الْإِجْمَاعُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ الْبَيْتِ.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: لَمْ يَكْتُبْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي مُصْحَفِهِ الْمُعَوَّذَتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوَّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بِهِمَا، فَقَدَّرَ أَهْمَا بِمَنْزِلَةِ: أُعِيدْكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ.

قَالَ أَبُو بَكْرِ الْأَنْبَارِيُّ: وَهَذَا مَرْدُودٌ عَلَى ابْنِ قُتَيْبَةَ؛ لِأَنَّ الْمُعَوَّذَتَيْنِ مِنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْمُعْجَزِ لِكُلِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ، وَ(أُعِيدْكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ) مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ بَيْنَ. وَكَلَامُ الْخَالِقِ الَّذِي هُوَ آيَةُ لِحَمْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ،

وَحُجَّةٌ لَهُ بَاقِيَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْكَافِرِينَ، لَا يَلْتَبِسُ بِكَلَامِ الْآدَمِيِّينَ، عَلَى مِثْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ الْفَصِيحِ اللَّسَانِ، الْعَالِمِ بِاللُّغَةِ، الْعَارِفِ بِأَجْنَاسِ الْكَلَامِ، وَأَفَانِينَ الْقَوْلِ.

وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَمْ يَكْتُبْ عَبْدُ اللَّهِ الْمُعَوَّذَتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ أَمِنَ عَلَيْهِمَا مِنَ النَّسيانِ، فَأَسْقَطَهُمَا وَهُوَ يَحْفَظُهُمَا؛ كَمَا أَسْقَطَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ مِنْ مُصْحَفِهِ، وَمَا يُشَكُّ فِي حِفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ لَهَا. فَرَدَّ هَذَا الْقَوْلُ عَلَى قَائِلِهِ، وَاحْتُجَّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ قَدْ كَتَبَ: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}، و{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، وَهُنَّ يَجْرَيْنَ مَجْرَى الْمُعَوَّذَتَيْنِ فِي أَهْنٍ غَيْرِ طَوَالٍ، وَالْحِفْظُ إِلَيْهِنَّ أَسْرَعُ، وَنَسْيَانُهُنَّ أَمُورٌ، وَكُلُّهُنَّ يُخَالَفُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ؛ إِذِ الصَّلَاةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِقِرَاءَتِهَا. وَسَبِيلُ كُلِّ رَكْعَةٍ أَنْ تَكُونَ الْمُقَدِّمَةَ فِيهَا قَبْلَ مَا يُقْرَأُ مِنْ بَعْدِهَا، فِاسْقَاطُ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ مِنَ الْمُصْحَفِ، عَلَى مَعْنَى الثَّقَةِ بِبَقَاءِ حِفْظِهَا، وَالْأَمْنِ مِنْ نَسْيَانِهَا، صَحِيحٌ، وَلَيْسَ مِنَ السُّوَرِ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْمَعْنَى مَجْرَاهَا، وَلَا يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَهَا. وَقَدْ مَضَى هَذَا الْمَعْنَى فِي سُورَةِ (الْفَاتِحَةِ). وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. [الجامع لأحكام القرآن: ٢٥١/٢٠]

♦ قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَازَنُ (ت: ٧٢٥هـ): (وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أَنْزَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِنْهُنَّ قَطُّ: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ})). فِيهِ بَيَانٌ عَظِيمٌ فَضْلِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى كَوْنِهِمَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ نَسَبَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ خِلَافَ هَذَا، وَفِيهِ بَيَانٌ أَنَّ لَفْظَةَ {قُلْ} مِنَ الْقُرْآنِ أَيْضًا، وَأَنَّهُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَتَيْنِ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ، وَقَدْ اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى هَذَا كَلِّهِ بَعْدَ خِلَافٍ ذَكَرَ فِيهِ). [لباب التأويل: ٤/٤٩٩].

♦ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّوْكَانِيُّ (ت: ١٢٥٠هـ): "وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يُثَبِّتُ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ، كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي الْمُسْنَدِ وَالطَّبْرَائِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدٍ يَعْنِي النَّخَعِيَّ، قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يَحْكُ الْمُعَوَّذَتَيْنِ مِنْ مَصَاحِفِهِ وَيَقُولُ: إِنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى. وَرِجَالُ إِسْنَادِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ رِجَالُ الصَّحِيحِ، وَرِجَالُ إِسْنَادِ الطَّبْرَائِيِّ ثِقَاتٌ، وَهَكَذَا أَخْرَجَ الْبَزَّازُ فِي مُسْنَدِهِ: أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَحْكُ الْمُعَوَّذَتَيْنِ مِنَ الْمُصْحَفِ وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُتَعَوَّذَ بِهِمَا. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ لَا يَقْرَأُ بِهِمَا، وَرِجَالُ إِسْنَادِهِ ثِقَاتٌ، وَهَكَذَا أَخْرَجَ الطَّبْرَائِيُّ بِإِسْنَادٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ، قَالَ الْبَزَّازُ: لَمْ يُتَابِعْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَرَأَ بِهِمَا فِي الصَّلَاةِ وَأُثْبِتَتَا فِي الْمُصْحَفِ، أَنْتَهَى.

قُلْتُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِيهِمَا: إِنَّهُمَا خَيْرُ سُورَتَيْنِ قُرْنَتَا، وَتَقَدَّمَ أَمْرُهُ بِالْقِرَاءَةِ بِهِمَا، وَهَذِهِ خَاصِيَّةٌ مِنْ خَوَاصِّ الْقُرْآنِ، وَتَقَدَّمَ أَيْضًا: أَنَّ مَنْ قَرَأَهُمَا فَكَأَنَّمَا قَرَأَ جَمِيعَ مَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَجْمَعَ عَلَى ذَلِكَ الصَّحَابَةُ وَجَمِيعُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ، وَالصَّحَابِيُّ بَشَرٌ، وَلَيْسَ قَوْلُهُ حُجَّةً فِي مِثْلِ هَذَا، عَلَى فَرَضِ

عَدِمَ مُحَافَتِهِ لِمَا ثَبَتَ عَنِ الشَّارِعِ، فَكَيْفَ وَقَدْ خَالَفَ هَا هُنَا السُّنَّةَ الثَّابِتَةَ وَالْإِجْمَاعَ الْمَعْلُومَ]. (تَحْقِيقُ الدَّاكِرِينَ: ٣٣٠ - ٣٣٢). (.)

١ - قال ابن القيم في اعلام الموقعين: "والصحابة كلهم فليس أحد منهم إلا وقد خفي عليه بعض ما قضى الله ورسوله به فهذا الصديق أعلم الأمة به خفي عليه ميراث الجدة حتى اعلمه به محمد بن مسلمة والمغيرة بن شعبة وخفي عليه أن الشهيد لا دية له حتى أعلمه به عمر فرجع إلى قوله وخفي على عمر تيمم الجنب فقال لو بقي شهرا لم يصل حتى يغتسل وخفي عليه دية الأصابع فقضى في الإبهام والتي تليها بخمس وعشرين حتى أخبر أن كتاب آل عمرو بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قضى فيها بعشر عشر فترك قوله ورجع إليه وخفي عليه شأن الاستئذان حتى أخبره به أبو موسى وأبو سعيد الخدري وخفي عليه توريث المرأة من دية زوجها حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان الكلابي وهو أعرابي من أهل البادية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أمره أن يورث امرأة أشيم الضبائي من دية زوجها وخفي عليه حكم إملاص المرأة حتى سأل عنه فوجده عند المغيرة بن شعبة وخفي عليه أمر المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أخذها من مجوس هجر وخفي عليه سقوط طواف الوداع عن الحائض فكان يردهن حتى يطهرن ثم يطفن حتى بلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم - خلاف ذلك فرجع عن قوله وخفي عليه التسوية بين دية الأصابع وكان يفاضل بينها حتى بلغته السنة في التسوية فرجع إليها وخفي عليه شأن متعة الحج وكان ينهى عنها حتى وقف على أن النبي صلى الله عليه وسلم - أمر بها فترك قوله وأمر بها وخفي عليه جواز التسمي بأسماء الأنبياء فنهى عنه حتى أخبره به طلحة أن النبي ص - كناه أبا محمد فأمسك ولم يتماد على النهي هذا وأبو موسى ومحمد بن مسلمة وأبو أيوب من أشهر الصحابة ولكن لم يمر ببالة رضي الله عنه أمر هو بين يديه حتى نهي عنه وكما خفي عليه قوله تعالى إنك ميت وإنهم ميتون وقوله وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم حتى قال والله كائي ما سمعتها قط قبل وقتي هذا وكما خفي عليه حكم الزيادة في المهر على مهر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم - وبناته حتى ذكرته تلك المرأة بقوله تعالى وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا فقال كل أحد أفقه من عمر حتى النساء وكما خفي عليه أمر الجد والكلالة وبعض أبواب الربا فتمنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان عهد إليهم فيها عهدا وكما خفي عليه يوم الحديبية أن وعد الله لنبيه وأصحابه بدخول مكة مطلق لا يتعين لذلك العام حتى بينه له النبي صلى الله عليه وسلم - وكما خفي عليه جواز استدامة الطيب للمحرم وتطيبه بعد النحر وقبل طواف الإفاضة وقد صحت السنة بذلك وكما خفي عليه أمر القدوم على محل الطاعون والفرار منه حتى أخبر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها فإن وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه هذا وهو أعلم الأمة بعد الصديق على الإطلاق وهو كما قال ابن مسعود لو وضع علم عمر في كفة ميزان وجعل علم أهل الأرض في كفة لرجح علم عمر قال الأعمش فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال والله إني لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم وخفي على عثمان بن عفان أقل مدة الحمل حتى ذكره ابن عباس بقوله تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا مع قوله والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين فرجع إلى ذلك وخفي على أبي موسى الأشعري ميراث بنت الابن مع البنت السدس حتى ذكر له أن رسوله الله ص - ورثها ذلك وخفي على ابن العباس تحريم لحوم الحمر الأهلية حتى ذكر له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - حرمها يوم خيبر وخفي على ابن مسعود حكم المفوضة وترددوا إليه فيها شهرا فأفتاهم برأيه ثم بلغه النص بمثل ما أفتى به . وهذا باب واسع لو تتبعناه لجاء سفرا كبيرا .

◆ وقال أبو الشَّاءِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَلُوسِيُّ (ت: ١٢٧٠هـ) وبهذا الاختلافِ قَدَحَ بعضُ المُلْحِدِينَ في إعجازِ القرآنِ قال: لو كانتِ بلاغةُ ذلك بَلَغَتْ حَدَّ الإعجازِ لَتَمَيَّزَ به عن القرآنِ فلم يُتَنَلَفْ في كونه منه، وأنتَ تَعْلَمُ أنه وَقَعَ الإجماعُ على قُرْآنَيْتِهِما وقالوا: إِنَّ إنكارَ ذلك اليومُ كُفْرٌ ()، وَلَعَلَّ ابنَ مسعودٍ رَجَعَ عن ذلك، وفي شَرْحِ المواقِفِ أَنَّ اختلافَ

١ - وفي المسألة دليل على انه ليس كل من انكر شيئا حكم بكفره وانما ذلك موقوف على قيام الحجة بالبلاغ البين الرفع للشبهة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين، وإن أخطأ وغلط؛ حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة. انتهى.

وقال في تلخيص كتاب الاستغاثة: فإن تكفير الشخص المعين، وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها، وإلا فليس كل من جهل شيئاً من الدين يكفر؛ ولهذا لما استحل طائفة من الصحابة والتابعين - كقدامة بن مطعون، وأصحابه - شرب الخمر وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحاً على ما فهموه من آية المائدة اتفق علماء الصحابة - كعمر، وعلي، وغيرهما - على أنهم يستتابون، فإن أصرروا على الاستحلال كفروا، وإن أقروا به جلدوا، فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداء لأجل الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق، فإذا أصرروا على الجحود كفروا، وقد ثبت في الصحيحين حديث الذي قال لأهله: إذا أنا مت فاسحقوني، ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين، فأمر الله البر فرد ما أخذ منه، وأمر البحر فرد ما أخذ منه، وقال ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك يا رب، فغفر له. فهذا اعتقد أنه إذا فعل ذلك لا يقدر الله على إعادته، وأنه لا يعيده، أو جوز ذلك، وكلاهما كفر، لكن كان جاهلاً لم يتبين له الحق بياناً يكفر بمخالفته، فغفر الله له. اهـ.

وقال ابن تيمية - رحمه الله - أيضاً: فإن الكتاب والسنة قد دل على أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأساً، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية، وذلك مثل قوله تعالى: لئن لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وقوله: يا معشر الجن والإنس ألم يأتيكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي. الآية، وقوله: أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير. وقوله: وقال لهم خزنتها ألم يأتيكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم. الآية، وقوله: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً. وقوله: وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا. انتهى.

وقال ابن القيم - رحمه الله - في طريق المهجرتين بعد كلامه عن الطبقة السابعة عشر من مراتب المكلفين في الدار الآخرة يوم القيامة، وهي طبقة المقلدين، وجهال الكفرة، وأتباعهم، وحميرهم الذين هم معهم تبعاً لهم: الله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسول، فهذا مقطوع به في جملة الخلق، وأما كون زيد بعينه وعمرو بعينه قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول، هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله عز وجل وحكمه، هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا: فهي جارية مع ظاهر الأمر، فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا، لهم حكم أوليائهم، وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة، وهو مبني على أربعة أصول:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه...

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادة العلم بها وبموجبها.

الثاني: العناد لها بعد قيامها، وترك إرادة موجبها، فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها: فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر؛ إما لعدم عقله وتمييزه، كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له...

الأصل الرابع: أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التي لا يخل بها سبحانه، وأنها مقصودة لغايتها الحمودة، وعواقبها الحميدة. اهـ. وعلى أية حال: فإن الحكم بالردة على الأعيان، وما يترتب عليه لا يكون لآحاد الناس، وإنما يكون للقضاء الشرعي الذي يتولاه أهل العلم.

وتكفير الصحابة رضي الله عنهم بالتأويلات الفاسدة طريقة الخوارج كلاب أهل النار .

فقد روى الحاكم والطبراني وعبد الرزاق ويعقوب بن سفيان الفسوي في المعرفة والتاريخ عن ابن عباس: أنه لما اعتزلت الخوارج دخولوا رأياً وهم ستة ألف وأجمعوا أن يخرجوا على علي بن أبي طالب وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم معه. قال: وكان لا يزال يجيء إنسان فيقول: يا أمير المؤمنين إن القوم خارجون عليك - يعني علياً - فيقول: دعوهم فإنني لا أقاتلهم حتى يقتلوني وسوف يفعلون. فلما كان ذات يوم، أتته قبل صلاة الظهر فقلت له: يا أمير المؤمنين أبردنا بصلاة لعلني أدخل على هؤلاء القوم فأكلهم. فقال: إني أخاف عليك. فقلت: كلا وكنت رجلاً حسن الخلق لا أؤذي أحداً (وهذا من الحكمة فإن كون الرجل مبغوضاً لدى المقابل قبلد يمنع منع وصول الحق إليه)، فأذن لي، فلبست حلة من أحسن ما يكون من اليمن، وترجلت (وهذا أيضاً من الحكمة فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجمل للوفود)، ودخلت عليهم نصف النهار، فدخل على قوم لم أر قوماً قط أشد منهم اجتهاداً، جباهم قرحت من السجود، وأيديهم كأنها بقر الأبل (من خشونتها تشبه حلد ركب الأبل التي تبرك عليها)، وعليهم قمص مرصصة (مغسولة ونظيفة)، مشمرين، مسهمة (متغيرة اللون) وجوههم من السهر، فسلمت عليهم. فقالوا: مرحباً يا ابن عباس ما جاء بك؟ قال: قلت: أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار ومن عند صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، علي وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله. فقالت طائفة منهم: لا تخاصموا قريشاً فإن الله قال " بل هم قوم خصمون " فقال اثنان أو ثلاثة: لو كلمتهم، (في رواية عبد الرزاق: فقال بعضهم لا تحدثوه وقال بعضهم والله لنحدثنه قال قلت أخبروني ما تنقمون على بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخنته وأول من آمن به وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه) فقلت لهم: ترى ما نقمتهم على صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار وعليهم نزل القرآن وليس فيكم منهم أحد وهم أعلم بتأويله منكم؟ قالوا: ثلاثاً. قلت: ماذا؟ قالوا: أما إحداهن فإنه حكم الرجال في أمر الله عز وجل وقد قال الله عز وجل " إن الحكم إلا لله " فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله عز وجل؟ فقلت: هذه واحدة وماذا؟ قالوا: وأما الثانية فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم فلئن كانوا مؤمنين ما حل لنا قتالهم وسباهم. وماذا الثالثة؟ قالوا: إنه محي نفسه من أمير المؤمنين، إن لم يكن أمير المؤمنين فإنه لأمر الكافرين قلت: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: كفانا هذا. قلت لهم: أما قولكم حكم الرجال في أمر الله عز وجل أنا أقرأ عليكم في كتاب الله عز وجل ما ينقض قولكم أفترجعون؟ قالوا: نعم. قلت: فإن الله عز وجل قد صير من حكمه إلى الرجال في ربع

درهم ثمن أرب وتلا هذه الآية " ولا تقتلوا الصيد وأنتم حُرْم " إلى آخر الآية، وفي المرأة وزوجها " وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها " إلى آخر الآية فنشدتكم بالله هل تعلمون حكم الرجال في إصلاح ذات بينهم وحقق دمائهم أفضل أم حكمهم في أرب وبضع امرأة. فأيهما ترون أفضل ؟ قالوا: بل هذه. قال: خرجت من هذه ؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم فتسبون أمكم عائشة، فوالله لئن قلتم ليست بأمننا لقد خرجتم من الاسلام ووالله لئن قلتم نسيبنا نستحل منها ما نستحل من غيرها لقد خرجتم من الاسلام، فأنتم بين الضاللتين إن الله عز وجل قال " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم " ، فإن قلتم ليست بأمننا لقد خرجتم من الاسلام. أخرجت من هذه ؟ قالوا: نعم. وأما قولكم محاً نفسه من أمير المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون، يوم الحديبية، كاتب المشركين أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو فقال: يا علي أكتب هذا ما اصطاح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال المشركون: والله لو نعلم أنك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قاتلناك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنك تعلم أي رسولك. امح يا علي اكتب: هذا ما كاتب عليه محمد بن عبد الله. فوالله لرسول الله صلى الله عليه وسلم خير من علي؛ فقد محاً نفسه. قال: فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم فقتلوا.

وهذا يدل ان الانسان قد يتبنى رأياً يظنه صواباً بل قد يبذل نفسه فيه ثم يتبين له بعد ذلك ضلال سعيه وان جهده ضاع سدى فكيف لو لم يتبين ذلك له الا يوم القيامة فعلى الانسان ان يحرص على طلب العلم ويكثر من سؤال الله تعالى الهداية لطريق الحق والثبات عليه وتأمل في حال هؤلاء كيف انقلب عندهم خيار الناس الى شرار مردة حتى قتلوا خير الامة في زمانهم وهو علي رضي الله عنه يتقربون بذلك الى الله بزعمهم

قال صالح ال الشيخ في شرح كشف الشبهات: "وعبد الرحمن بن ملجم قاتل علي رضي الله كان في المدينة من أكثر الناس إحكام للقرآن فكتب عمر رضي الله عنه إلى عاهله في مصر عمرو بن العاص فقال له: إني مرسل إليك برجل آثرتك به على نفسي وهو عبد الرحمن بن ملجم، اجعل له داراً يعلم الناس فيها القرآن، فلما وصل للمكتوب إلى عمرو استأجر له داراً أو أكثرى له داراً فجعله يعلم الناس. وكان من أكثر الناس عبادة؛ عبد الرحمن بن ملجم، ومن أكثر الناس صلاحاً في أول أمره حتى دخلته الفتنة بالقيام على عثمان رضي الله عنه، ثم سار مع علي إلى أن حصل قتل علي رضي الله عنه حتى إنه لما قتله وأرادوا القصاص منه قال لا تقتلوني دفعة واحدة؛ بل قطعوني أجزاء حتى أرى جسدي يقطع وأنا صابر في سبيل الله ولساني يلهج بذكر الله، وهذا من أعظم الفتن التي حصلت طائفة بعده حتى قال أصحابه بعده ممن غرهم هذا المظهر في مدح عبد الله بن ملجم قاتل علي:

يا ضربة من تقي - يعني عبد الرحمن بن ملجم يصفه بأنه تقي صالح -.

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزاناً

كان هذا من قول عمران بن حطان وقد تاب -فيما يقال- في آخر عمره من قول الخوارج".

قال ابن جبرين في شرح الطحاوية: "وعمران بن حطان كان من أهل السنة، وروى أحاديث عن عائشة وعن غيرها من الصحابة، ثم تزوج امرأة من النواصب - أي: من الخوارج - ورجا أن يؤثر عليها حتى ترجع وتكون من أهل السنة، ولكن أثرت عليه، ولقنته مذهب الخوارج، فأصبح من الخوارج إلا أنه ليس من المنتعصبين، لكنه من قعدتهم الذين يقعدون ولا يخرجون".

الصحابة في بعض سُورِ القرآنِ مَرْوِيٍّ بِالْأَحَادِ الْمَفِيدَةِ لِلظَّنِّ، ومجموعُ القرآنِ مَنْقُولٌ بِالتَّوَاتُرِ الْمَفِيدِ لِلْيَقِينِ الَّذِي يَضْمَحِلُّ الظَّنُّ فِي مَقَابِلَتِهِ فَتِلْكَ الْآحَادُ مِمَّا لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ ثُمَّ إِنْ سَلَّمْنَا اخْتِلَافَهُمْ فِيمَا ذَكَرْنَا: إِنْهُمْ لَمْ يَحْتَلِفُوا فِي نزوله على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فِي بُلُوغِهِ فِي الْبَلَاغَةِ حَدَّ الْإِعْجَازِ بَلْ فِي مُجَرَّدِ كَوْنِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ لَا يَضُرُّ فِيمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ. انتهى.

♦ وَقَالَ صَدِيقُ بْنُ حَسَنٍ خَانَ الْحُسَيْنِيِّ الْقَنُوجِيُّ (ت: ١٣٠٧هـ): (عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ((أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِنْهُنَّ قَطُّ؟ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، وَ{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ})). انتهى.

قَالَ التَّوَوِيُّ: فِيهِ بَيَانٌ عَظِيمٌ فَضْلِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ، وَقَدْ سَبَقَ قَرِيبًا الْخِلَافُ فِي إِطْلَاقِ تَفْضِيلِ بَعْضِ الْقُرْآنِ عَلَى بَعْضٍ. وَفِيهِ: دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى كَوْنِهِمَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَرَدُّ عَلَى مَنْ نَسَبَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ خِلَافَ هَذَا. وَفِيهِ: أَنَّ لَفْظَةَ "قُلْ" مِنَ الْقُرْآنِ ثَابِتَةٌ مِنْ أَوَّلِ السُّورَتَيْنِ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى هَذَا كَلِّهِ، انْتَهَى. وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ أَحَادِيثٌ، ذَكَرَهَا فِي تَحْقِيقِ الذَّاكِرِينَ.

وَفِي بَعْضِهَا عَنْ عُقْبَةَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ وَالتَّسَائِيِّ بَلْفُظٍ: ((أَلَا أَعْلَمُكُمْ خَيْرَ سُورَتَيْنِ؟))

قَالَ الشُّوْكَانِيُّ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى مَزِيدِ فَضْلِهِمَا، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا، وَبَيْنَ مَا وَرَدَ فِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ مِنَ السُّورِ وَالْآيَاتِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ مَا وَرَدَ تَفْضِيلُهُ عَلَى أَنَّهُ فَاضِلٌ عَلَى مَا عَدَا مَا قَدْ وَقَعَ تَفْضِيلُهُ بِدَلِيلٍ آخَرَ، فَالتَّفْضِيلُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ إِضَافِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ. وَهَذَا شَيْءٌ حَسَنٌ، فَإِنْ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ، فَالْمَرْجِعُ التَّرْجِيحُ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ الْقَاضِيَةِ بِالتَّفْضِيلِ.... وَقَدْ عَرَفْتُ بِهَذَا أَنَّ قَوْلَ التَّوَوِيِّ الْمُتَقَدِّمَ بَلْفُظٍ: وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ نَسَبَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ خِلَافَ هَذَا. انْتَهَى لَيْسَ كَمَا يَنْبَغِي، فَإِنَّ الْخِلَافَ عَنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثَابِتٌ بِمَا حَكَاهُ الشُّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ قَرِيبًا، وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا الْخِلَافِ الْجَوَابُ الْمُتَقَدِّمُ). [السِّرَاجُ الْوَهَّاجُ: ١/ ٥٨٠-٥٨٤]

♦ وَقَالَ مُحَمَّدُ أَنْوَرُ الْكَشْمِيرِيُّ (ت: ١٣٥٢هـ): (قَوْلُهُ: فَقَالَ: ((قِيلَ لِي: قُلْ))، وَاعْلَمْ أَنَّهُ نُسِبَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ لَمْ تَكُونَا عِنْدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّهُمَا نَزَلَا لِلْحَوَائِجِ الْوَقْتِيَّةِ، كَالْتَعَوُّذِ، فَهُمَا وَطِيفَتَانِ وَفَتِيَّتَانِ، عَلَى شَاكِلَةِ سَائِرِ الْوُطَائِفِ وَالْأَدْعِيَةِ، فَلَا يَجُوزُ إِدْخَالُهُمَا فِي الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَتَمَسَّكُ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ: {قُلْ}. فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى تَعْلِيمِهِ إِيَّاهُ، عَلَى طَرِيقِ سَائِرِ الْأَدْعِيَةِ، فَأَجَابَ عَنْهُ زُرُّ بْنُ حُبَيْشٍ، وَهُوَ تَلْمِيزُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: {قُلْ} فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ، فَتَحْنُ أَيْضًا نَقُولُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وسَلَّمَ، على أَنَّ {قُلْ} في سورة الإخلاصِ أيضًا، وبالجملة كَانَ الخلافُ بَيْنَهُمَا كَالخلافِ فِي الرَّمَلِ فِي الْحَجِّ، زَعَمَهُ بَعْضُهُمْ سُنَّةً وَقَتِيَّةً، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ سُنَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، فَهَكَذَا كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَرَاهُمَا وَطِيفَةً وَقَتِيَّةً، لَا أَنَّهُ كَانَ يُنْكِرُ كَوَهُمَا مُنْزَلَتَيْنِ مِنَ السَّمَاءِ، وَبَحَثَ فِيهِ الْحَافِظُ، وَآلٌ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُنْكِرُ قُرْآنِيَّتَهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُنْكِرُ كِتَابَتَهُ فِي الْمَصْحَفِ، وَمَرَّ عَلَيْهِ بِخَرْ الْعُلُومِ فِي شَرْحِ مُسَلِّمِ الثَّبُوتِ، تَحْتَ تَعْرِيفِ الْقُرْآنِ، وَقَالَ: إِنَّ سِلْسِلَةَ الْقِرَاءَةِ الَّتِي تَبْلُغُ الْيَوْمَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ نَجَدَ فِيهَا الْمَعُودَتَيْنِ بِالِاتِّفَاقِ وَحِينَئِذٍ يَنْبَغِي أَنْ يُؤُولَ فِي النَّقْلِ الْمَذْكُورِ). [فَيْضُ الْبَارِي: ٢٦١/٤-٢٦٢]

قَالَ مُحَمَّدُ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ (ت: ١٣٩٣هـ): (وَاشْتَهَرَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ يُنْكِرُ أَنْ تَكُونَ الْمَعُودَتَانِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهِمَا، أَيْ: وَلَمْ يُؤْمَرْ بِأُحَدِهِمَا مِنَ الْقُرْآنِ).

وَقَدْ أَجْمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْقِرَاءَةِ بِهِمَا فِي الصَّلَاةِ، وَكُتِبَا فِي مَصَاحِفِهِمْ، وَصَحَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ بِهِمَا فِي صَلَاتِهِ). [التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: ٦٢٤/٣٠-٦٢٥]

♦ قَالَ عَطِيَّةُ مُحَمَّدٍ سَالِمٍ (ت: ١٤٢٠هـ): (يَذْكُرُ الْمُفَسِّرُونَ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَرَاهُمَا مُعُودَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْقُرْآنِ، وَلَكِنَّ أَيْبَنَ بَنِي كَعْبٍ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَنِي: ((أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}. فَقُلْتُهَا، وَقَالَ: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} فَقُلْتُهَا)). فَتَحْنُ نَقُولُ مَا قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ.

وَذَكَرَ نَحْوَهُ عَنِ الْبُخَارِيِّ ثُمَّ قَالَ: ثُمَّ قَدْ رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ إِلَى قَوْلِ الْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَثْبَتُوا فِي الْمَصَاحِفِ الْأَتَمَّةِ، وَنَفَذُوهَا إِلَى سَائِرِ الْأَفَاقِ.

وَرَوَى عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ بِهِمَا فِي الصَّلَاةِ، وَسَاقَ عِدَّةَ طُرُقٍ فِي إِثْبَاتِ أَهْمَا قُرْآنًا؛ مِمَّا يَنْفِي أَيَّ خِلَافٍ بَعْدَ ذَلِكَ فِي إِثْبَاتِهِمَا.

وَقَدْ اعْتَدَرَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُمَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْمَا قُرْآنًا، وَسَمِعَهُمَا فَظَنَّهُمَا أَهْمًا دُعَاءً مِنَ الْأَدْعِيَةِ؛ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)).

وَلَمَّا بَلَغَهُ إِثْبَاتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَعَ إِلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ). [تَتِمَّةُ أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: ٣٣٧/٩]

فَابْنُ مَسْعُودٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . مِنْ أَجْلَاءِ الصَّحَابَةِ السَّابِقِينَ وَأَوْعِيَةِ الْعِلْمِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ مِنَ الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ بِأَخْذِ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ، وَمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأَبِي بَنِي كَعْبٍ، وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ.

وَقَدْ حَضَرَ الْعَرْضَةَ الْأَخِيرَةَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . قَالَ: أَيُّ الْقَرَاءَتَيْنِ تَرَوْنَ كَانَ آخِرَ الْقَرَاءَةِ؟ قَالُوا: قِرَاءَةُ زَيْدٍ قَالَ: لَا، إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْرِضُ الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ عَلَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَمَا

كانت السنة التي قبض فيها عرضه عليه عرضتين فكانت قراءة ابن مسعود آخرهن . رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

♦ وقال الجزري في النشر : ولا شك أن القرآن نسخ منه وغير فيه في العرضة الأخيرة فقد صح النص بذلك عن غير واحد من الصحابة، وروينا بإسناد صحيح عن زر بن حبیش قال: قال لي ابن عباس أي القراءتين تقرأ؟ قلت: الأخيرة، قال: فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل عليه السلام في كل عام مرة قال: فعرض عليه القرآن في العام الذي قبض فيه النبي صلى الله عليه وسلم مرتين، فشهد عبد الله . يعني ابن مسعود . ما نسخ منه وما بدل، فقراءة عبد الله الأخيرة . اهـ .

♦ وقال ابن حجر في الفتح : إن بن مسعود قال: لو أعلم أحدا تبلغنيه الإبل أحدث عهدا بالعرضة الأخيرة مني لأتيته أو قال لتكلفتم أن آتية وكأنه احترز بقوله تبلغنيه الإبل عمن لا يصل إليه على الرواحل، إما لكونه كان لا يركب البحر فقيد بالبر، أو لأنه كان جازما بأنه لا أحد يفوقه في ذلك من البشر فاحترز عن سكان السماء . اهـ .
وأما ما روي عنه في المعوذتين فقد عارضه ما هو أصح منه وهو نقل أئمة القراء لهما عنه، فقراءة عاصم وحمة والكسائي مسندة بالأسانيد المتصلة بابن مسعود . رضي الله عنه . كما قال الداني والجزري وقد ثبتت المعوذتان في هذه القراءات وهذه مصاحف العالم اليوم برواية حفص عن عاصم وفيها المعوذتان .

وقد أنكر بعض أهل العلم ما روي عن ابن مسعود فيهما، فقد قال ابن حزم في المحلى : كل ما روي عن ابن مسعود من أن المعوذتين، وأم القرآن لم يكونا في مصحفه، فكذب موضوع لا يصح، وإنما صحت عنه قراءة عاصم عن زر بن حبیش عن ابن مسعود فيها أم القرآن، والمعوذتان . اهـ .

♦ وقد تابع النووي ابن حزم في ذلك فقال في المجموع : أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة وسائر السور المكتوبة في المصحف قرآن، وأن من جحد شيئا منه كفر، وما نقل عن ابن مسعود في الفاتحة والمعوذتين باطل، ليس بصحيح عنه، قال ابن حزم في أول كتابه المحلى : هذا كذب على ابن مسعود موضوع، وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زر عن ابن مسعود، وفيها الفاتحة والمعوذتان . اهـ .

وقد ذكر ابن حجر أنه ثبت ذلك عنه، وقد ذهب أهل العلم في تفسير ذلك لعدة مناح وأحسنها ما قال الزرقاني في مناهل العرفان في علوم القرآن : يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقراءة المعوذتين والفاتحة على فرض صحته، كان قبل علمه بذلك فلما تبين له قرآنيتهما بعد تم التواتر وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأتهما من القرآن، قال بعضهم: يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي صلى الله عليه وسلم ولم تتواترا عنده فتوقف في أمرهما، وإنما لم ينكر ذلك عليه لأنه كان بصدد البحث والنظر والواجب عليه التثبت في هذا الأمر . اهـ .

♦ قال الزرقاني : ولعل هذا الجواب هو الذي تستريح إليه النفس، لأن قراءة عاصم عن ابن مسعود ثبت فيها المعوذتان والفاحة وهي صحيحة ونقلها عن ابن مسعود صحيح وكذلك إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر، إذا فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود جمعا بين الروایتين، وإن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين وأنكر الفاتحة بل أنكر القرآن كله فإن إنكاره هذا لا يضرنا في شيء، لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر . اهـ.

هل السورة مكية او مدنية؟ :-

♦ قال السيوطي : " مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاهَا حَمْسٌ".

وقال ابن الجوزي : " وَفِيهَا قَوْلَانِ.

أَحَدُهُمَا: مَدَنِيَّةٌ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ فِي آخِرِينَ.
وَالثَّانِي: مَكِّيَّةٌ، رَوَاهُ كُرَيْبٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ، وَعَطَاءٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَجَابِرٌ. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُحِرَ وَهُوَ مَعَ عَائِشَةَ، فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ الْمَعُودَتَانِ.»
فَذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي نَزْوِلِهِمَا: «أَنَّ غُلَامًا مِّنَ الْيَهُودِ كَانَ يَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّ يَزَلْ بِهِ الْيَهُودُ حَتَّى أَخَذَ مُشَاطَةً رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعِدَّةَ أَسْنَانٍ مِّنْ مُشْطِهِ، فَأَعْطَاهَا الْيَهُودَ فَسَحَرُوهُ فِيهَا. وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى ذَلِكَ لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ الْيَهُودِيُّ. ثُمَّ دَسَّهَا فِي بَنَرٍ لِّبْنِي زُرَيْقٍ، يُقَالُ لَهَا: بَنَرُ ذِرْوَانَ. وَيُقَالُ: ذِي أُرْوَانَ، فَمَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَانْتَشَرَ شَعْرُ رَأْسِهِ، وَكَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي التِّسَاءَ وَمَا يَأْتِيهِنَّ، وَجُعِلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ ()، وَمَا يَفْعَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ نَائِمٌ أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَقَعَدَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: طُبُّ. قَالَ: وَمَا طُبُّ؟ قَالَ: سُحِرَ. قَالَ: وَمَنْ سَحَرَهُ؟ () قَالَ: لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمَ. قَالَ: وَبِمَ طَبُّهُ؟ قَالَ: بِمُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ. قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ فِي

١ - قال العيني في عمدة القاري : " وبعض المبتدعة أنكروا هذا الحديث وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها لأن كل ما أدى إلى ذلك فهو باطل وتجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع ورد عليهم ذلك بقيام الدليل على صدقه فيما بلغه من الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر كالأفراض .

٢ - لم يكن السحر فيما يتعلق بأمور التبليغ عن الله تعالى وإنما في أموره الخاصة . فالنبي صلى الله عليه وسلم معصوم في التبليغ وليس معصوما من الأبداء.

كما ان وقوع السحر عليه صلى الله عليه وسلم يؤكد بشريته، وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، مما يقطع الطريق على من قد يغلو فيه أو يرفعه فوق مقام البشرية .

جَفَّ طَلْعَةٌ تَحْتَ رَاغُوفَةٍ فِي بئرِ ذِرْوَانَ -والجُفِّ: قِشْرُ الطَّلَعِ. والراغُوفَةُ: صَخْرَةٌ تُتْرَكُ فِي أَسْفَلِ البئرِ إِذَا خَفِرَتْ. فَإِذَا أَرَادُوا تَنْقِيَةَ البئرِ جَلَسَ الْمُتَّقِي عَلَيْهَا- ()، فَاثْنَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَنِي بِدَائِي، ثُمَّ بَعَثَ عَلَيَّ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، فَنَزَحُوا مَاءَ تِلْكَ البئرِ، ثُمَّ رَفَعُوا الصَّخْرَةَ، وَأَخْرَجُوا الْجَفَّ، وَإِذَا فِيهِ مُشَاطَةٌ رَأْسِهِ، وَأَسْنَانُ مُشْطِهِ، وَإِذَا وَتَرٌ مَعْقُودٌ فِيهِ إِحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً [مَعْرُوزَةٌ بِالْإِبْرَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُعَوَّذَتَيْنِ، فَجَعَلَ كُلَّمَا قَرَأَ آيَةً انْخَلَّتْ عُقْدَةٌ] . وَوَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَفَّةً حِينَ انْخَلَّتِ الْعُقْدَةُ الْآخِرَةُ، وَجَعَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ، وَاللَّهُ يَشْفِيكَ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَأْخُذُ الْحَبِيثَ فَنَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ: " أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا." »

قوله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾

- { قل } دليل انها قران خلافا لما نقل عن ابن مسعود لانها لو كان المقصود منها ما يقصد بباقي السور لحذف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة وهو يعلم الناس. ()

- وهذا الكلمات اجابتها مرجوة لانها الكلمات التي عينها الله جلا وعلا لنبيه للاستعاذة من اصناف الشرور الواردة فيها اذ ليس فيها ارشاد لأحكام وانما ارشاد للدعاء واستشعار المعاني التي فيها.

فالأذكار سبب من أسباب الوقاية وسبب في تخفيف الضرر ولكن النفع والضرر بيد الله تعالى كحال الدواء قد ينفع بإذن الله وقد لا ينفع . كما ان الدعاء سبب في جلب الخير لكن قد يجاب وقد لا يجاب لمانع او لحكمة يريد بها الله تعالى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها). فالحديث يدل على أن الدعاء لا يضيع أبداً، حتى لو لم يتحقق بعينه في الدنيا. قال تعالى {بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} [الانعام ٤١] أي فيجيب دعاءكم ويزيل عنكم ذلك البلاء إن شاء بحكمته وإرادته وان شاء غير ذلك امضى قدره الذي يريد.

١ - فالسحرة يبالغون في إخفاء السحر حتى لا يعثر عليها احد.

٢ - سورة الكافرون والإخلاص والمعوذتين تسمى القلائل فاما {قل} في سورة الكافرون والإخلاص فهي للتبليغ واما في المعوذتين فهي للامتثال. فقول ابي رضي الله عنه انها لو كانت تعويذة لقال {اعوذ برب الفلق} مثل سائر التعويذات فلما التزم بإضافة {قل} دل على انها قرآن.

♦ قال الطاهر بن عاشور: "الأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ لأنها التي عينها الله للنبي ﷺ لينعوذ بها فإجاباتها مرجوة، إذ ليس هذا القول مشتتملاً على شيء يكلف به أو يعمل حتى يكون المراد: قل لهم كذا كما في قوله: ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص: ١]، وإنما هو إنشاء معنى في النفس تدل عليه هذه الأقوال الخاصة".
—ومعنى اعوذ النجى واعتصم واحتمي بالله (انظر اللسان).

قال الطاهر بن عاشور: "والعوذ: اللجأ إلى شيء يقي من يلجأ إليه ما يخافه، يقال: عاذ بفلان، وعاذ بحصن، ويقال: استعاذ، إذا سأل غيره أن يعيده قال تعالى: ﴿فاستعذ بالله إنه سميعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وعاذ من كذا، إذا صار إلى ما يعيده منه. قال تعالى: ﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ [النحل: ٩٨]."
والاستعاذة ثلاثة أقسام:

الأول: استعاذة مشروعة وتكون بالله أو بما جاءت به الشريعة:

كالاستعاذة بوجه الله أو بكلماته وبرضاه ونحو ذلك. قال الله تعالى مخبراً عن امرأة عمران: ﴿وَإِنِّي سَمِئْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، فكان الجزاء: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٦ - ٣٧].

وروى البخاري برقم ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مسه إيَّاه، إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]. ()

١ - قال ابن تيمية في الفتاوى: "وأما قوله: { وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا } فَإِنَّ الْمُسْتَعَاذَ مِنْهُ نَوْعَانِ : فَنَوْعٌ مَوْجُودٌ يُسْتَعَاذُ مِنْ ضَرَرِهِ الَّذِي لَمْ يُوْجَدْ بَعْدُ وَنَوْعٌ مَقْهُودٌ يُسْتَعَاذُ مِنْ وُجُودِهِ ؛ فَإِنَّ نَفْسَ وَجُودِهِ ضَرَرٌ مِثَالُ الْأَوَّلِ : " أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " وَمِثْلُ الثَّانِي : { رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ } { وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ } و { اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَصِلَّ أَوْ أَضِلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أَزَلَّ } . وَأَمَّا قَوْلُهُ : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } { مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } { وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ } { وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } { وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } فَيَشْتَرِكُ فِيهِ النَّوْعَانِ فَإِنَّهُ يُسْتَعَاذُ مِنَ الشَّرِّ الْمَوْجُودِ أَنْ لَا يُضَرَّ وَيُسْتَعَاذُ مِنَ الشَّرِّ الصَّارِ الْمَقْهُودِ أَنْ لَا يُوْجَدْ فَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ : { وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا } يَحْتَمِلُ الْقِسْمَيْنِ : يَحْتَمِلُ نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ مِنْهَا شَرٌّ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يُصِيبَنَا شَرُّهَا وَهَذَا أَشْبَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقوله: " وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا " السَّيِّئَاتُ هِيَ عُقُوبَاتُ الْأَعْمَالِ كَقَوْلِهِ : { سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا } فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ يُرَادُ بِهَا النِّعَمُ وَالتَّقَمُّ كَثِيرًا كَمَا يُرَادُ بِهَا الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي وَإِنْ حُمِلَتْ عَلَى السَّيِّئَاتِ الَّتِي هِيَ الْمَعَاصِي فَيَكُونُ قَدْ اسْتَعَاذَ أَنْ يَعْمَلَ السَّيِّئَاتِ أَوْ أَنْ تَضُرَّهُ وَعَلَى الْأَوَّلِ وَهُوَ أَشْبَهُ فَقَدْ اسْتَعَاذَ مِنْ عُقُوبَةِ أَعْمَالِهِ أَنْ تُصِيبَهُ وَهَذَا أَشْبَهُ . "

الثاني: استعاذة جائزة وتكون بالمخلوق فيما يقدر عليه:

وهذا القسم الراجح فيه من قولي أهل العلم: جوازه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (من وجد ملجأً أو معاذًا، فليعذ به)؛ رواه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم أن امرأة من بني مخزوم سرقت، فأُتي بها النبي صلى الله عليه وسلم، فعادت بأم سلمة رضي الله عنها.

الثالث: استعاذة ممنوعة وتكون بالأموال والجن والعاجزين ونحوهم:

وهذا شرك وكفر؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]؛ قال

الإمام القرطبي في «تفسيره» (١٩/١٠): ولا خفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله، كفر وشرك؛ اهـ.

وقال ابن القيم في اسرار الصلاة (و لما علم الله سبحانه و تعالى حسد العدو للعبد ، و تفرغه له ، و علم عجز العبد عنه ، أمره بأن يستعين به سبحانه ، و يلتجئ إليه في صرفه عنه ، فيكتفي بالاستعاذة من مؤونة محاربته ومقاومته ، وكأنه قيل له : لا طاقة لك بهذا العدو ، فاستعذ بي أعينك منه ، واستجر بي أجيرك منه ، و أكفيكه و أمنعك منه .

وقال لي شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه و نور ضريحه يومًا : إذا هاش عليك كلب الغنم فلا تشتغل بمحاربته ، ومدافعته ، وعليك بالراعي فاستغث به فهو يصرف عنك الكلب ، ويكفيكه).

(والله رب الفلق ورب الناس الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به ولا يستعاذ بأحد من خلقه، وقد قال الله في كتابه عمن

استعاذ بخلقه استعاذته زادته رهقًا) قال ابن كثير في تفسيره (٤٢٩ ٤): خوفًا وإرهابًا وذعرًا، وقال آخرون: الرهق وهو

الاثم، وقال مجاهد: زاد الكفار طغيانًا) (انظر فتاوى شيخ الإسلام - التفسير ٤٨٨/٥)

وقال الألوسي: " فَتَعْلِيْقُ الْعِيَادِ بِاسْمِ الرَّبِّ الْمُضَافِ إِلَى الْفَلَقِ الْمُتَّبِعِ عَنِ النَّوْرِ عَقِيبِ الظُّلْمَةِ وَالسَّعَةِ بَعْدَ الضَّيْقِ، وَالْفَتْحُ بَعْدَ الرَّتْقِ عِدَّةٌ كَرِيمَةٌ بِإِعَادَةِ الْعَائِدِ مِمَّا يَعُوذُ مِنْهُ وَإِنْجَائِهِ مِنْهُ وَتَقْوِيَّةٌ لِرَجَائِهِ بِتَذْكِيرِ بَعْضِ نَظَائِرِهِ وَمَزِيدُ تَرْغِيبٍ لَهُ فِي الْجَلْدِ وَالْإِعْتِنَاءِ بِقَرْعِ بَابِ الْإِلْتِجَاءِ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقِيلَ: إِنَّ فِي تَخْصِيصِ «الْفَلَقِ» بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أُمُودٌ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَالْدُّورُ كَالْقُبُورِ وَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَالخَارِجُونَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ صَبَاحًا مِنْهُمْ مَنْ يَذْهَبُ لِنَضْرَةٍ وَسُرُورٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مِنْ مُطَالَبَةٍ دُيُونٍ فِي غُمُومٍ وَسُرُورٍ إِلَى أَحْوَالٍ أُخَرَ تَكُونُ لِلْعِبَادِ هِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِمَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْمَعَادِ، وَفِي تَفْسِيرِ الْقَاضِي: إِنَّ لَفْظَ الرَّبِّ هَاهُنَا أَوْقَعَ مِنْ سَائِرِ الْأَسْمَاءِ أَيْ الَّتِي يَجُوزُ إِضَافَتُهَا إِلَى الْفَلَقِ عَلَى مَا قِيلَ لِأَنَّ الْإِعَادَةَ مِنَ الْمَضَارِّ تَرْبِيَّةٌ وَهِيَ عَلَى

تَعْمِيمِ الْفَلَقِ ظَاهِرٌ لِشُؤْلِهِ لِلْمُسْتَعِيزِ وَالْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ، وَعَلَى تَخْصِيصِهِ بِالصُّبْحِ قِيلَ: لِأَنَّهُ مُشْعَرٌ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ مُغَيِّرٌ
لِلْأَحْوَالِ مُقْلِقٌ لِلْأَطْوَارِ فَيُزِيلُ الْهُمُومَ وَالْأَكْدَارَ."

قال ابن القيم في بدائع الفوائد: "قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول. وهي أصول الاستعاذة.
أحدها: نفس الاستعاذة.

والثانية: المستعاذ به.

والثالثة: المستعاذ منه.

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين.

فنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل الأول: في الاستعاذة. والثاني: في المستعاذ به. والثالث في المستعاذ منه.

(الفصل الأول)

اعلم أن لفظة «عاذ» وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة. وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى
من يعصمك منه.

ولهذا يسمى المستعاذ به: معاذاً، كما يسمى: ملجأً ووزراً.

وفي الحديث «أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها، قالت: أعوذ بالله منك. فقال لها. لقد عذت
بمعاذ، الحقي بأهلك».

فمعنى «أعوذ» ألتجئ وأعتصم، وأتحرز.

وفي أصله قولان. أحدها: أنه مأخوذ من الستر.

والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة.

فأما من قال: إنه من الستر فقال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها «عُوذ» بضم العين
وتشديد الواو وفتحها، فكانه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها: سموه عُوذاً. فكَذلك العائد قد استتر من عدوه بمن
استعاذ به منه واستجنّ به منه.

ومن قال: هو لزوم المجاورة قال: العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه «عُوذ» لأنه اعتصم به،

واستمسك به. فكَذلك العائد قد استمسك بالمستعاذ به، واعتصم به، ولزمه.

والقولان حق. والاستعاذة تنتظمهما معاً. فإن المستعيز مستتر بمعاذه، مستمسك به، معتصم به. قد استمسك قلبه به

ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً وقصده به، فهرب منه. فعرض له أبوه في طريق هربه. فإنه يلقي

نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك. فكَذلك العائد قد هرب من عدوه الذي يبغى هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر

إليه، وألقى نفسه بين يديه، واعتصم به، والتجأ إليه.

وبعد، فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات.

وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام، والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه: أمر لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا: التعبير عن معنى محبته وخشيته، وإجلاله ومهابته. فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الوصف والخبر، كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعين لم تخلق له شهوة أصلاً، فمهما قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به، لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه. فإذا وصفتها لمن خلقت الشهوة فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والدوق.

..

فإن قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل، كقوله:

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ولم تدخل في الماضي والمضارع، بل الأكثر أن يقال: أعوذ بالله، وتعوذت، دون أستعيذ، واستعدت؟

قلت: السين والتاء دالة على الطلب، فقوله: أستعيذ بالله، أي أطلب العياذ به. كما إذا قلت: أستخير الله: أي أطلب خيرته، وأستغفره.

أي أطلب مغفرته. وأستقيله. أي أطلب إقائلته. فدخلت في الفعل إيذاناً بطلب هذا المعنى من المعاذ. فإذا قال المأمور: أعوذ بالله. فقد امتثل ما طلب منه. لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام. وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام، وبين طلب ذلك. فلما كان المستعيذ هارباً ملتجئاً معتصماً بالله، أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك فتأمل.

وهذا بخلاف ما إذا قيل: استغفر الله. فقال: أستغفر الله. فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله. فإذا قال: أستغفر الله، كان ممثلاً. لأن المعنى: أطلب من الله أن يغفر لي.

وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين والتاء، فيقول: أستعيذ بالله. أي أطلب منه أن يعيذني. ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه.

فالأول: مخبر عن حاله وعايذه بربه. وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه.

والثاني: طالب سائل من ربه أن يعيذه. كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني.

فحال الأول أكمل. ولهذا

جاء عن النبي ﷺ في امتثال هذا الأمر «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». و «أعوذ بكلمات الله التامات». و «أعوذ بعزة الله وقدرته»

دون: أستعيز، بل الذي علمه الله إياه أن يقول: أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ دون أستعيز. فتأمل هذه الحكمة البديعة.

فإن قلت: فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به، فقال:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ومعلوم أنه إذا قيل:

قل الحمد لله، وقل: سبحان الله فإن امتثاله أن يقول: الحمد لله، وسبحان الله، ولا يقول: قل سبحان الله.

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب على النبي ﷺ بعينه، وأجابه عنه رسول الله ﷺ.

فقد قال البخاري في صحيحه. حدثنا قتيبة حدثنا سفيان عن عاصم وعبدية عن زر بن حبیش قال: «سألت أبي بن كعب عن المعوذتين؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ؟ فقال: قيل لي، فقلت. فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ» ثم قال: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا عبد بن أبي لبابة عن زر بن حبیش. وحدثنا عاصم عن زر قال «سألت أبي بن كعب. قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا. فقال: إني سألت رسول الله ﷺ؟ فقال: قيل لي، فقلت: قل.

فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ».

قلت: مفعول القول محذوف، وتقديره: قيل لي قل، أو قيل لي هذا اللفظ. فقلت كما قيل لي.

وتحت هذا من السر: أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا إبلاغه، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله. وقد قال الله له: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي

أشار النبي ﷺ إليه بقوله «قيل لي، فقلت»

أي إني لست مبتدئاً، بل أنا مبلغ، أقول كما يقال لي، وأبلغ كلام ربي كما أنزله إلي.

* فصلوات الله وسلامه عليه، لقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقال كما قيل له. فكفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول: هذا القرآن العربي وهذا النظم كلامه ابتداء هو به. ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه ﷺ بلغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه، حتى إنه لما قيل له «قل» قال هو «قل» لأنه مبلغ محض. وما على الرسول إلا البلاغ.

(الفصل الثاني)

في المستعاذ. وهو الله وحده، رب الفلق. ورب الناس، ملك الناس، إله الناس. الذي لا ينبغي الاستعانة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيد المستعيزين، ويعصمهم. ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شربه. وقد أخبر تعالى

في كتابه عمن استعاذ بخلقهم: أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا. فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾

جاء في التفسير: أنه «كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه. فبييت في أمن وجوار منهم، حتى يصبح» أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا أي طغيانا وإثما وشرا. يقولون: سدنا الانس والجن. و «الرهق» في كلام العرب: الإثم وغشيان الحارم. فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعظيم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن. واحتج أهل السنة على المعتزلة، في أن كلمات الله غير مخلوقة: بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات» وهو ﷺ لا يستعيز بمخلوق أبدا. ونظير ذلك:

قوله: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك»

فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق. وكذلك

قوله: «أعوذ بعزة الله وقدرته»

وقوله: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»

وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيز إلا بالله، أو بصفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب، والملك، والإله.

وجاءت الربوبية فيهما مضافة إلى الفلق، وإلى الناس. ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة.

ويقتضى دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد قررنا في مواضع متعددة: أن الله سبحانه يدعى بأسمائه الحسنى.

فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه.

وقد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين «أنه ما تعوذ المتعوذون بمثلهما»

فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيا للمطلوب. وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه.

وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث. وهو الشيء المستعاذ منه.

قال ابن كثير: " عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَلْفَلَقُ: الصُّبْحُ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَلْفَلَقُ﴾ الصُّبْحُ. وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَقِيلٍ،

وَالْحُسَيْنِ، وَقَتَادَةَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، وَابْنِ زَيْدٍ، وَمَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، مِثْلَ هَذَا.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ: وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦] (وهذا قول الجمهور).
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿الْفَلَقُ﴾ الْخَلْقُ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ: أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ مِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِ.
وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: ﴿الْفَلَقُ﴾ بَيَّتْ فِي جَهَنَّمَ (ولا دليل عليه)... قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، أَنَّهُ فَلَقُ الصُّبْحِ. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الْبُخَارِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي صَحِيحِهِ". (ابن جرير ذكر القول لكنه اختار المعنى الاعم)

وقد قال كثير من المفسرين : الْفَلَقُ : الصبح ، لانه يشق ظلمة الليل فإنه يقال : هذا أبيض من فلق الصبح، و فرق الصبح . وفي الحديث أنه كان يرى الرؤيا فتأتي مثل فَلَقِ الصبح هو بالتحريك ضوءه وإنارته) (انظر لسان العرب) . قال تعالى : { فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا } [الأنعام : ٩٦]

وربُّ الفلق : هو الله سبحانه وتعالى وقال الحسن : الْفَلَقُ : كل ما انفلق عن شيء، كالصبح، والحب، والنوى . قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق، بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر (قال تعالى : { فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى } [الأنعام : ٩٥]) لان الفلق بداية الخلق (كانتا رتقا ففتقناهما) والولادة فلق فادا كان الله يملك كل الخلق ولا يؤده حفظها فلا يعجز عن حفظك.

قال القرطبي بعد ذكره الاقوال في معنى الفلق : " وَقِيلَ: إِنَّهُ كُلُّ مَا انْفَلَقَ عَنْ جَمِيعِ مَا خُلِقَ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالصُّبْحِ وَالْحَبِّ وَالنَّوَى، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ نَبَاتٍ وَغَيْرِهِ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ. قَالَ الضَّحَّاكُ: الْفَلَقُ الْخَلْقُ كُلُّهُ، .. قُلْتُ: هَذَا الْقَوْلُ يَشْهَدُ لَهُ الْإِشْتِقَاقُ، فَإِنَّ الْفَلَقَ الشَّقُّ. فَلَقْتُ الشَّيْءَ فَلَقًا أَيْ شَقَقْتُهُ. وَالتَّفْلِيقُ مِثْلُهُ. يُقَالُ: فَلَقْتُهُ فَانْفَلَقَ وَتَفَلَّقَ. فكل ما انفلق عن شيء مِنْ حَيَوَانٍ وَصُبْحٍ وَحَبٍّ وَنَوَى وَمَاءٍ فَهُوَ فَلَقٌ، قال الله تعالى: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ [الأنعام: ٩٦] قال: فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ". (وهذا القول اعم والصبح اشهر في الاستعمال).

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد : " واعلم أن الخلق كله فلق وذلك أن فلقا فعل بمعنى مفعول كقبض وسلب وقصص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص والله عز وجل فالق الإصباح وفالق الحب والنوى وفالق الأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأجنة والظلام عن الإصباح ويسمى الصبح المنتصدع عن الظلمة فلقا وفرقا يقال هو أبيض من فرق الصبح وفلقه

١ - قال ابن جرير : " والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ والفلق في كلام العرب: فلق الصبح، تقول العرب: هو أبيض من فَلَقِ الصُّبْحِ، ومن فرق الصبح. وجائز أن يكون في جهنم سجن اسمه فَلَقٌ. وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن جل ثناؤه وضع دلالة على أنه عُمِي بقوله: ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ بعض ما يُدْعَى الفلق دون بعض، وكان الله تعالى ذكره رب كل ما خلق من شيء، وجب أن يكون معنيا به كل ما اسمه الْفَلَقُ، إذ كان رب جميع ذلك.".

وكما أن في خلقه فلقا وفرقا فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل فيفرق ظلام الباطل بالحق كما يفرق ظلام الليل بالإصباح ولهذا سمي كتابه الفرقان ونصره فرقانا لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه ومنه فلقة البحر لموسى وسماه فلقا

فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرُونَ قدره وإنه تنزيل من حكيم حميد فصلت ٤٢ .

وقال ابن تيمية : " في (الفَلَقِ) أَقْوَالٌ تَرْجِعُ إِلَى تَعْمِيمٍ وَتَخْصِصٍ فَإِنَّهُ فُسِّرَ بِالْحَلْقِ عُمُومًا وَفُسِّرَ بِكُلِّ مَا يُفْلَقُ مِنْهُ كَالْفَجْرِ وَالْحَبِّ وَالنَّوَى وَهُوَ غَالِبُ الْحَلْقِ وَفُسِّرَ بِالْفَجْرِ . وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِالنَّارِ أَوْ بِجَبِّ أَوْ شَجَرَةٍ فِيهَا فَهَذَا مَرْجِعُهُ إِلَى التَّوْقِيفِ . " (فتكون الالف واللام للجنس وليست للعهد فتعم).

واما على قول من اختار انه الصبح ففي تفسير النيسابوري ((وفيه إشارة إلى أن القادر على إزالة الظلمة عن وجه الأرض قادر على دفع ظلمة الشرور والآفات عن العبد).

وقال الشوكاني : " وَقَدْ قِيلَ فِي وَجْهِ تَخْصِصِ الْفَلَقِ الْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِزَالَةِ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ الشَّدِيدَةِ عَنْ كُلِّ هَذَا الْعَالَمِ يَقْدِرُ أَيْضًا أَنْ يَدْفَعَ عَنِ الْعَائِدِ كُلِّ مَا يَخَافُهُ وَيَخْشَاهُ، وَقِيلَ طُلُوعُ الصُّبْحِ كَالْمِثَالِ لِمَجِيءِ الْفَرَجِ، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي اللَّيْلِ يَكُونُ مُنْتَظِرًا لَطُلُوعِ الصَّبَاحِ، كَذَلِكَ الْخَائِفُ يَكُونُ مُتَرَقِّبًا لَطُلُوعِ صَبَاحِ النَّجَاحِ، وَقِيلَ غَيْرُ هَذَا مِمَّا هُوَ مُجَرَّدُ بَيَانٍ مُنَاسِبَةٍ لَيْسَ فِيهَا كَثِيرٌ فَائِدَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالتَّفْسِيرِ . "

وتخصيص هذا الوصف لان الليل محل ظهور كثير من الشرور كظهور ذوات السموم من الدواب والسباع العادية وظهور اللصوص والحيانات والفواحش وعسر النجدة وتعطل السير فبسبب ظلمة تنتشر فيه شياطين الانس والجن وتتوصل الى ما لم تكن تتوصل اليه في النهار .

وقال الطاهر بن عاشور : " والفَلَقُ: الصُّبْحُ، وهو فَعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ مِثْلُ الصَّمَدِ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ شُبَّهَ بِشَيْءٍ مُغْلَقٍ يَنْفَلِقُ عَنِ الصُّبْحِ، وَحَقِيقَةُ الْفَلَقِ: الْإِنْشِقَاقُ عَنِ بَاطِنِ شَيْءٍ، وَاسْتَعْبِرَ لظُهُورِ الصُّبْحِ بَعْدَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَهَذَا مِثْلُ اسْتِعَارَةِ الْإِخْرَاجِ لظُهُورِ النُّورِ بَعْدَ الظَّلامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْطَشَ لِبْنَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٩]، وَاسْتِعَارَةِ السَّلْخِ لَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧] .

وَرُبُّ الْفَلَقِ: هُوَ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ أَسْبَابَ ظُهُورِ الصُّبْحِ، وَتَخْصِصُ وَصْفِ اللَّهِ بِأَنَّهُ رَبُّ الْفَلَقِ دُونَ وَصْفِ آخَرَ؛ لِأَنَّ شَرًّا كَثِيرًا يَحْدُثُ فِي اللَّيْلِ مِنْ لُصُوصٍ، وَسِبَاعٍ، وَذَوَاتِ سُومٍ، وَتَعَدُّرِ السَّيْرِ، وَعُسْرِ النَّجْدَةِ، وَبُعْدِ الاسْتِعَاثَةِ وَاشْتِدَادِ آلامِ الْمَرْضَى، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُ أَهْلِ الضَّلَالَةِ اللَّيْلَ إِلَهَ الشَّرِّ.

وَالْمَعْنَى: أَعُوذُ بِفَلَقِ الصُّبْحِ مَنَاجَاةً مِنْ شُرُورِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَجِّبَنِي فِي اللَّيْلِ مِنَ الشَّرِّ كَمَا أُنَجِّي أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ بِأَنْ خَلَقَ لَهُمُ الصُّبْحَ، فَوُصِفَ اللَّهُ بِالصِّفَةِ الَّتِي فِيهَا تَهْيِئَةٌ لِلْإِجَابَةِ . "

وقال السعدي : " أي: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح. "

قوله تعالى : ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

قال ابن الجوزي : " قوله تعالى : ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وقرأ ابن السَّمِيعِ، وابنُ يَعْمَرَ : " خُلِقَ " بِضَمِّ الخاءِ، وكسْرِ اللامِ. وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أَنَّهُ عامٌّ، وهو الأظهر.

والثاني: أَنَّ شَرَّ مَا خُلِقَ: إبليس وذُرِّيَّتُهُ، قاله الحسن.

والثالث: جَهَنَّمُ، حكاه الماورديُّ. "

وقال ابن جرير : " أمر نبيه أن يستعيذ ﴿مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، إذ كان كلَّ ما سواه، فهو ما خَلَقَ. "

وقال ابن كثير : " وَقَوْلُهُ : ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أَي: مِنْ شَرِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَقَالَ ثَابِتُ الْبُنَائِي، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: جَهَنَّمُ وَإِبْلِسُ وَذُرِّيَّتُهُ مِمَّا خَلَقَ. "

وقال السعدي : " وهذا يشمل جميع ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات؛ فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها. "

وقال ابن عثيمين : " ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق ٢] أي: من شرِّ جميع المخلوقات، حتى من شرِّ نفسك؛ لأن النفس أمارة بالسوء، فإذا قلت: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فأول ما يدخل فيه نفسك؛ كما جاء في خطبة الحاجة: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا» (أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.)، وقوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يشمل شياطين الإنس والجن والهوام وغير ذلك، ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾. "

وقال عطية محمد سالم : " قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ . وهذا عامٌ وهو على غُموه، حتى قال الحسن: إِنَّ إبليسَ وجَهَنَّمَ مِمَّا خَلَقَ.

وَلِلْمُعْتَرِلةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَلَامٌ حَوْلَ خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُقُ الشَّرَّ، وَقَالُوا: كَيْفَ يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِالْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ سُبْحَانَهُ مِمَّا خَلَقَهُ وَقَدَّرَهُ؟

وَأَجِيبَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ: بِأَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: " «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ» .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] . "

وقال ابن عطية : " وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يَعُمُّ كُلَّ مَوْجُودٍ لَهُ شَرٌّ. وَقَرَأَ عَمْرُو بْنُ عَبِيدٍ وَبَعْضُ الْمُعْتَرِلةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ الشَّرَّ: "مِنْ شَرِّ" بِالتَّنْوِينِ "مَا خَلَقَ" عَلَى النِّفْيِ، وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ مَرْدُودَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى مَذْهَبٍ بَاطِلٍ، فَاللَّهُ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ. "

وقال العدوي: " { مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } [الفلق: ٢] يا رب! لذت بك، واعتصمت بك، واستجرت بك، ومن شر كل خلق، من شر عموم الخلق، فدخل فيه شر الإنس، ودخل فيه شر الجن والشياطين، ودخل فيه شر السباع والبهائم، والحيات والعقارب، ودخل فيه شر الرياح، ودخل فيه شر الظلام، وشر كل شيء يخشى منه، فهي -إذا- آية في غاية البلاغة، تشمل شر كل الخلق، شر رجل ظالم، أو مؤذٍ، ومن شر حية، ومن شر أي شيء، ونحوه حديث رسول الله: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)).".

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قال ابن جرير: "وقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يقول: ومن شرّ مظلم إذا دخل، وهجم علينا بظلامه. ثم اختلف أهل التأويل في المظلم الذي غني في هذه الآية، وأمر رسول الله ﷺ بالاستعاذة منه، فقال بعضهم: هو الليل إذا أظلم.

وقال بعضهم: هو النهار إذا دخل في الليل. وقال آخرون: هو كوكب. وكان بعضهم يقول: ذلك الكوكب هو الثريا. وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، أن يقال: إن الله أمر نبيه ﷺ أن يستعيذ ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾ وهو الذي يُظلم، يقال: قد غسق الليل يغسق غسوقاً: إذا أظلم ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: إذا دخل في ظلامه؛ والليل إذا دخل في ظلامه غاسق، والنجم إذا أفل غاسق، والقمر غاسق إذا وقب، ولم يخص بعض ذلك بل عم الأمر بذلك، فكل غاسق، فإنه ﷺ كان يؤمر بالاستعاذة من شره إذا وقب. وكان يقول في معنى وقب: ذهب.

* حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قال: إذا ذهب، ولست أعرف ما قال قتادة في ذلك في كلام العرب، بل المعروف من كلامها من معنى وقب: دخل. "

وقال القرطبي: "قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ اختلف فيه، فقيل: هو الليل. والغسق: أول ظلمة الليل، يقال منه: غسقا الليل يغسق أي أظلم. قال [ابن] قيس الرقيبات: إِنَّ هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا ... وَاشْتَكَيْتُ أَلْهَمَ وَالْأَرْقَا وَقَالَ آخَرُ:

يَا طَيْفَ هِنْدٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي أَرْقَا ... إِذْ جِئْتَنَا طَارِقًا وَاللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا
هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَالسَّيِّدِيِّ وَغَيْرِهِمْ. وَوَقَبَ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ: أَظْلَمَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالضَّحَّاكُ: دَخَلَ.

فَتَادَهُ: ذَهَبَ.

يَمَانُ بْنُ رِثَابٍ: سَكَنَ.

وَقِيلَ: نَزَلَ، يُقَالُ: وَقَبَ الْعَذَابُ عَلَى الْكَافِرِينَ، نَزَلَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

وَقَبَ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ فَكَأَنَّهُمْ ... لَحِقَتْهُمْ نَارُ السَّمُومِ فَأُخْصِدُوا

وَقَالَ الرَّجَّاجُ: قِيلَ اللَّيْلُ غَاسِقٌ لِأَنَّهُ أَبْرَدُ مِنَ النَّهَارِ. وَالْغَاسِقُ: الْبَارِدُ. وَالْعَسَقُ: الْبَرْدُ، وَلِأَنَّ فِي اللَّيْلِ تَخْرُجُ السِّبَاعُ مِنْ أَجَامِهَا، وَالْهُوَامُ مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَيَنْبَعثُ أَهْلُ الشَّرِّ عَلَى الْعَيْثِ وَالْفَسَادِ.

وَقِيلَ: الْغَاسِقُ: الثَّرِيَّا، وَذَلِكَ أَنَّهَا إِذَا سَقَطَتْ كَثُرَتْ الْأَسْقَامُ وَالطَّوَاعِينُ، وَإِذَا طَلَعَتْ ارْتَفَعَ ذَلِكَ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ.

وَقِيلَ: هُوَ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ، قَالَهُ ابْنُ شِهَابٍ.

وَقِيلَ: هُوَ الْقَمَرُ. قَالَ الْفَتَيُّ: إِذَا وَقَبَ الْقَمَرُ: إِذَا دَخَلَ فِي سَاهُورِهِ، وَهُوَ كَالْغِلَافِ لَهُ، وَذَلِكَ إِذَا خَسَفَ بِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ أَسْوَدَ فَهُوَ غَسَقٌ.

وَقَالَ فَتَادَةُ: إِذَا وَقَبَ إِذَا غَابَ. وَهُوَ أَصَحُّ، لِأَنَّ فِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: [يَا

عَائِشَةُ، اسْتَعِيزِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ]. قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٌ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْحَدِيثِ: وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الرَّيْبِ يَتَحَيَّنُونَ وَجِبَةَ الْقَمَرِ. وَأَنْشَدَ:

أَرَاخِي اللَّهَ مِنْ أَشْيَاءِ أَكْرَهُهَا ... مِنْهَا الْعُجُوزُ وَمِنْهَا الْكَلْبُ وَالْقَمَرُ

هَذَا يَبُوحُ وَهَذَا يُسْتَضَاءُ بِهِ ... وَهَذِهِ ضِمْرُ قَوَامَةِ السَّحَرِ

وَقِيلَ: الْغَاسِقُ: الْحَيَّةُ إِذَا لَدَعَتْ. وَكَأَنَّ الْغَاسِقَ نَابِهَا، لِأَنَّ السُّمَّ يَغْسِقُ مِنْهُ، أَيْ يَسِيلُ. وَوَقَبَ نَابُهَا: إِذَا دَخَلَ فِي اللَّدِيعِ.

وَقِيلَ: الْغَاسِقُ: كُلُّ هَاجِمٍ يَضُرُّ، كَانَتْ مَا كَانَ، مِنْ قَوْلِهِمْ: غَسَقَتِ الْقَرْحَةُ: إِذَا جَرَى صَدِيدُهَا. "

وقال ابن تيمية في الفتاوى: (وَالْغَاسِقُ) قَدْ رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنْ عَائِشَةَ فِي التِّرْمِذِيِّ وَالتَّسَائِي { أَنَّ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ وَقَالَ لَهَا : يَا عَائِشَةُ تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ هَذَا فَهَذَا الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ { قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ

(الْغَاسِقُ) : الْقَمَرُ إِذَا كَسَفَتْ فَاسْوَدَّ وَمَعْنَى وَقَبَ دَخَلَ فِي الْكُسُوفِ . وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَاللُّغَةِ أَنَّ (الْغَاسِقَ)

اللَّيْلُ ، (وَقَبَ) : دَخَلَ

فِي كُلِّ شَيْءٍ فَأُظْلِمَ وَ " الْغَسَقُ " الظُّلْمَةُ وَقَالَ الرَّجَّاجُ . (الْغَاسِقُ الْبَارِدُ فَقِيلَ لِلَّيْلِ غَاسِقٌ ؛ لِأَنَّهُ أَبْرَدُ مِنَ النَّهَارِ) وَهَذَا

الْمَعْنَى بَعِيدٌ إِنْ يَكُونُ هُوَ الْمُرَادُ هُنَا) أَوْ يُقَالُ الْغَسَقُ السَّيْلَانُ وَالْإِحَاطَةُ وَغَسَقُ اللَّيْلِ سَيْلَانُهُ وَإِحَاطَتُهُ بِالْأَرْضِ وَإِذَا فُسِّرَ

بِالْقَمَرِ فَقَدْ يُقَالُ وَقُوبُهُ أَيْ دُخُولُهُ وَهُوَ دُخُولُهُ فِي الْكُسُوفِ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ تَفْسِيرِهِ بِاللَّيْلِ وَبِالْقَمَرِ فَإِنَّ الْقَمَرَ آيَةُ اللَّيْلِ

فَهُنَا ثَلَاثُ مَرَاتِبَ : اللَّيْلُ مُطْلَقًا ثُمَّ الْقَمَرُ مُطْلَقًا ثُمَّ الْقَمَرُ حَالِ كُسُوفِهِ . وَهَذَا مُنَاسِبٌ لِمَا ذُكِرَ فِي الْمُسْتَعَاذِ بِهِ فَإِنَّ

عُمُومِ الْفَلَقِ لِلْخَلْقِ بِإِزَاءٍ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَخُصُوصُهُ بِالْفَجْرِ الَّذِي هُوَ ظُهُورُ النُّورِ بِإِزَاءِ الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ الَّذِي هُوَ دُخُولُ الظُّلَامِ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْغَاسِقُ : الشُّرْيَا إِذَا سَقَطَتْ وَكَانَتْ الْأَسْقَامُ وَالطَّوَاعِينُ تَكْثُرُ عِنْدَ وَقُوعِهَا وَقَدْ تَقَعَّ عِنْدَ طُلُوعِهَا وَيُشْبِهُهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ : أَنَّ النُّورَ هُوَ جِنْسُ الْخَيْرِ وَالظُّلُمَةُ جِنْسُ الشَّرِّ وَفِي اللَّيْلِ يَقَعُ مِنَ الشُّرُورِ النَّفْسَانِيَّةِ مَا لَا يَقَعُ فِي النَّهَارِ وَالْقَمَرُ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي الْأَرْضِ لَا سِيَّمَا حَالِ كُسُوفِهِ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { إِنْهُمَا آيَتَانِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ { وَالتَّخْوِيفُ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِنْعِقَادِ سَبَبِ الْخَوْفِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا عِنْدَ سَبَبِ الْعَذَابِ أَوْ مَطْلَبِهِ فَعَلِمَ أَنَّ الْكُسُوفَ مَطْلَبُ خُدُوثِ عَذَابٍ بِأَهْلِ الْأَرْضِ ؛ وَلِهَذَا شَرَعَ عِنْدَ الْكُسُوفِ الصَّلَاةَ الطَّوِيلَةَ وَالصَّدَقَةَ وَالْعَتَاقَةَ وَالِدُّعَاءَ لِدَفْعِ الْعَذَابِ وَكَذَلِكَ عِنْدَ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي هِيَ إِنْشَاءُ الْعَذَابِ كَالزَّلْزَلَةِ وَظُهُورِ الْكَوَاكِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهُوَ أَقْرَبُ الْكَوَاكِبِ الَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي الْأَرْضِ بِالتَّرْطِيبِ وَالْيُبْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . " .

وقال الطاهر بن عاشور : " ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾

عطفُ أشياء خاصة هي ممَّا شَمِلَهُ عُمُومُ ﴿من شر ما خلق﴾ [الفلق: ٢] ، وهي ثلاثة أنواع من أنواع الشُّرُورِ : أحدهما : وقتٌ يغلبُ وَقُوعُ الشَّرِّ فِيهِ وهو اللَّيْلُ .

والثاني : صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ أُقِيمَتْ صِنَاعَتُهُمْ عَلَى إِرَادَةِ الشَّرِّ بِالْغَيْرِ .

والثالث : صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ ذُو خُلُقٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَبْعَثَ عَلَى الْحَقِّ الْأَذَى بِمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ .

وَأُعِيدَتْ كَلِمَةُ ﴿من شر﴾ [الفلق: ٢] بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ ، وَفِي الْجُمْلَتَيْنِ الْمُعْطُوفَتَيْنِ عَلَيْهَا مَعَ أَنْ حَرْفَ الْعَطْفِ مُغْنٍ عَنِ إِعَادَةِ الْعَامِلِ قَصْدًا لِتَأْكِيدِ الدُّعَاءِ تَعَرُّضًا لِلْإِجَابَةِ ، وَهَذَا مِنَ الْإِنْتِهَالِ فَيُنَاسِبُهُ الْإِطْنَابُ .

وَالْغَاسِقُ : وَصْفُ اللَّيْلِ إِذَا اشْتَدَّتْ ظُلُمَتُهُ ، يُقَالُ : غَسَقَ اللَّيْلُ يَغْسِقُ ، إِذَا أَظْلَمَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾

[الإسراء: ٧٨] . فَالْغَاسِقُ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ لظُهُورِهِ مِنْ مَعْنَى وَصْفِهِ مِثْلَ الْجَوَارِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ومن آياته

الجواري في البحر﴾ [الشورى: ٣٢] وَتَنْكِيرُ غَاسِقٍ لِلْجِنْسِ ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ جِنْسُ اللَّيْلِ .

وَتَنْكِيرُ (غَاسِقٍ) فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ يُرَادُ بِهِ الْعُمُومُ ؛ لِأَنَّ مَقَامَ الدُّعَاءِ يُنَاسِبُ التَّعْمِيمَ ...

وإِضَافَةُ الشَّرِّ إِلَى غَاسِقٍ مِنْ إِضَافَةِ الْإِسْمِ إِلَى زَمَانِهِ عَلَى مَعْنَى (فِي) كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣] .

وَاللَّيْلُ : تَكْثُرُ فِيهِ حَوَادِثُ السُّوءِ مِنَ اللَّصُوصِ وَالسِّبَاعِ وَالْهَوَامِّ كَمَا تَقَدَّمَ آتِفًا .

وَتَقْيِيدُ ذَلِكَ بِظَرْفِ ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أَيُّ : إِذَا اشْتَدَّتْ ظُلُمَتُهُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَقْتُ يَتَحَيَّنُهُ الشُّطَارُ وَأَصْحَابُ الدَّعَاةِ وَالْعَيْثُ ،

لِتَحَقُّقِ غَلَبَةِ الْعَقْلَةِ وَالنُّوْمِ عَلَى النَّاسِ فِيهِ ، يُقَالُ : أَغْدَرَ اللَّيْلُ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا اشْتَدَّ ظُلَامُهُ كَثُرَ الْغَدْرُ فِيهِ ، فَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ

أَغْدَرَ ، أَيُّ : صَارَ ذَا غَدْرٍ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ .

وَمَعْنَى (وَقَبَ) دَخَلَ وَتَغَلَّغَلَ فِي الشَّيْءِ ، وَمِنْهُ الْوَقْبَةُ : اسْمُ النَّفْثَةِ فِي الصَّخْرَةِ يَجْتَمِعُ فِيهَا الْمَاءُ ، وَوَقَبَتِ الشَّمْسُ غَابَتْ ،

خَصَّ بِالتَّعَوُّذِ أَشَدَّ أَوْقَاتِ اللَّيْلِ تَوَقُّعًا لِحُصُولِ الْمَكْرُوهِ . " .

وقال العدوي : " الغاسق إذا وقب مما خلقه الله، فهو من عطف الخاص على العام، وهذا الأسلوب يأتي لبيان أهمية الخاص، مثل قوله تعالى: { فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَتَخْلُ وَرَمَانٌ } [الرحمن: ٦٨] فالفاكهة عامة، والنخل والرمان خاص، فعطف العام على الخاص، وكما في قوله تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } [الأحزاب: ٧] .

{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ } [النساء: ١٦٣] .

{ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ } [الفلق: ٣] أي: الليل إذا دخل، فالغاسق هو الليل، ويشهد لذلك من التنزيل قوله تعالى: { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ } [الإسراء: ٧٨] أي: إلى ظلام الليل، { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا } [الإسراء: ٧٨] .

ورود عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح أنه خرج مع عائشة ذات ليلة، ونظر إلى القمر فقال: ((يا عائشة ! استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب))، فمن العلماء من قال: إن من متبوعات دخول الليل ظهور القمر، وإن مجيء القمر مؤذن بدخول الليل، فقوله: ((استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب))؛ لأن ظهور القمر علامة على دخول الليل، وفي الليل تنتشر الشياطين، وتنتشر السباع، وتنتشر الهوام، ويبيت فيه للمكر، ويبيت فيه بالخداع، ويخطط فيه للحروب، ويخطط فيه للاغتيالات.

فالليل فيه شر مستطير، وفيه شر كثير إلا في الثلث الأخير، فإن أهل الصلاح يقومون فيه امتثالاً لقول الله تعالى: ((هل من داع فاستجيبي له)) وإذا جاء الليل فكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا كان جنح الليل أو أمسيتم، فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله، وأوكنوا الأسقية واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً)، وفي الحديث الآخر: ((فإنه ينزل في ليلة في السنة داء لا يدع سقاء ليس عليه وكاء، ولا إناء ليس عليه غطاء، إلا نزل فيه من ذلك الداء)).

فدخول الليل يصحبه انتشار الشياطين، ويصحبه كثير من البلاء، ويصحبه مكر الأعداء، ويحصل فيه جملة أمور، ولذلك لما قال فرعون لموسى: { اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُخًى } [طه: ٥٨-٥٩]؛ لأن السحر يبطل في وقت الضحى، وصعب على الساحر أن يسحر في وقت الضحى، أما في الليل فرما تنظر ظلك فتظنه عفريتاً.

ففي الظلام يمكن التلبس والدجل على الناس، وغش الناس، ولذلك أغلب أعمال الشعوذة تحدث في الظلام، ومن المشعوذين من يدجلون في الغرفة المظلمة، تدخل الغرفة فيقول لك: هذه صورة علي بن أبي طالب يجري، وهو الذي يجري، وهذه صورة عمر، وهذا عبد الله بن سلام، وهذا كله دجل يحدث في الظلام والعياذ بالله.

فالغاسق إذا وقب، قيل: هو الليل، وقيل: هو القمر، وقيل غير ذلك، ولكن أشهر الأقوال أن الغاسق هو الليل، ومن متبوعاته القمر، ومعنى وقب: دخل وأقبل بظلامه. "

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد: " الشر الثاني: شر الغاسق إذا وقب. فهذا خاص بعد عام. وقد قال أكثر المفسرين: إنه الليل.

قال ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق، ودخل في كل شيء وأظلم والغسق: الظلمة. يقال: غسق الليل، وأغسق: إذا أظلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾

وكذلك قال الحسن ومجاهد: الغاسق إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل.

والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس.

وقال مقاتل: يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار.

وفي تسمية الليل غاسقا قول آخر: أنه من البرد، والليل أبرد من النهار، والغسق: البرد.

وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ وقوله: { لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا

قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده. كما تحرقهم النار بحرهما. وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهى برده.

ولا تنافي بين القولين. فإن الليل بارد مظلم. فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط: اقتصر على أحد وصفيه.

والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعادة. فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعادة من البرد الذي في الليل. ولهذا

استعاد برب الفلق الذي هو الصبح والنور: من شر الغاسق، الذي هو الظلمة. فناسب الوصف المستعاد به المعنى

المطلوب بالاستعادة. كما سنزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله.

فإن قيل: فما تقولون فيما

رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت: ((أخذ النبي ﷺ

بيدي، فنظر إلى القمر، فقال: يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا. فإن هذا هو الغاسق إذا وقب)) قال الترمذي: هذا

حسن صحيح. وهذا أولى من كل تفسير. فيتعين المصير إليه؟

قيل: هذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه، ويشهد لصحته. فإن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوُونا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾

فالقمر هو آية الليل، وسلطانه فيه. فهو أيضا غاسق إذا وقب، كما أن الليل غاسق إذا وقب، والنبي ﷺ أخبر عن

القمر بأنه غاسق إذا وقب. وهذا خبر صدق. وهو أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب. وتخصيص

النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره.

ونظير هذا: قوله في المسجد الذي أسس على التقوى - وقد سئل عنه -

فقال : ((هو مسجدني هذا))

ومعلوم أن هذا لا ينفي كون مسجد قباء مؤسساً على التقوى مثل ذاك.

ونظيره أيضاً:

قوله في علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين ((اللهم هؤلاء أهل بيتي))

فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخول في لفظ أهل بيته.

ونظير هذا:

قوله ((ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمررة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل

الناس شيئاً، ولا يعطن له فيتصدق عليه))

وهذا لا ينفي اسم المسكنة عن الطواف، بل ينفي اختصاص الاسم به، وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له.

ونظير هذا:

قوله : ((ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب))

فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال، ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولى.

ونظيره: الغسق، والوقوف، وأمثال ذلك.

فكذلك قوله في القمر ((هذا هو الغاسق إذا وقب))

لا ينفي أن يكون الليل غاسقاً، بل كلاهما غاسق.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: أن المراد به القمر إذا خسف واسودّ. وقوله: «وقب» أي دخل

في الخسوف، أو غاب خاسفاً؟

قيل: هذا القول ضعيف. ولا نعلم به سلفاً. والنبي ﷺ لما أشار إلى القمر،

وقال : ((هذا الغاسق إذا وقب))

لم يكن خاسفاً إذ ذاك. وإنما كان مستتيراً، ولو كان خاسفاً لذكرته عائشة. وإنما

قالت : نظر إلى القمر، وقال : ((هذا هو الغاسق))

ولو كان خاسفاً لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه. فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يطلق عليه

بدونها، لما فيه من التلبس.

وأيضاً: فإن اللغة لا تساعد على هذا. فلا نعلم أحداً قال: الغاسق: القمر في حال خسوفه.

وأيضاً: فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة: إنه الخسوف، وإنما هو الدخول، من قولهم: وقبت العين: إذا غارت،

وركية وقباء: غار ماؤها. فدخل في أعماق التراب. ومنه الوقب للثقب الذي يدخل فيه المحور. وتقول العرب وقب يقب وقوبا إذا دخل.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: أن الغاسق هو الثريا إذا سقطت، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها، وترتفع عند طلوعها؟

قيل: إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل. وإن أراد: أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما: فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبهه. وأما أن يختص به اللفظ به فباطل * . فصل والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو: أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة. وفيه تنتشر الشياطين.

وفي الصحيح ((أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين)) ولهذا قال: ((فاكفوا صبيانكم، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء)) وفي حديث آخر ((فإن الله يث من خلقه ما يشاء)) .

والليل هو محل الظلام. وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار. فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة، وعلى أهل الظلمة.

وروى أن سائلا سأل مسيلمة: كيف يأتيك؟ فقال: في ظلماء حندس.

وسئل النبي ﷺ ((كيف يأتيك؟ فقال: في مثل ضوء النهار))

فاستدل بهذا على نبوته، وأن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان.

ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم: هو السحر القوي التأثير. ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها، وتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه. وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

ومن هاهنا: تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع.

فإن الفلق: هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام، وعسكر المفسدين في الليل. فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار، وتأوي الهوام إلى أجحرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها. فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها وجيشها.

ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم. قال الله تعالى:

فأمر الله تعالى عباده أن يستعينوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور ويدع الكفار في ظلمات كفرهم قال تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِاهُمُ الطَّاغُوتُ، يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى : ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الانعام: ١٢٢] وقال في أعمال الكفار ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا. وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]

فالإيمان كله نور، ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضىء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضئية المشرقة. والكفر والشرك كله ظلمة، ومآله إلى الظلمات ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بأهله الأرواح المظلمة. فتأمل الاستعانة برب الفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها ونزل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن، بل هاتان السورتان، من أعظم أعلام النبوة، وبراهين صدق رسالة محمد ﷺ، ومضادته لما جاء به الشياطين من كل وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون فما فعلوه، ولا يليق بهم، ولا يتأتى منهم، ولا يقدرُونَ عليه.

وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها، وما شفوا في جوابها. وإنما الله سبحانه هو الذي شفى وكفى في جوابها. فلم يحوجنا إلى متكلم، ولا إلى أصولي، ولا إلى نظار. فله الحمد والمِنَّة، لا نحصى ثناء عليه.

واعلم أن الخلق كله فلق. وذلك أن «فلقا» فعل بمعنى مفعول، كقبض وسلب، وقنص: بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص.

والله عز وجل ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ و ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح. ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة: فلقا وفرقا. يقال: هو أبيض من فرق الصبح وقلقه. وكما أن في خلقه فلقا وفرقا. فكذلك أمره كله فرقان، يفرق بين الحق والباطل. فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفرق

ظلام الليل بالإصباح. ولهذا سمي كتابه «الفرقان» ونصره فرقانا، لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه. ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه فلقا.

فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع. وظهر بهذا إعجاز القرآن، وعظمته وجلالته، وأن العباد لا يقدرُون قدره، وأنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ()

قال ابن جرير : "يقول: ومن شر السواحر اللاتي ينفتن في عقد الخيط، حين يرقين عليها".

١ - قال ابن تيمية في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : " ذَهَبَ جُمُهورُ أَهلِ السُّنَّةِ إِلَى أَنَّ السِّحْرَ قِسْمَانِ : قِسْمٌ هُوَ حِيلٌ وَخُرْفَةٌ وَتَهْوِيلٌ وَشَعْوَذَةٌ ، وَإِيهَامٌ لَيْسَ لَهُ حَقَائِقُ ، أَوْ لَهُ حَقَائِقُ لَكِنْ لَطْفٌ مَأْخُذُهَا ، وَلَوْ كُشِفَ أَمْرُهَا لَعَلِمَ أَنَّهَا أَفْعَالٌ مُعْتَادَةٌ يُمْكِنُ لِمَنْ عَرَفَ وَجْهَهَا أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَهَا ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا مَا يَنْبَغِي عَلَى مَعْرِفَةِ خَوَاصِّ الْمَوَادِّ وَالْحِيلِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَنَحْوِهَا ، وَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى السِّحْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : { سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ } [سورة الأعراف / ١١٦] وَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ خَفَاءَ وَجْهِهِ ضَعِيفًا فَلَا يُسَمَّى سِحْرًا اضْطِلَاحًا ، وَقَدْ يُسَمَّى سِحْرًا لُغَةً ، كَمَا قَالُوا : (سَحَرْتُ الصَّبِيَّ) بِمَعْنَى خَدَعْتُهُ .

القِسْمُ الثَّانِي : مَا لَهُ حَقِيقَةٌ وَوُجُودٌ وَتَأْثِيرٌ فِي الْأَبْدَانِ . فَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى إِبْطَالِ هَذَا الْقِسْمِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ . وَهُوَ مَذْهَبُ الْحَنْفِيَّةِ عَلَى مَا نَقَلَهُ ابْنُ الْهَمَامِ ، وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ .

وَاسْتَدَلَّ الْقَائِلُونَ بِتَأْثِيرِ السِّحْرِ وَإِخْدَانِهِ الْمَرَضَ وَالضَّرَرَ وَنَحْوِ ذَلِكَ بِأَدْلَةٍ :

مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } [سورة الفلق] وَالنَّفَّاثَاتُ فِي الْعُقَدِ : هُنَّ السَّوَاحِرُ مِنَ التَّنَسُّءِ ، فَلَمَّا أُمِرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِنَّ عَلِمَ أَنَّ لَهُنَّ تَأْثِيرًا وَضَرَرًا .

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } [سورة البقرة / ١٠٢] .

وَمِنْهَا مَا وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ سَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَجُلًا مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ ، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُحِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا ثُمَّ قَالَ « يَا عَائِشَةُ ، أَشَعُرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ، أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ مَا وَجَعَ الرَّجُلُ فَقَالَ مَطْبُوبٌ . قَالَ مَنْ طَبَّهُ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ . قَالَ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَالَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ ، وَجَفَّ طَلْعُ نَخْلَةٍ ذَكَرَ . قَالَ وَأَيْنَ هُوَ قَالَ فِي بئرِ ذُرْوَانَ » . فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَجَاءَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ كَأَنَّ مَاءَهَا نَقَاعَةُ الْحِنَاءِ ، أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » . قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا اسْتَخْرِجُهُ قَالَ « قَدْ عَافَانِي اللَّهُ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُتَوَزَّ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا » . فَأَمَرَ بِمَا قُدِفَتْ . تَابَعَهُ أَبُو أُسَامَةَ وَأَبُو صَمْرَةَ وَابْنُ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ هِشَامٍ . وَقَالَ اللَّيْثُ وَابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ هِشَامٍ فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ . يُقَالُ الْمُشَاطَةُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الشَّعْرِ إِذَا مُشِطَ ، وَالْمُشَاقَةُ مِنْ مُشَاقَةِ الْكَتَّانِ (رواه البخاري ومسلم).

وقال ابن كثير: "وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ، وَالْحُسَيْنُ، وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ: يَعْنِي:

السَّوَّاحِرَ - قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا رَقَيْنَ وَنَفَثْنَ فِي الْعُقَدِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا ابْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَقْرَبُ مِنَ الشِّرْكِ مِنْ رُقِيَةِ الْحَيَّةِ وَالْمَجَانِينِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: أَنَّ جَبْرِيلَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: اسْتَكَيْتَ يَا مُحَمَّدُ؟ فَقَالَ: "نَعَمْ". فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ.

وَلَعَلَّ هَذَا كَانَ مِنْ شُكْوَاهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ سُحِرَ، ثُمَّ عَافَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَشَفَاهُ، وَرَدَّ كَيْدَ السَّحَرَةِ الْحَسَّادِ مِنَ الْيَهُودِ فِي رُءُوسِهِمْ، وَجَعَلَ تَدْمِيرَهُمْ فِي تَدْبِيرِهِمْ، وَفَضَحَهُمْ، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا لَمْ يُعَاتِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، بَلْ كَفَى اللَّهُ وَشَفَى وَعَافَى.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ: سَحَرَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ، فَاسْتَكَى لِدَلِكِ أَيَّامًا، قَالَ: فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، عَقَدَ لَكَ عُقْدًا فِي بَنَرٍ كَذَا وَكَذَا، فَأَرْسَلْ إِلَيْهَا مَنْ يَجِيءُ بِهَا. فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [عَلِيًّا، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ] فَاسْتَخْرَجَهَا، فَجَاءَ بِهَا فَحَلَّلَهَا قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا نَشَطَ مِنْ عِقَالٍ، فَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ لِلْيَهُودِيِّ وَلَا رَأَهُ فِي وَجْهِهِ [قَطُّ] حَتَّى مَاتَ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ هَنَادٍ، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ مُحَمَّدِ بْنِ حَازِمِ الضَّرِيرِ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي "كِتَابِ الطَّبِّ" مِنْ صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُ: أَوَّلُ مَنْ حَدَّثَنَا بِهِ ابْنُ جَرِيرٍ، يَقُولُ: حَدَّثَنِي آلُ عُرْوَةَ، عَنْ عُرْوَةَ، فَسَأَلْتُ هِشَامًا عَنْهُ، فَحَدَّثَنَا عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُحِرَ، حَتَّى كَانَ يُرَى أَنَّهُ يَأْتِي التِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ - قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، إِذَا كَانَ كَذَا - فَقَالَ: "يَا عَائِشَةُ، أَعْلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَا أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ أَعْصَمٍ - رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودٍ، كَانَ مُنَافِقًا - وَقَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَّةٍ. قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ تَحْتَ رَعُوفَةٍ فِي بَنَرٍ ذَرُوانٍ". قَالَتْ: فَأَتَى [النَّبِيُّ ﷺ] الْبَنَرُ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ فَقَالَ: "هَذِهِ الْبَنَرُ الَّتِي أُرِيتُهَا، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نَقَاعَةُ الْحَنَاءِ، وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ". قَالَ: فَاسْتَخْرَجَ [قَالَ: فَاسْتَخْرَجَ] قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَفَلَا؟ أَيْ: تَنْشُرْتَ؟ فَقَالَ: "أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهُ أَنْ أَثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا.

وَأَسْنَدُهُ مِنْ حَدِيثِ عِيسَى بْنِ يُونُسَ، وَأَبِي صَمْرَةَ أَنَسِ بْنِ عِيَّاضٍ، وَأَبِي أُسَامَةَ، وَيَحْيَى الْقَطَّانِ وَفِيهِ: "قَالَتْ: حَتَّى كَانَ يُجَبَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَمْ يَفْعَلْهُ". وَعِنْدَهُ: "فَأَمَرَ بِالْبَنَرِ فِدْفِنْتُ". وَذَكَرَ أَنَّهُ رَوَاهُ عَنْ هِشَامِ ابْنِ أَبِي الزَّنَادِ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ.

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ حَمَّادِ بْنِ أُسَامَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَيْرٍ. وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، عَنْ عَفَّانَ، عَنْ وَهَبٍ عَنْ هِشَامٍ، بِهِ.

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ رَبَاحٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ يُرَى أَنَّهُ يَأْتِي وَلَا يَأْتِي، فَأَتَاهُ مَلَكَانِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: مَا بَالُهُ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ..".

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد: "وقد دل قوله {ومن شر النفاثات في العقد} وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر وأن له حقيقة () وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وقالوا إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد قالوا وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف وما يعرفه عامة العقلاء والسحر الذي يؤثر مرضا وثقلا وحلا وعقدا وحبا وبغضا وتزينا وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس وكثير منهم قد علمه ذوقا بما أصيب به منه

وقوله تعالى {ومن شر النفاثات في العقد} دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهرا كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه وأيضا فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به مع أن هذا تغير في إحساسهم فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركا والمتصل منفصلا والميت حيا فما الخيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغیضا والبغیض محبوبا وغير ذلك من التأثيرات وقد قال تعالى عن سحرة فرعون إنهم {سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم} [الأعراف ١١٦] فبين سبحانه أن أعينهم سحرت وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي وهو الحبال والعصي مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهي الشياطين فظنوا أنها تحركت بأنفسها وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيرا أو بساطا فترى

١ - قال ابن بطال في شرح البخاري: "قال ابن القصار: ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي إلى أن السحر له حقيقة، وقد يمرض من يفعل ويموت ويتغير عن طبعه. وقال بعض الناس: السحر تخيل وشعوذة وليس له حقيقة ولا يمرض منه ولا يقتل به أحد، واستدلوا على لك بقوله تعالى: {يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى} فأخبر أن حبالهم وعصيهم ماسعت في الحقيقة، فلو كان للسحر حقيقة لتحقق في ذلك الوقت؛ لأن فرعون كان قد جمع السحرة من البلدان، فلما أخبرنا الله تعالى أن ما فعلوه خيالا علم لا حقيقة له. قال ابن القصار: والحجة على هذه المقالة حديث عائشة وهو نص لا يحتمل التأويل؛ لأنهم سحروا النبي عليه السلام حتى وصل المرض إلى بدنه، لأنه قال لما حل السحر ((إن الله شفاني)). والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض".

الحصير والبساط ينجر ولا ترى الجار له مع أنه هو الذي يجره فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين فقلبتها كتقلب الحية فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها والشياطين هم الذين يقلبونها وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتى رأي الحبال والعصي تتحرك وهي ساكنة في أنفسها ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا فتارة يتصرف في نفس الرأي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به وتارة يتصرف في المرئي باستعانتة بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيتها مثل الزئبق وغيره حتى سعت فهذا باطل من وجوه كثيرة فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً بل حركة حقيقية ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس ولا يسمى ذلك سحراً بل صناعة من الصناعات المشتركة وقد قال تعالى { فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى } [طه ٦٦] ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون لم يكن هذا من السحر في شيء ومثل هذا لا يخفى وأيضاً لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء لكان طريق إبطائها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال ولم يحتاج إلى إلقاء العصا لابتلاعها وأيضاً فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة بل يكفي فيها حذاق الصانع ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ووعدهم بالتقريب والجزاء وأيضاً فإنه لا يقال في ذلك إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها وبالجمله فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود .

وقال في زاد المعاد عن تأثير النفث : " وبالجمله .. فنفسُ الراقي تُقابل تلك النفوس الخبيثة، وتزبدُ بكيفية نفسه، وتستعين بالرقية وبالنفث على إزالة ذلك الأثر، وكلّما كانت كيفية نفس الراقي أقوى، كانت الرقية أتمّ، واستعانتُهُ بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها.

وفي النفث سرٌّ آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة، ولهذا تفعله السحرة كما يفعله أهلُ الإيمان. قال تعالى: { وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } ، وذلك لأن النفس تتكيّف بكيفية الغضب والحاربة، وتُرسلُ أنفاسها سهاماً لها، وتمدّها بالنفث والتفلّ الذي معه شيء من الرّيق مصاحب لكيفية مؤثرة، والسواحرُ تستعين بالنفث باستعانةً بيّنة، وإن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفثُ على العقدة وتعقدها، وتتكلّم بالسحر، فيعمل ذلك في المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة، فتقابلها الرّوح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرقية، وتستعين بالنفث، فأبُهما قوَى كان الحكمُ له، ومقابلهُ الأرواح بعضها لبعض، ومحاربتُها وآلتها من جنس مقابلة الأجسام، ومحاربتُها وآلتها سواء، بل الأصلُ في المحاربة والتقابل للأرواح والأجسام آلتها وجندها، ولكن من غلب عليه الحسُّ لا يشعرُ بتأثيرات الأرواح وأفعالها وانفعالاتها لاستيلاء سلطان الحسِّ عليه، ويُعديه من عالم الأرواح، وأحكامها، وأفعالها.

والمقصود.. أن الرّوح إذا كانت قويةً وتكيّفتُ بمعاني الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفلّ، قابلت ذلك الأثر الذي حصل من النفوس الخبيثة، فأزالته.. والله أعلم. "

وقال ايضا في بدائع الفوائد : " الشر الثالث: شر التفاثات في العقد.

وهذا الشر هو شر السحر. فإن التفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر. والنفث: هو النفخ مع ريق. وهو دون الثقل. وهو مرتبة بينهما.

والنفث: فعل الساحر. فإذا تكيّف نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس مّمازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك. وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور. فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدرى. لا الأمرى الشرعى.

فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟

قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع، وهو أن بنات لبيد ابن الأعصم سحرن النبي ﷺ.

هذا جواب أبي عبيدة وغيره. وليس هذا بسديد. فإن الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم، لا بناته، كما جاء في الصحيح. ()

والجواب الحق: أن التفاثات هنا: هن الأرواح والأنفس التفاثات لا النساء التفاثات (فيشمل الرجال والنساء). لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة، والأرواح الشريرة وسلطانها إنما يظهر منها. فلهذا ذكرت التفاثات هنا بلفظ التأنيث، دون التذكير. والله أعلم.

ففي الصحيح: عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة «أن النبي ﷺ طّب، حتى إنه ليخيّل إليه أنه صنع شيئا وما صنعه، وإنه دعا ربه، ثم قال:

أشعرت أن الله قد أفناني فيما أستفتيه فيه؟ فقالت عائشة: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال الآخر: مطبوب. قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاطة، وجفّ طلع ذكر. قال: فأين هو؟ قال: في ذروان، بئر في بني زريق. قالت عائشة رضي الله عنها فأتاها رسول الله ﷺ، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لكأن ماءها نقاعة الحنّاء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين. قالت: فقلت له:

١ - قال الطاهر بن عاشور: " المراد بـ ﴿التَّفَاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ النساء السّاحرات، وإمّا جيءَ بِصِفَةِ الْمُؤَنَّثِ؛ لأنَّ الغالبَ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنْ يَتَعَاطَى السِّحْرَ النِّسَاءُ؛ لِأَنَّ نِسَاءَهُمْ لَا شُغْلَ لَهُنَّ بَعْدَ قَبِيئَةِ لَوَازِمِ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ وَالنَّظَافَةِ؛ فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ انْكِبَاجُنَّ عَلَى مِثْلِ هَاتِهِ السَّفَاسِفِ مِنَ السِّحْرِ وَالتَّكْهُنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَالْأَوْهَامُ الْبَاطِلَةُ تَتَفَشَّى بَيْنَهُنَّ". ولعل سبب انتشاره بين النساء لضعفهن فلا يتوصلن الى مرادهن بالطرق المكشوفة فتلجأ للسحر .

يا رسول الله، هَلَّا أخرجته؟ قال: أما أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شرا. فأمر بها، فدفنت» قال البخاري: وقال الليث وابن عيينة عن هشام «في مشط ومشاقة».

ويقال: إن المشاطة: ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاقة: من مشاقة الكتان.

قلت: هكذا في هذه الرواية: أنه لم يخرج، اكتفاء بمعافاة الله له. وشفائه إياه.

وقد روى البخاري من حديث ابن عيينة قال: «أول من حدثنا به ابن جريج يقول: حدثني آل عروة عن عروة. فسألت هشاما عنه؟ فحدثنا عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر، إذا كان كذا. فقال:

يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقع أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي. فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟

قال: لبيد بن الأعصم، رجل من بني زريق حليف لليهود. وكان منافقا. قال: وفيه؟ قال: في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال في جفّ طلع ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان.

قال: فأتي البئر حتى استخرجه. فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأنّ ماءها نقاعة الحناء، وكأنّ نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستخرج. قالت.

فقلت: أفلا - أي تشرت -؟ قال: أمّا الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا».

ففي هذا الحديث: أنه استخرجه. وترجم البخاري عليه: باب هل يستخرج السحر. وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طبّ، ويؤخذ عن امرأته أيحَلّ عنه وينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح. فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه.

فهذان الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما. فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه: الأول فيه: أنه لم يستخرجه. وحديث ابن جريج عن هشام فيه «أنه استخرجه» ولا تنافي بينهما. فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه، ثم دفنه بعد أن شفي. وقول عائشة «هلا استخرجته؟» أي هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار، ويغضب للساحر قومه، فيحدث الشر. وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة.

فأمر بها فدفنت، ولم يستخرجها للناس. فالاستخراج الواقع غير الذي سألت عنه عائشة. ()

١ - الروايات الصحيحة ان النبي صلى الله عليه وسلم استخرجه وجمع بينها وبين رواية عدم الاستخراج النبي صلى الله عليه وسلم استخرجه وربما لم يفتح وينظر فيه كي لا يثر على الناس شرّاً بعد ان اخلت عقده (ذكره الشيخ خالد السبت في شرح الآية).

والذي يدل عليه: أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه ولم يجيء لينظر إليها ثم ينصرف، إذ لا غرض له في ذلك. والله أعلم.

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم. لا يختلفون في صحته. وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار. وقابلوه بالتكذيب، وصنف بعضهم فيه مصنفًا مفردًا، حمل فيه على هشام. وكان غاية ما أحسن القول فيه: أن قال: غلط، واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء. قال: لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يسحر. فإنه يكون تصديقًا لقول الكفار ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾. قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ وكما قال قوم صالح له ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ وكما قال قوم شعيب له ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾. قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا. فإن ذلك ينافي حماية الله لهم، وعصمتهم من الشياطين. وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم. فإن هشامًا من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه. فما للمتكلمين وما لهذا الشأن؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة. وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة. والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء. وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين.

قال ابن بطال في شرح البخاري: "قال المهلب: وقع في هذا الحديث فاستخرج السحر، ووقع في باب السحر (قلت: يا رسول الله، أفلا استخرجت فأمر بها فدفنت). وهذا اختلاف من الرواة، ومدار الحديث على هشام بن عروة، وأصحابه مختلفون في استخراجه فأثبتته سفيان في روايته من طريقين في هذا الباب، وأوقف سؤال عائشة النبي عليه السلام عن النشرة ونفى الاستخراج عن عيسى بن يونس وأوقف سؤالها للنبي على الاستخراج ولم يذكر أنه جاب جواب على الاستخراج بشيء، وحقق أبو أسامة جوابه عليه السلام؛ إذ سألت عائشة عن استخراجه بلا. فكان الاعتبار يعطى أبو سفيان أولى بالقول لتقدمه في الضبط، وأن الوهم على أبي أسامة في أنه لم يستخرجه، ويشهد لذلك أنه لم يذكر النشرة في حديثه فوهم في أمرها فرد جوابه عليه السلام بلا على الاستخراج فلم يذكر النشرة. وكذلك عيسى بن يونس لم يذكر أنه عليه السلام جاب جواب على استخراجه بلا ولا ذكر النشرة، والزيادة من سفيان مقبولة؛ لأنه أثبتهم وقوى ثبوت الاستخراج في حديثه لتكرره فيه مرتين فبعد من الوهم فيما حقق من الاستخراج، وفي ذكره للنشرة في جوابه عليه السلام مكان الاستخراج. وفيه: وجه آخر يحتمل أن يحكم بالاستخراج لسفيان، ويحكم لأبي أسامة بقوله: لا على أنه استخرج الجف بالمشاقة، ولم يستخرج صورة ما في الجف من المشط وما ربط به لئلا يراه الناس فيتعلمونه إن أرادوا استعمال السحر فهو عندهم مستخرج من البئر وغير مستخرج من الجف، والله أعلم."

وذكر الشيخ العدوي الترجيح لأن مخرج الحديثين متحد وإن الصواب أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستخرج السحر واستدل على ذلك بقول عائشة رضي الله عنه: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا اسْتَخْرَجْتَهُ قَالَ: [قَدْ عَافَيْتَنِي اللَّهُ فَكَرِهْتُ أَنْ أُتَوَرَّعَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا].

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم قال «سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياما. قال: فأثاء جبريل، فقال: إن رجلا من اليهود سحرك، وعقد لذلك عقدا. فأرسل رسول الله ﷺ عليا. فاستخرجها، فجاء بها، فجعل كلما حلّ عقدة وجد لذلك خفة. فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال. فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط»

وقال ابن عباس وعائشة «كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ. فدنت إليه اليهود. فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ، وعدة أسنان من مشطه. فأعطاهم اليهود، فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم: رجل من اليهود. فنزلت هاتان السورتان فيه».

قال البغوي: وقيل «كانت مغرورة بالأبر». فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين. وهما أحد عشر آية: سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها. فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال» قال: وروى أنه لبث فيه ستة أشهر، واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوذتان.

قالوا: والسحر الذي أصابه كان مرضا من الأمراض عارضا شفاه الله منه. ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما. فإن المرض يجوز على الأنبياء. وكذلك الإغماء. فقد أغمى عليه ﷺ في مرضه، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه وهذا من البلاء الذي يزيد الله به رفعة في درجاته.

ونيل كرامته. وأشد الناس بلاء الأنبياء. فابتلوا من أمهم بما ابتلوا به: من القتل، والضرب، والشتم، والحبس. فليس بدع أن يبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر، كما ابتلى بالذي رماه فشجه. وابتلى بالذي ألقى على ظهره السلا وهو ساجد، وغير ذلك. فلا نقص عليهم. ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالمهم، وعلو درجاتهم عند الله.

قالوا: وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري «أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم. فقال: باسم الله أرقبك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقبك» فعوذ جبريل من شر كل نفس وعين حاسد، لما اشتكى. فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشاكيتته ﷺ، وإلا فلا يعوذه من شيء وشكايته من غيره.

وقالوا: وأما الآيات التي استدللتم بها فلا حجة لكم فيها.

أما قوله تعالى عن الكفار: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا وقول قوم صالح وشعيب لهما إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ فقليل: المراد به من له سحر، وهي الرثة، أي إنه بشر مثلهم، يأكل ويشرب، ليس بملك، وليس المراد به السحر.

وهذا جواب غير مرض. وهو في غاية البعد. فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور، ولا يعرف هذا في لغة من اللغات. وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر، فقالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ و ﴿أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلُنَا﴾ و ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾.

وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر، وهي الرثة. وأي مناسبة لذكر الرثة في هذا الموضع؟

ثم كيف يقول فرعون لموسى ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾

أفتراه ما علم أن له سحرا، وأنه بشر؟

ثم كيف يجيبه موسى بقوله: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾

ولو أراد بالمسحور: أنه بشر لصدقه موسى، وقال: نعم، أنا بشر أرسلني الله إليك، كما قالت الرسل لقومهم لما قالوا لهم

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فقالوا: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ولم ينكروا ذلك.

فهذا الجواب في غاية الضعف.

وأجابت طائفة، منهم ابن جرير وغيره: بأن المسحور هنا هو معلّم السحر الذي قد علمه إياه غيره. فالمسحور عنده:

بمعنى ساحر، أي عالم بالسحر.

وهذا جيد إن ساعدت عليه اللغة. وهو أن من علّم السحر يقال له مسحور. ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال، ولا في

اللغة. وإنما المسحور من سحره غيره، كالمطبوب والمضروب والمقتول وبابه. وأما من علّم السحر فإنه يقال له: ساحر،

بمعنى أنه عالم بالسحر، وإن لم يسحر غيره. كما قال قوم فرعون لموسى ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾

ففرعون قذفه بكونه مسحورا، وقومه قذفوه بكونه ساحرا.

فالصواب: هو الجواب الثالث. وهو جواب صاحب الكشف وغيره:

أن «المسحور» على بابه. وهو من سحر حتى جنّ. فقالوا: مسحور، مثل مجنون أي زائل العقل، لا يعقل ما يقول. فإن

المسحور الذي لا يتبع: هو الذي فسد عقله، بحيث لا يدرى ما يقول. فهو كالمجنون. ولهذا قالوا فيه {مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ} فأما

من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتّباعه. وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض

الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذّرون به سفهاءهم من أتباعهم. وهو أنهم قد سحروا، حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون،

بمنزلة المجانين.

ولهذا قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

مَثَلُكَ بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى. فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه

وتحيّره طريقا يسلكه، فلا يقدر عليه. فإنه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة. فهو متحير في أمره، لا يهتدي

سبيلا، ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه، حتى ضربوا له أمثالا، برأه الله منها.

وهو أبعد الله عنها. وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أمهم وخلفائهم إذا أودوا من الناس، فأروا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا، وتأسوا بهم، ولتمتلى صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيتهم وعدوانهم، فيعجل تطهير الأرض منهم. فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم. وله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة لا إله غيره، ولا رب سواه.

وقال أيضا: "فَصَلِّ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ السِّحْرِ الَّذِي سَحَرَتْهُ الْيَهُودُ بِهِ

قَدْ أَنْكَرَ هَذَا طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ وَقَالُوا: لَا يَجُوزُ هَذَا عَلَيْهِ، وَظَنُّوهُ نَقْصًا وَعَيْبًا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، بَلْ هُوَ مِنْ جِنْسٍ مَا كَانَ يَعْتَرِيهِ ﷺ مِنَ الْأَسْقَامِ وَالْأَوْجَاعِ، وَهُوَ مَرَضٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَإِصَابَتُهُ بِهِ كِإِصَابَتِهِ بِالسُّمِّ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، وَقَدْ ثَبَتَ فِي "الصَّحِيحَيْنِ" عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: «سَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِنْ كَانَ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِي نِسَاءَهُ وَلَمْ يَأْتِهِنَّ»

وَذَلِكَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: وَالسِّحْرُ مَرَضٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَعَارِضٌ مِنَ الْعِلَلِ، يَجُوزُ عَلَيْهِ ﷺ كَأَنْوَاعِ الْأَمْرَاضِ مِمَّا لَا يُنْكِرُ، وَلَا يَقْدَحُ فِي نُبُوَّتِهِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، فَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يُدْخِلُ عَلَيْهِ دَاخِلَةً فِي شَيْءٍ مِنْ صِدْقِهِ، لِقِيَامِ الدَّلِيلِ وَالْإِجْمَاعِ عَلَى عِصْمَتِهِ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا هَذَا فِيمَا يَجُوزُ طُرُؤُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ الَّتِي لَمْ يُبْعَثْ لِسَبِّهَا، وَلَا فَضْلَ مِنْ أَجْلِهَا، وَهُوَ فِيهَا غُرُصَةٌ لِلْآفَاتِ كَسَائِرِ الْبَشَرِ، فَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِهَا مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ، ثُمَّ يَنْجَلِي عَنْهُ كَمَا كَانَ.

وَالْمَقْصُودُ: ذِكْرُ هَدْيِهِ فِي عِلَاجِ هَذَا الْمَرَضِ، وَقَدْ رُوي عَنْهُ فِيهِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا - وهو أبلغُهُما - اسْتِخْرَاجُهُ وَإِبْطَالُهُ، كَمَا صَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَلِكَ، فَدَلَّ عَلَيْهِ فَاسْتَخْرَجَهُ مِنْ بَثْرِ، فَكَانَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفٍّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، فَلَمَّا اسْتَخْرَجَهُ ذَهَبَ مَا بِهِ حَتَّى كَأَنَّمَا أَنْشَطَ مِنْ عِقَالٍ، فَهَذَا مِنْ أْبْلَغِ مَا يُعَالَجُ بِهِ الْمَطْبُوبُ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ إِزَالَةِ الْمَادَّةِ الْحَبِيثَةِ وَقَلْعِهَا مِنَ الْجَسَدِ بِالِاسْتِفْرَاقِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: الْإِسْتِفْرَاقُ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْهِ أَذَى السِّحْرِ، فَإِنَّ لِلْسِّحْرِ تَأْثِيرًا فِي الطَّبِيعَةِ، وَهِيَ جَانُ أَخْلَاطِهَا وَتَشْوِيشَ مَزَاجِهَا، فَإِذَا ظَهَرَ أَثَرُهُ فِي غَضْوٍ، وَأَمَكَّنَ اسْتِفْرَاقَ الْمَادَّةِ الرَّدِيئَةِ مِنْ ذَلِكَ الْغَضْوِ، نَفَعَ جَدًّا.

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عبيد فِي كِتَابِ " غَرِيبِ الْحَدِيثِ " لَهُ بِإِسْنَادِهِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اخْتَجَمَ عَلَى رَأْسِهِ بِقَرْنٍ حِينَ طُبَّ».

قَالَ أَبُو عبيد: مَعْنَى طُبَّ: أَيُّ سَجَرٍ.

وَقَدْ أَشْكَلَ هَذَا عَلَى مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ، وَقَالَ مَا لِلْحِجَامَةِ وَالسِّحْرِ، وَمَا الرَّابِطَةُ بَيْنَ هَذَا الدَّاءِ وَهَذَا الدَّوَاءِ، وَلَوْ وَجَدَ هَذَا الْقَائِلُ أَبْقَرَاتٍ أَوْ ابْنَ سِينَا أَوْ غَيْرَهُمَا قَدْ نَصَّ عَلَى هَذَا الْعِلَاجِ، لَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ وَالتَّسْلِيمِ، وَقَالَ: قَدْ نَصَّ عَلَيْهِ مَنْ لَا يُشَكُّ فِي مَعْرِفَتِهِ وَفَضْلِهِ.

فَاعْلَمْ أَنَّ مَادَّةَ السِّحْرِ الَّتِي أُصِيبَ بِهِ ﷺ انْتَهَتْ إِلَى رَأْسِهِ إِلَى إِحْدَى قُوَاهُ الَّتِي فِيهِ بِحَيْثُ كَانَ يُحْيِلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، وَهَذَا تَصَرُّفٌ مِنَ السَّاحِرِ فِي الطَّبِيعَةِ وَالْمَادَّةِ الدَّمَوِيَّةِ بِحَيْثُ غَلَبَتْ تِلْكَ الْمَادَّةُ عَلَى الْبَطْنِ الْمَقْدَمِ مِنْهُ، فَغَيَّرَتْ مِزَاجَهُ عَنْ طَبِيعَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ.

وَالسِّحْرُ: هُوَ مُرْكَبٌ مِنْ تَأْثِيرَاتِ الْأَرْوَاحِ الْحَبِيثَةِ، وَأَنْفِعَالِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ عَنْهَا، وَهُوَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي انْتَهَى السِّحْرُ إِلَيْهِ، وَاسْتِعْمَالِ الْحِجَامَةِ عَلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي تَضَرَّرَتْ أَفْعَالُهُ بِالسِّحْرِ مِنْ أَنْفَعِ الْمُعَالَجَةِ إِذَا اسْتُعْمِلَتْ عَلَى الْقَانُونِ الَّذِي يَنْبَغِي.

قَالَ أَبُقَرَاتٍ: الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَفْرَغَ يَجِبُ أَنْ تُسْتَفْرَغَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي هِيَ إِلَيْهَا أَمِيلٌ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي تَصْلُحُ لِاسْتِفْرَاجِهَا.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أُصِيبَ بِهَذَا الدَّاءِ، وَكَانَ يُحْيِلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ مَادَّةٍ دَمَوِيَّةٍ أَوْ غَيْرِهَا مَالَتْ إِلَى جِهَةِ الدِّمَاغِ، وَغَلَبَتْ عَلَى الْبَطْنِ الْمَقْدَمِ مِنْهُ، فَأَزَالَتْ مِزَاجَهُ عَنِ الْحَالَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لَهُ، وَكَانَ اسْتِعْمَالُ الْحِجَامَةِ إِذْ ذَاكَ مِنْ أَبْلَغِ الْأَذْوِيَّةِ، وَأَنْفَعِ الْمُعَالَجَةِ فَاحْتَجَمَ، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ السِّحْرِ، فَلَمَّا جَاءَهُ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَدْ سَجَرَ، عَدَلَ إِلَى الْعِلَاجِ الْحَقِيقِيِّ وَهُوَ اسْتِخْرَاجُ السِّحْرِ وَإِبْطَالُهُ، فَسَأَلَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَدَلَّهُ عَلَى مَكَانِهِ، فَاسْتَخْرَجَهُ، فَقَامَ كَأَنَّمَا أَنْشَطَ مِنْ عِقَالٍ، وَكَانَ غَايَةُ هَذَا السِّحْرِ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ فِي جَسَدِهِ، وَظَاهِرِ جَوَارِحِهِ لَا عَلَى عَقْلِهِ وَقَلْبِهِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَعْتَقِدُ صِحَّةَ مَا يُحْيِلُ إِلَيْهِ مِنْ إْتْيَانِ التَّسَاءِ، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّهُ خَيَالٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَمِثْلُ هَذَا قَدْ يَحْدُثُ مِنْ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* [فصل علاج السحر بالأذكار والآيات]

* فَصْلٌ وَمِنْ أَنْفَعِ عِلَاجَاتِ السِّحْرِ الْأَذْوِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ، بَلْ هِيَ أَدْوِيَّتُهُ النَّافِعَةُ بِالذَّاتِ، فَإِنَّهُ مِنْ تَأْثِيرَاتِ الْأَرْوَاحِ الْحَبِيثَةِ السُّفْلِيَّةِ، وَدَفْعُ تَأْثِيرِهَا يَكُونُ بِمَا يُعَارِضُهَا وَيُقَاوِمُهَا مِنَ الْأَذْكَارِ وَالْآيَاتِ وَالِدَّعَوَاتِ الَّتِي تُبْطِلُ فِعْلَهَا وَتَأْثِيرَهَا، وَكُلَّمَا كَانَتْ أَقْوَى وَأَشَدَّ كَانَتْ أَبْلَغَ فِي النُّشْرَةِ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ التَّقَاءِ جَيْشَيْنِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عُدَّتُهُ وَسِلَاحُهُ، فَأَيُّهُمَا غَلَبَ الْآخَرُ فَهَرَهُ، وَكَانَ الْحُكْمُ لَهُ، فَالْقَلْبُ إِذَا كَانَ مُتَمَلِّئًا مِنَ اللَّهِ مَعْمُورًا بِذِكْرِهِ، وَلَهُ مِنَ التَّوَجُّهَاتِ وَالِدَّعَوَاتِ وَالْأَذْكَارِ وَالتَّعَوُّذَاتِ

وَرَدُّ لَا يُخْلِلُ بِهِ يُطَابِقُ فِيهِ قَلْبُهُ لِسَانُهُ، كَانَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَمْنَعُ إصَابَةَ السِّحْرِ لَهُ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْعِلَاجَاتِ لَهُ بَعْدَ مَا يُصِيبُهُ.

وَعِنْدَ السَّحَرَةِ: أَنَّ سِحْرَهُمْ إِنَّمَا يَتِمُّ تَأْثِيرُهُ فِي الْقُلُوبِ الضَّعِيفَةِ الْمُتَفَعِّلَةِ، وَالنُّفُوسِ الشَّهَوَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُعَلَّقَةٌ بِالسُّفْلِيَّاتِ، وَهَذَا فَإِنَّ غَالِبَ مَا يُؤَثِّرُ فِي النَّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ وَالْجُهَّالِ وَأَهْلِ الْبَوَادِي، وَمَنْ ضَعُفَ حَظُّهُ مِنَ الدِّينِ وَالتَّوَكُّلِ وَالتَّوَحُّيدِ، وَمَنْ لَا نَصِيبَ لَهُ مِنَ الْأُورَادِ الْإِلَهِيَّةِ وَالِدَّعَوَاتِ وَالتَّعَوُّذَاتِ النَّبَوِيَّةِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَسُلْطَانُ تَأْثِيرِهِ فِي الْقُلُوبِ الضَّعِيفَةِ الْمُتَفَعِّلَةِ الَّتِي يَكُونُ مِيلُهَا إِلَى السُّفْلِيَّاتِ، قَالُوا: وَالْمَسْحُورُ هُوَ الَّذِي يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّا نَجِدُ قَلْبَهُ مُتَعَلِّقًا بِشَيْءٍ كَثِيرٍ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ، فَيَتَسَلَّطُ عَلَى قَلْبِهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمِيلِ وَالْإِلْتِفَاتِ، وَالْأَرْوَاحِ الْحَبِيبَةِ إِنَّمَا تَتَسَلَّطُ عَلَى أَرْوَاحٍ تَلْقَاهَا مُسْتَعِدَّةً لَتَسَلُّطِهَا عَلَيْهَا بِمِيلِهَا إِلَى مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ الْحَبِيبَةَ، وَبِفَرَاغِهَا مِنَ الْقُوَّةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَعَدَمِ اخْتِذَاهَا لِلْعُدَّةِ الَّتِي تُحَارِبُهَا بِهَا، فَتَجِدُهَا فَارِغَةً لَا عُدَّةَ مَعَهَا، وَفِيهَا مِيلٌ إِلَى مَا يُنَاسِبُهَا، فَتَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا، وَيَتِمَّ كُنْ تَأْثِيرُهَا فِيهَا بِالسِّحْرِ وَغَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. "

وقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ()

قال ابن جرير: "اختلف أهل التأويل في الحاسد الذي أمر النبي ﷺ أن يستعيذ من شر حسده به، فقال بعضهم: ذلك كل حاسد أمر النبي ﷺ أن يستعيذ من شر عينه ونفسه.

* ذكر من قال ذلك:

١ - قالوا الجامع المشترك في الأمور الثلاثة المستعاذ منها في سورة الفلق (الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد) هو أنها شرور خارجية وخفية يختفي أثرها ومصدرها عن الإنسان، ولا يستطيع دفعها بنفسه فيلجأ فيها إلى خالقها.

ويمكن تفصيلها في النقاط التالية:

- الخفاء والسرية: جميعها تقع غالباً في خفاء؛ فالليل إذا أظلم يخفي ما فيه، والساحر ينفث سراً في العقد، والحاسد 7 يضم الحسد في قلبه.

- كونها شروراً خارجية: تعكس الاستعاذة من مخاطر وآفات تأتي من خارج نفس الإنسان (على عكس سورة الناس التي تختص بالوساوس والشرور الداخلية في النفس).

- العجز البشري عن إدراكها أو دفعها فور وقوعها: يحتاج فيها العبد إلى اللجوء والاعتصام بـ "رب الفلق" القادر على كشفها وحماية خلقه منها.

* حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال: من شرّ عينه ونفسه، وعن عطاء الخراساني مثل ذلك. قال معمر: وسمعت ابن طاوس يحدث عن أبيه، قال: العين حق، ولو كان شيء سابق القدر، سبقته العين، وإذا استغسل أحدكم فليغتسل. وقال آخرون: بل أمر النبي ﷺ بهذه الآية أن يستعيذ من شرّ اليهود الذين حسدوه. * ذكر من قال ذلك:

* حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال: يهود، لم يمنعهم أن يؤمنوا به إلا حسدهم. وأولى القولين بالصواب في ذلك، قول من قال: أمر النبي ﷺ أن يستعيذ من شرّ كلّ حاسد إذا حسد، فعابه أو سحره، أو بغاه سوءاً.

وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب؛ لأن الله عزّ وجلّ لم يخص من قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ حاسداً دون حاسد، بل عمّ أمره إياه بالاستعاذة من شرّ كلّ حاسد، فذلك على عمومته.

وقال ابن تيمية في أمراض القلوب وشفائها: "وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها نزلت بسبب حسد اليهود للنبي (صلى الله عليه وسلم) حتى سحره لبيد بن الأعصم اليهودي فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بما ظالم معتد والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهبي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله فإذا أحب أن يعطى مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالماً معتدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب وكان المحسود مظلوماً مأموراً بالصبر والتقوى فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه كما قال تعالى البقرة ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصحفوا حتى يأتي الله بأمره وقد ابتلى يوسف بحسد إخوة له حيث قالوا يوسف ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين فحسدوهما على تفضيل الأب لهما ولهذا قال يعقوب ليوسف يوسف لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين".

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد: "الشر الرابع: شر الحاسد إذا حسد. وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود. فنفس حسده شر متصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه. فإن الله تعالى قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فحقق الشر منه عند صدور الحسد. والقرآن ليس فيه لفظة مهمة.

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسداً إلا إذا قام به الحسد، كالضارب، والشاتم، والقاتل ونحو ذلك. ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود، لاه عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعث نار الحسد من قلبه إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله. فيتأذى المحسود بمجرد ذلك. فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به، ويكون له أوراد من

الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد.

فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل. وقد تقدم في حديث أبي سعيد الصحيح: رقية جبريل النبي ﷺ وفيها «بسم الله أرقيك. من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك» فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد. ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردا، إذا لو نظر إليه نظر لاه ساه عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره، لم يؤثر فيه شيئا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة وانسمت، واحتدت فصارت نفسا غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة فأثرت في المحسود تأثيرا بحسب صفة ضعفه، وقوة نفس الحاسد. فرما أعطبه وأهلكه، بمنزلة من فوق سهمها نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلا. وربما صرعه وأمرضه. والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر. وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة.

وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث، فتحدث فيها تلك الكيفية السم، فتؤثر في اللديغ، وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة. فتطمس البصر، وتسقط الجبل. كما ذكره النبي ﷺ في الأبت، وذو الطفتين منها. فقال «اقتلوها فإنهما يطمسان البصر، ويسقطان الجبل»

فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة، إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية، وانسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها؟ فله كم من قتيل؟ وكم من سليب؟ وكم من معافي عاد مضى على فراشه، يقول طبيبه: لا أعلم داءه ما هو؟ فصدق. ليس هذا الداء من علم الطبائع. هذا من علم الأرواح وصفاتها. وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع، وانفعال الأجسام عنها. وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له. ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه.

وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى؟ وهل الانفعال والتأثير، وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة، والآثار الغريبة إلا من الأرواح، والأجسام آلتها بمنزلة الصانع؟ فالصنعة في الحقيقة له، والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع. ومن له أدنى فطنة وتأمل لأحوال العالم وقد لطفت روحه، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها، وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها. وكل ذلك بتقدير العزيز العليم، خالق الأسباب والمسببات - رأى عجائب في الكون، وآيات دالة على وحدانية الله، وعظمة ربوبيته، وأن ثم عالما آخر تجري عليه أحكام آخر، تشهد آثارها. وأسبابها غيب عن الأبصار. فتبارك الله رب العالمين. وأحسن الخالقين الذي أتقن ما صنع، وأحسن كل شيء خلقه.

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح، بل هو أعظم وأوسع، وعجائبه أبهر وآياته أعجب.
وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقت الروح، كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم؟ فأين ذهبت تلك العلوم
والمعارف والعقل، وتلك الصنائع الغريبة، وتلك الأفعال العجيبة، وتلك الأفكار والتدبيرات؟
كيف ذهبت كلها مع الروح، وبقي الهيكل سواء هو والتراب؟ وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك، أو
يعاديك، ويخفّ عليك أو يثقل، ويؤنسك أو يوحشك إلا ذلك الأمر الذي هو وراء الهيكل المشاهد بالبصر؟
فرب رجل عظيم الهيولى كبير الجثة. خفيف على قلبك، حلو عندك. وآخر لطيف الخلقة، صغير الجثة، أثقل على قلبك
من جبل. وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها.
وبالجملة: فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد:
إنما هي للأرواح أصلا والأشباح تبعاً.

* (فصل)

والعائن والحاسد يشتركان في شيء، ويفترقان في شيء.
فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه، وتتوجه نحو من يريد أذاه.
فالعائن: تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته.
والحاسد: يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً.
وفيفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده، من جماد أو حيوان، أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد
صاحبه. وربما أصابت عينه نفسه. فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق، مع تكيف نفسه بتلك الكيفية: تؤثر في العين.
وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾
إنه الإصابة بالعين. أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ. فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا: ما رأينا مثله، ولا مثل حجته.
وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينية فيعينها، ثم يقول لخادمه: خذ المكتل والدرهم وائتنا بشيء من لحمها. فما
تبرح حتى تقع. فتتحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه، فتمر به الإبل، فيقول: لم أر
كاليوم إبلا ولا غنماً أحسن من هذه. فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب
رسول الله ﷺ بالعين، ويفعل به كفعله في غيره. فعصم الله رسوله وحفظه. وأنزل عليه وإن يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ
بِأَبْصَارِهِمْ هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى، منهم ابن قتيبة: ليس المراد: أنهم يصيبونك بالعين، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه. وإنما أراد:
أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يسقطك.

قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك.

وهذا مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إليّ نظرا كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى: أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهية، فيحدّون إليه النظر بالبغضاء.

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور: قد يكون سببه شدة العداوة والحسد فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة. فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه. فإذا عاينه قبلا اجتمعت الهمة عليه، وتوجهت النفس بكليتها إليه. فيتأثر بنظره، حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحمّ، ومنهم من يحمل إلى بيته. وقد شاهد الناس من ذلك كثيرا.

وقد يكون سببه الإعجاب. وهو الذي يسمونه: بإصابة العين. وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين. وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين. فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك.

قال عبد الرزاق: عن معمر عن هشام بن قتيبة قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «العين حق. ونهى عن الوشم».

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاع «أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفنسترقى لهم؟ قال: نعم. فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين».

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة. فهو نظر يكاد يزلقه.

لولا حفظ الله وعصمته. فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن فمن قال: إنه من الإصابة بالعين أراد: هذا المعنى. ومن قال: ليس به. أراد: أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب. فالقرآن حق.

وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد «أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان»

فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها.

وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير حدثني حابس بن حبة التميمي حدثني أبي: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «لا شيء في الهام. والعين حق».

وفيه أيضا من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال

«كان رسول الله ﷺ يقول: لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»

وفي الباب عن عبد الله بن عمرو. وهذا حديث صحيح.

والمقصود: أن العائن حاسد خاص. وهو أضر من الحاسد. ولهذا - والله أعلم - إنما جاء في السورة ذكر الحساد دون العائن. لأنه أعم. فكل عائن حاسد ولا بد. وليس كل حاسد عائن. فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن. وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

وأصل الحسد: هو بغض نعمة الله على المحسود، وتقني زوالها.

فالحاسد عدو النعم. وهذا الشر هو من نفسه وطبعها. ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها، بخلاف السحر. فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، واستعانة بالأرواح الشيطانية.

فلهذا - والله أعلم - قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر. لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن. فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن، وهو الوسوسة في القلب. فذكره في السورة الأخرى، كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله. فالحسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه. بل هو أذى من أمر عنه. ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواس إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له، وقبوله منه.

ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوسواس التي تقتزن بها الأفعال، والعزم الجازم. لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه. إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته. فلهذا أفرد شر

الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة. وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة.

ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسداهم. فأنهم لشدة خبثهم: فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم. وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا. فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر، وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس. وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما - في موضع غير هذا.

وإذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليهما، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن. كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

والشيطان يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما ويصاحبهما. ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان. لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه. لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس، وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدا. فالحاسد من جند إبليس. وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه. وربما يعبد من دون الله، حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له. وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب. ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ. وكان سحر عباد الأصنام أقوى من أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام. وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

وفي الموطأة عن كعب قال: «كلمات أحفظهن من التوراة، لولاها لجعلتني يهود حمارا: أعوذ بوجه الله العظيم، الذي لا شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم: من شر ما خلق، وذرا، وبرأ».

والمقصود: أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترب به ويعينه، ويزين له حسده، ويأمره بموجبه. والساحر بعلمه، وكسبه، واستعائته بالشياطين.

* (فصل)

وقوله: ومن شر حاسد إذا حسد يعم الحاسد من الجن والإنس.

فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. كما حسد إبليس أبانا آدم، وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس. والوسواس يعمهما، كما سيأتي بيانهما.

والحسد يعمهما أيضا. فكلا الشيطانين حاسد موسوس. فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعا.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم.

وتضمنت شرورا أربعة يستعاذ منها: شرا عاما. وهو شر ما خلق. وشر الغاسق إذا وقب. فهذان نوعان.

ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهما نوعان أيضا. لأنهما من شر النفس الشريرة. وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده، وهو الساحر. وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان، وتقرب إليه: إما بذبح باسمه، أو بذبح يقصد به هو، فيكون ذبحا لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق.

والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان. فهو عبادة له، وإن سماه بما سماه به. فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه، لا لاسمه ولفظه. فمن سجد لمخلوق، وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبييل الأرض بالجهة، كما أقبلها بالنعم، أو هذا إكرام: لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودا لغير الله فليسمة بما يشاء. وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به، وتقرب إليه بما يجب. فقد عبده، وإن لم يسم ذلك عبادة، بل يسميه استخداما، وصدق. هو استخدام من الشيطان له. فيصير من خدم الشيطان وعابديه. وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة. فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده، كما يفعل هو به.

والمقصود: أن هذا عبادة منه للشيطان. وإنما سماه استخداما. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا: سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾. فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين. وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة. ولبئس المولى، ولبئس العشير. فهذا أحد النوعين.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان، وإن لم يستعن هو به. وهو الحاسد. لأنه نائبة وخليفته. لأن كليهما عدو نعم الله، ومنغصها على عباده.

* (فصل)

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله «إذا حسد» لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئا من ذلك ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله. فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك لإخوة يوسف.

لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا ياتمر بها، بل يعصيا طاعة الله وخوفا وحياء منه، وإجلالا له. أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضا لما يحب الله، ومحبة لما يبغضه. فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمنى زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده، ورتب على حسده مقتضاة: من الأذى بالقلب، واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم. هذا كله حسد تمنى الزوال. وللحسد ثلاث مراتب: إحداها هذه.

والثانية: تمنى استصحاب عدم النعمة. فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه. فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب. فهذا حسد على شيء مقدر. والأول حسد على شيء محقق.

وكلاهما حاسد، عدو نعمة الله، وعدو عباده، ومحقوق عند الله تعالى، وعند الناس. ولا يسود أبدا، ولا يواسى فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم. فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبدا إلا قهرا يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها. فهم ييغضونه وهو ييغضهم.

والحسد الثالث: حسد الغبطة، وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه. فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، وسلطه علىهلكته في الحق. ورجل آتاه الله الحكمة. فهو يقضى بها ويعلمها الناس»

فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سبّاقهم وعليتهم ومصلّيتهم لا من فساكلهم «١» فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة، مع محبته لمن يغبطه، وتمنى دوام نعمة الله عليه. فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما.

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد. فإنها تتضمن التوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة. فهو مستعيز بولي النعم وموليها. كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليّ أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويذلها عني. وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستعير. وهو نعم المولى ونعم النصير. فمن تولاه واستنصر به، وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر.

وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته. فإن الله بالغ أمره. وقد جعل الله لكل شيء قدرا. لا يتقدم عنه ولا يتأخر. ومن لم يخفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾

وقال: ﴿إِنَّمَا ذِكْرُ الشَّيْطَانِ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

أي يخوفكم بأوليائه، ويعظمهم في صدوركم. فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم.

* (فصل)

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به واللجأ إليه. وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته، عليم بما يستعيز منه، والسمع هنا المراد به: سمع الإجابة، لا السمع العام. فهو مثل قوله: «سمع الله لمن حمده» وقول الخليل ﷺ: «إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ» ومرة يقرنه بالعلم، ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيز ذلك. فإنه يستعيز به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره.

فأخبر الله تعالى هذا المستعيز ذلك. فإنه يستعيز به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره. فأخبر الله تعالى هذا المستعيز أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه، يراه ويبصره، لينبسط أمل المستعيز، ويقبل بقلبه على الدعاء. وتأمل حكمة القرآن، كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ «السميع العليم» في الأعراف وحم السجدة. وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ «السميع البصير» في سورة حم المؤمن. فقال { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [غافر: ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال معينة ترى بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس، وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم. فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها. وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر، ويدرك بالرؤية. والله أعلم.

السبب الثاني: تقوى الله، وحفظه عند أمره ونهيهِ. فمن اتقى الله تولى الله حفظه، ولم يكله إلى غيره.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»

فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه. ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ ومن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا. فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله ولا يستطل تأخيره وبغيه. فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندا وقوة للمبغى عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه. وهو لا يشعر. فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه.

ولو رأى المبغى عليه ذلك لسره بغيه عليه.

ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي، دون آخره ومآله.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾

فإذا كان الله قد ضمن له النصر، مع أنه قد استوفى حقه أولاً، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بغى عليه وهو صابر؟ وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم. وقد سبقت سنة الله: أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دكا.

السبب الرابع: التوكل على الله. فمن يتوكل على الله فهو حسبه.

والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم. وهو من أقوى الأسباب في ذلك. فإن الله حسبه، أي كافيته. ومن كان الله كافيته وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر والبرد، والجوع والعطش، وإما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً. وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه. قال بعض السلف:

جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجاً من ذلك، وكفاه ونصره. وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده، وعظم منفعته، وشدة حاجة العبد إليه في «كتاب الفتح القدسي» وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة، وأنه من مقامات العوام. وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة. وبيننا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله. وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد، والعائن، والساحر، والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له. فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه.

وهذا من أنفع الأدوية، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره. فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه. فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه، حصل الشر وهكذا الأرواح سواء. فإذا علق روحه وشبثها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناماً، لا يفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا. فإذا تعلق كل روح منهما بالأخرى عدم القرار. ودام الشر، حتى يهلك أحدهما.

فإذا جذب روحه منه، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطر بهاله. فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به. بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً. فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً.

وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئا آلم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة، التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها. فوثقت بالله، وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعدده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قيلا.

فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم، وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها، ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس: وهو الإقبال على الله، والإخلاص له، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه، وأمانيتها تدب فيها ديب تلك الخواطر شيئا فشيئا، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية. فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب، والتقرب إليه وتملقه وترضيه، واستعطافه وذكره، كما يذكر المحب التام الحبة محبوبه المحسن إليه الذي قد امتلأت جوانحه من حبه. فلا يستطيع قلبه انصرافا عن ذكره، ولا روحه انصرافا عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورا بالفكر في حاسده والباغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه، والتدبير عليه؟ هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله، وطلب مرضاته. بل إذا مسته طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج، ناداه حرس قلبه: إياك وحى الملك. اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حلّ فيها، ونزل بها. مالك وليت السلطان الذي أقام عليه اليك وأدار عليه الحرس، وأحاطه بالسور، قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس: أَنَّهُ قَالَ: ﴿فِعَزَّتْكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ وقال في حق الصديق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، وصار داخل اليك، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به. ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه.

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وقال لخير الخلق، وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿أَوَلَمْآ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها. وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم. واستغفرك لما لا أعلم».

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه. فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب. ولقي بعض السلف رجلا فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأتاب إلى ربه. ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها. فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من موجباتها. فليس للعبد إذا بغى عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنقع له من التوبة النصوح.

وعلاوة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها. فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه. والله يتولى نصرته وحفظه، والدفع عنه ولا بد. فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به. وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله. لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. فما كل أحد يوفق لهذا. لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه. فإن لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء، ودفع العين، وشر الحاسد. ولو لم يكن في هذا إلا بتجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به. فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد. وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جنة واقية، وحصن حصين.

وبالجملة: فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببا لزوالها.

ومن أقوى الأسباب: حسد الحاسد والعائن. فإنه لا يفتقر ولا يني، ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود. فحينئذ

يبرد أنينه، وتتطفئ ناره، لا أطفأها الله. فما حرس العبد نعمة الله بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها

بمعاصي الله. وهو كفران النعمة. وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندا وعسكرا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه.

فمن لم يكن له جند ولا عسكر، وله عدو. فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر. والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله - وهو

إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه. فكلما ازداد أذى وشرا وبغيا وحسدا ازدادت إليه إحسانا، وله

نصيحة، وعليه شفقة. وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلا عن أن تتعاطاه.

فاسمع الآن قوله عز وجل: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ

حَمِيمٌ

وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}

وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا، وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ. وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وتأمل حال النبي ﷺ إذ ضربه قومه حتى أدموه. فجعل يسלט الدم عنه،

ويقول «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»

كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه؟

أحدها: عفوهم عنهم. والثاني: استغفاره لهم. والثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. والرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه.

فقال «اغفر لقومي»

كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به. هذا ولدي: هذا غلامي. هذا صاحبي، فهبه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس، ويطيبه إليها وينعمها به.

اعلم أن لك ذنوبا بينك وبين الله، تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر

على مجرد العفو والمسامحة، حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله. فإذا كنت

ترجو هذا من ربك، وتحب أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم؟ ليعاملك الله

تلك المعاملة. فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقدك يفعل الله معك في ذنوبك

وإساءتك، جزاء وفاقا. فانتقم بعد ذلك، أو اعف، وأحسن أو اترك. فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل

معك.

فمن تصور هذا المعنى، وشغل به فكره. هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه.

وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة. كما

قال النبي ﷺ للذي شكاه إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم، وهم يسيئون إليه.

فقال «لا يزال معك من الله ظهير، ما دمت على ذلك».

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه. فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير،

وهو مسيء إليه.

وجد قلبه وداءه وهمته مع الحسن على المسيء. وذلك أمر فطري، فطر الله عليه عباده. فهو بهذا الإحسان، قد استخدم

عسكرا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعا ولا خبزا.

هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه، فيستعبده وينقاد له، ويذل له، ويبقى الناس إليه. وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره، إن أقام على إساءته إليه. فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة. والله هو الموفق والمعين. بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه.

وفي الجملة: ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة. سنذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها، وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه. فهو الذي يحسن عبده بها.

وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه. قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما

«واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك».

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه. وخرج من قلبه اهتمامه به، واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلا، واشتغالا به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمنا بالله فالله يدافع عنه ولا بد. وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه.

فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج، مزج له. وإن كان مرة الله عليه جملة. ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء. ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه. ولا يرجو إلا إياه. ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه: وكل إليه وخذل من جهته، فمن خاف شيئا غير الله سلط عليه. ومن رجا شيئا سوى الله خذل من جهته وحرّم خيره. هذه سنة الله في خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلا.

* (فصل)

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة المهمة التي لا غنى للعبد عنها في دينه ودنياه، ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والتثقب في العقد. وقد افترق العالم في هذا المقام أربع فرق.

فرقة: أنكرت تأثير هذا وهذا. وهم فرقتان.

فرقة: اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن، وأنكرت تأثيرهما ألبتة.

وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات.

وفرقة أنكرت وجودهما بالكلية. وقالت: لا وجود لنفس الآدمي سوى هذا الهيكل المحسوس، وصفاته وأعراضه فقط. ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به. وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام. وهو قول شاذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة.

الفرقة الثانية: أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن، وأقرت بوجود الجن والشياطين، وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

الفرقة الثالثة: بالعكس، أقرت وجود النفس الناطقة المفارقة البدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين. وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها. وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم.

وهؤلاء يقولون إن ما يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة فهو من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها، بغير واسطة شيطان منفصل، وابن سينا وأتباعه على هذا القول، حتى إنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب.

ويقولون إنما هي من تأثيرات النفس في هيولى العالم.

وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل. ليسوا من أتباع الرسل جملة.

الفرقة الرابعة: وهم أتباع الرسل، وأهل الحق: أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأقروا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا ما أثبتته الله تعالى من صفاتهما، وشرهما، واستعاذوا بالله منه. وعلموا أنه لا يعيذهن منه، ولا يجيرهم إلا الله. فهؤلاء أهل الحق. ومن عداهم مفرط في الباطل، أو معه باطل وحق. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق.

* [فصل: في هديه ﷺ في علاج المصاب بالعين]

روى مسلم في " صحيحه " عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين».

وَفِي " صَحِيحِهِ " أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «رَخَّصَ فِي الرُّقِيَةِ مِنَ الْحُمَةِ وَالْعَيْنِ وَالنَّمْلَةِ»
وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ».
وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ " عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ يُؤَمِّرُ الْعَائِنَ فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ».
وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ أَمَرَ أَنْ نَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ».
وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرْقِيِّ «أَنَّ
أَسْمَاءَ بِنْتَ عَمِيْسٍ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بَنِي جَعْفَرٍ تُصِيبُهُمُ الْعَيْنُ أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ؟ فَقَالَ: " نَعَمْ فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ
الْقَضَاءَ لَسَبَقْتُهُ الْعَيْنُ » قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
وَرَوَى مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ: «رَأَى عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ
يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُحَبَّاتٍ، قَالَ: فَلَبِطُ سَهْلٌ، فَاتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامِرًا فَتَغَيَّطَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: "
عَلَامٌ يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ إِلَّا بَرَكْتَ () اغْتَسَلَ لَهُ "، فَغَسَلَ لَهُ عَامِرٌ: وَجْهَهُ وَبَدَنَهُ، وَمِرْفَقَيْهِ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ،
وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهِ، فَرَاخَ مَعَ النَّاسِ» () .

١ - معناها: الدعاء بالبركة والزيادة والخير للشيء أو الشخص الذي تراه. والدعاء بالبركة لأجل الوقاية من العين .
قال الشيخ ابن عثيمين في فتاوى نور على الدرب : " الإصابة بالعين حقيقة دل عليها القرآن والسنة أما القرآن فإنه قد ذهب بعض
المفسرين إلى أن معنى قول الله تعالى {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بإبصارهم لما سمعوا الذكر} أن المراد بها العين وكذلك أيضاً قول الله
تعالى {ومن شر حاسد إذا حسد} ذهب كثير من أهل العلم أن المراد بها العين وأما السنة فقد ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم
حينما قال العين حق ولو سبق القدر شيء لسبقته العين فهذا نص صريح ثم إن الواقع يشهد لذلك أيضاً ولا حاجة إلى سرد الوقائع
المعلومة لنا في هذا المقام لكنها معلومة عند جميع الناس وخير وقاية لها بل الوقاية منها نوعان أحدهما وقاية دافعة والثاني وقاية رافعة أما
الوقاية الدافعة فهو أن الإنسان يستعمل الأوراد الواقية من العين وغيرها مثل آية الكرسي حيث قال الرسول عليه الصلاة والسلام فيها
من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح ومثل ألا يظهر لمن أتهم بالعين بمظهر يُخشى منه أن يثير هذا
العائن وأما الأسباب الرافعة نعم الأسباب الرافعة فمنها أن يؤمر العائن بالاعتسال ويأخذ ما تنثر من أعضاء أو بالوضوء ويؤخذ ما تنثر
من أعضائه فيُصب على رأس المصاب وعلى ظهره ويشرب منه وحينئذ تزول العين بإذن الله تبارك الله تعالى.
.. وينبغي قبل أن نختم الجواب ينبغي لمن عرف من نفسه أنه عائن ينبغي أن يكثر التبريك إذا رأى ما يسره فيقول إذا رأى ما يسره تبارك
الله ما شاء الله وما أشبه هذا لأن ذلك من أسباب الوقاية."

وقال أيضاً: " إذا رأى الإنسان ما يعجبه في ماله فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله كما في قصة صاحب الجنيتين حين قال له صاحبه {ولولا
إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله} هذا إذا رأى الشيء في ماله إن رآه في غيره فليقل بارك الله عليه أو كلمة نحوها وإذا
رأى ما يعجبه من أمور الدنيا فليقل لبيك إن العيش عيش الآخرة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيقول لبيك أي إجابة لك ثم

يقول إن العيش عيش الآخرة من أجل أن يوطن نفسه على أن الدنيا مهما كانت فهي زائلة ولا عيش فيها وإنما العيش حقيقة في الآخرة".

وقوله { ما شاء الله لا قوة إلا بالله } معناها: اعتراف بأن كل نعمة أو ملك أو ولد هو بمشيئة الله وحده، ولا حول ولا قوة لأحد إلا به حتى لا يدخله العجب الذي هو سبب العين ("فَقُولُ: مَا شَاءَ اللَّهُ . تَقْدِيرُهُ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ، فَلَا يَأْمَنُ ؛ بَلْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ) وهذا الدعاء هو خلاف ما تدعو له النفس من الترفع والتكبر وما الدعاء بالبركة فهو خلاف مقتضى العين والحسد فان مقتضاهم زوال النعمة والدعاء بالبركة يثبت النعمة بل يزيدها.

وقال ابن القيم في الوابل الصيب: " الفصل الحادي والعشرون في الذكر الذي تحفظ به النعم وما يقال عند تجردها قال الله سبحانه وتعالى في قصة الرجلين { ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله } فينبغي لمن دخل بستانه أو داره أو رأى في ماله وأهله ما يعجبه أن يبادر إلى هذه الكلمة فإنه لا يرى فيه سوءا وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ومال وولد فقال { ما شاء الله لا قوة إلا بالله } فيرى فيه آفة دون الموت] وعنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رأى ما يسره قال [الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا رأى ما يسوءه قال الحمد لله على كل حال] ."

وقال أيضا: " الفصل السابع والخمسون في الشيء يراه ويعجبه ويخاف عليه العين

قال الله سبحانه وتعالى : { ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله }

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين] حديث صحيح ويذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [إذا رأى أحدكم ما يعجبه في نفسه أو ماله فليترك عليه فإن العين حق] ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال [من رأى شيئا فأعجبه فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله]

ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم فيمن خاف أن يصيب شيئا بعينه قال [اللهم بارك لنا فيه ولا تضره] وقال أبو سعيد : [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما] قال الترمذي حديث حسن ورواه ابن ماجه في سننه"

١ - قال ابن تيمية: " والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا القليل من الناس ولهذا يقال ما خلا جسد من حسد لكن اللئيم يبيده والكريم يخفيه وقد قيل للحسن البصري الحسد المؤمن فقال ما أنساك أخوة يوسف لا أبا لك ولكن عمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولسانا فمن وجد في نفسه حسدا لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر فيكره ذلك من نفسه وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود فلا يعينون من ظلمه ولكنهم أيضا لا يقومون بما يجب من حقه بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرطون في ذلك لا معتدون عليه وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون أيضا في مواضع ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود وأما من اعتدى بقول أو فعل فذلك يعاقب ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين نفعه الله بتقواه كما جرى لزَيْنَب بنت جحش رضي الله عنها فإنما كانت هي التي تسامى عائشة من أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزواج واحد فإن المرأة تغار على زوجها لحظها منه فإنه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها وهكذا الحسد يقع كثيرا بين المتشاركين في رئاسة أو مال إذا أخذ بعضهم قسطا من ذلك وفات الآخر ويكون بين النظراء لكرهة أحدهم أن يفضل الآخر

عليه كحسد إخوة يوسف وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه فإنه حسده لكون أن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا فحسده على ما فضله الله من الإيمان والتقوى كحسد اليهود للمسلمين وقتله على ذلك ولهذا قيل أول ذنب عصى الله به ثلاثة الحرص والكبر والحسد فالحرص من آدم والكبر من إبليس والحسد من قابيل حيث قتل هابيل وفي الحديث ثلاث لا ينجو منهن أحد الحسد والظن والطيرة وسأحدثكم بما يخرج من ذلك إذا حسدت فلا تبغض وإذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفي السنن عن النبي (صلى الله عليه وسلم) دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء وهي الخالقة لا أقول تخلق الشعر ولكن تخلق الدين فسماء داء كما سمي البخل داء في قوله وأي داء أودأ من البخل فعلم أن هذا مرض وقد جاء في حديث آخر أعوذ بك من منكرات الخلاق والأهواء والأدواء فعطف الأدواء على الاخلاق والأهواء فإن الخلق ما صار عادة للنفس وسجية قال تعالى القلم وإنك لعلی خلق عظیم قال ابن عباس وابن عيينة وأحمد ابن حنبل رضي الله عنهم على دين عظيم وفي لفظ عن ابن عباس على دين الإسلام وكذلك قالت عائشة رضي الله عنها كان خلقه القرآن وكذلك قال الحسن البصري ادب القرآن هو الخلق العظيم وأما الهوى فقد يكون عارضا والداء هو المرض وهو تألم القلب والفساد فيه وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء لأن الحاسد يكره أولا فضل الله على ذلك الغير ثم ينتقل إلى بغضه فإن بغض اللازم يقتضي بغض الملزوم فإن نعمة الله إذا كانت لازمة وهو يجب زوالها وهي لا تزول إلا بزواله أبغضه واحب عدمه والحسد يوجب البغي كما أخبر الله تعالى عمن قبلنا آل عمران أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فلم يكن اختلافهم لعدم العلم بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض كما يبغى الحاسد على المحسود وفي الصحيحين عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصعد هذا ويصعد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام وقد قال (صلى الله عليه وسلم) في الحديث المتفق على صحته من رواية أنس أيضا والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وقد قال تعالى النساء وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما فهؤلاء المبطنون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بما بل أحبوا أن يكون لهم منها حظ فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم أو شر دنيوي ينصرف عنهم إذ كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم وأحبوا ما وصل إليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوؤه ما يسوء المؤمنين فليس منهم ففي الصحيحين عن عامر الشعبي قال سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه و الشح مرض و البخل مرض والحسد شر من البخل كما في الحديث الذي رواه أبو داود عن النبي (صلى الله عليه وسلم) انه قال الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار وذلك أن البخيل يمنع نفسه والحسود يكره نعمة الله على عباده وقد يكون في الرجل إعطاء لمن يعينه على أغراضه وحسد لنظرائه وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره والشح أصل ذلك قال تعالى الحشر و التغابن ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وفي الصحيحين عن النبي (صلى الله عليه وسلم) انه قال إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء في طوافه يقول اللهم قني شح

وَرَوَى مَالِكٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَيْضًا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ، عَنْ أَبِيهِ هَذَا الْحَدِيثَ وَقَالَ فِيهِ: " «إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ تَوَضُّأً لَهُ» فَتَوَضَّأَ لَهُ ».

وَذَكَرَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ ابْنِ طَاوُوسٍ، عَنْ أَبِيهِ مَرْفُوعًا: «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ، لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ» وَوَصَلَّهُ صَحِيحٌ.

قَالَ الرَّهْرِيُّ: يُؤْمَرُ الرَّجُلُ الْعَائِنُ بِقَدْحٍ، فَيُدْخِلُ كَفَّهُ فِيهِ، فَيَتَمَضَّمُ، ثُمَّ يُجْهَهُ فِي الْقَدْحِ، وَيَغْسِلُ وَجْهَهُ فِي الْقَدْحِ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ الْيُسْرَى فَيَصُبُّ عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُسْرَى، ثُمَّ يَغْسِلُ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَلَا يُوضَعُ الْقَدْحُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَى رَأْسِ الرَّجُلِ الَّذِي تُصِيبُهُ الْعَيْنُ مِنْ خَلْفِهِ صَبَّةً وَاحِدَةً. وَالْعَيْنُ عَيْنَانِ عَيْنٌ إِنْسِيَّةٌ، وَعَيْنٌ جَنِّيَّةٌ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةً، فَقَالَ: «اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ».

قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ الْفَرَّاءُ: وَقَوْلُهُ " سَفْعَةٌ " أَيُّ نَظْرَةٌ يَعْنِي: مِنَ الْجِنِّ، يَقُولُ بِهَا عَيْنٌ أَصَابَتْهَا مِنْ نَظَرِ الْجِنِّ أَنْفَذَ مِنْ أَسِنَّةِ الرِّمَاحِ.

وَيُذَكِّرُ عَنْ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقَدَرَ».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ، وَمِنْ عَيْنِ الْإِنْسَانِ».

فَأَبْطَلَتْ طَائِفَةٌ مِمَّنْ قَلَّ نَصِيْبُهُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالْعَقْلِ أَمْرَ الْعَيْنِ، وَقَالُوا: إِنَّمَا ذَلِكَ أَوْهَامٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ، وَمَنْ أَغْلَظَهُمْ حِجَابًا، وَأَكْثَفَهُمْ طِبَاعًا، وَأَبْعَدَهُمْ مَعْرِفَةً عَنِ الْأَرْوَاحِ وَالنُّفُوسِ. وَصِفَاتُهَا وَأَفْعَالُهَا وَتَأْثِيرَاتُهَا، وَعُقْلَاءُ الْأُمَمِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنَحْلِهِمْ لَا تَدْفَعُ أَمْرَ الْعَيْنِ، وَلَا تُنْكِرُهُ، وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ وَجْهِ تَأْثِيرِ الْعَيْنِ.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّ الْعَائِنَ إِذَا تَكَيَّفَتْ نَفْسُهُ بِالْكَفِيَّةِ الرَّدِيئَةِ انْبَعَثَ مِنْ عَيْنِهِ قُوَّةٌ سَمِيَّةٌ تَتَّصِلُ بِالْمَعِينِ، فَيَتَضَرَّرُ. قَالُوا: وَلَا يُسْتَنْكَرُ هَذَا، كَمَا لَا يُسْتَنْكَرُ انْبِعَاثُ قُوَّةٍ سَمِيَّةٍ مِنَ الْأَفْعَى تَتَّصِلُ بِالْإِنْسَانِ، فَيَهْلِكُ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ اشتهَرَ عَنْ نَوْعٍ مِنَ الْأَفَاعِي أَنَّهَا إِذَا وَقَعَ بَصَرُهَا عَلَى الْإِنْسَانِ هَلَكَ، فَكَذَلِكَ الْعَائِنُ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: لَا يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَنْبَعَثَ مِنْ عَيْنِ بَعْضِ النَّاسِ جَوَاهِرٌ لَطِيفَةٌ غَيْرُ مَرِيَّةٍ، فَتَتَّصِلُ بِالْمَعِينِ، وَتَتَخَلَّلُ مَسَامَ جَسْمِهِ، فَيَخْصُلُ لَهُ الضَّرَرُ.

نَفْسِي فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مَا أَكْثَرَ مَا تَدْعُو بِهَذَا فَقَالَ إِذَا وَقِيتَ شَحَّ نَفْسِي وَقِيتَ الشَّحَّ وَالظُّلْمَ وَالْقَطِيعَةَ وَالْحَسَدَ يَوْجِبُ الظُّلْمَ فَصَلِّ فَالْبِخْلَ وَالْحَسَدَ مَرَضٌ يَوْجِبُ بَغْضَ النَّفْسِ لِمَا يَنْفَعُهَا بَلْ وَحِبُّهَا لِمَا يَضُرُّهَا وَلِهَذَا يَقْرُنُ الْحَسَدَ بِالْحَقْدِ وَالْغَضَبِ". (امراض القلوب)

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: قَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ بِخَلْقِ مَا يَشَاءُ مِنَ الضَّرَرِ عِنْدَ مُقَابَلَةِ عَيْنِ الْعَائِنِ لِمَنْ يَعِينُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ قُوَّةٌ، وَلَا سَبَبٌ، وَلَا تَأْثِيرٌ أَصْلًا، وَهَذَا مَذْهَبُ مُنْكَرِي الْأَسْبَابِ وَالْقُوَى وَالتَّأْثِيرَاتِ فِي الْعَالَمِ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَابَ الْعِلَلِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، وَالْأَسْبَابِ وَخَالَفُوا الْعُقَلَاءَ أَجْمَعِينَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فِي الْأَجْسَامِ وَالْأَرْوَاحِ قُوَى وَطَبَائِعَ مُخْتَلِفَةً، وَجَعَلَ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا خَوَاصَّ وَكَيْفِيَّاتٍ مُؤَثِّرَةً وَلَا يُمكنُ لِعَاقِلٍ إنْكَارُ تَأْثِيرِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَامِ، فَإِنَّهُ أَمَرَ مُشَاهِدًا مُحْسُوسًا.

وَأَنْتَ تَرَى الْوَجْهَ كَيْفَ يَحْمُرُ حُمْرَةً شَدِيدَةً، إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ مِنْ يَحْتَشِمُهُ وَيَسْتَحْيِي مِنْهُ، وَيَصْفُرُ صُفْرَةً شَدِيدَةً عِنْدَ نَظَرٍ مَنْ يَخَافُهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ شَاهَدَ النَّاسُ مَنْ يَسْقَمُ مِنَ النَّظَرِ وَتَضَعُفُ قُوَاهُ، وَهَذَا كُلُّهُ بِوَاسِطَةِ تَأْثِيرِ الْأَرْوَاحِ، وَلِشِدَّةِ ارْتِبَاطِهَا بِالْعَيْنِ يُنْسَبُ الْفِعْلُ إِلَيْهَا، وَلَيْسَتْ هِيَ الْفَاعِلَةُ، وَإِنَّمَا التَّأْثِيرُ لِلرُّوحِ، وَالْأَرْوَاحُ مُخْتَلِفَةٌ فِي طَبَائِعِهَا وَقُوَاهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَخَوَاصِّهَا، فَارْوُحُ الْحَاسِدِ مُؤَذِيَةٌ لِلْمَحْسُودِ أَدَى بَيِّنًا.

وَهَذَا أَمَرَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - رَسُولَهُ أَنْ يَسْتَعِيدَ بِهِ مِنْ شَرِّهِ، وَتَأْثِيرِ الْحَاسِدِ فِي أَدَى الْمَحْسُودِ أَمْرٌ لَا يُنْكَرُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ خَارِجٌ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهُوَ أَصْلُ الْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ، فَإِنَّ النَّفْسَ الْحَيَّةَةَ الْحَاسِدَةَ تَنْكِيفُ بِكَيْفِيَّةٍ حَيَّةَةٍ، وَتُقَابِلُ الْمَحْسُودَ فَتُؤَثِّرُ فِيهِ بِتِلْكَ الْخَاصِيَّةِ، وَأَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِهَذَا الْأَفْعَى، فَإِنَّ السُّمَّ كَامِنٌ فِيهَا بِالْقُوَّةِ، فَإِذَا قَابَلَتْ عَدُوَّهَا انْبَعَثَتْ مِنْهَا قُوَّةٌ غَضَبِيَّةٌ، وَتَكَيْفَتْ بِكَيْفِيَّةٍ حَيَّةَةٍ مُؤَذِيَةٍ.

فَمِنْهَا: مَا تَشْتَدُّ كَيْفِيَّتُهَا وَتَقْوَى حَتَّى تُؤَثِّرَ فِي إسْقَاطِ الْجَنِينِ.

وَمِنْهَا: مَا تُؤَثِّرُ فِي طَمَسِ الْبَصَرِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْأَبْتَرِ وَذِي الطُّفَيْتَيْنِ مِنَ الْحَيَّاتِ: «إِنَّهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ، وَيُسْقِطَانِ الْحَبْلَ».

وَمِنْهَا: مَا تُؤَثِّرُ فِي الْإِنْسَانِ كَيْفِيَّتُهَا بِمُجَرَّدِ الرُّؤْيَةِ مِنْ غَيْرِ اتِّصَالٍ بِهِ، لِشِدَّةِ حُبِّ تِلْكَ النَّفْسِ، وَكَيْفِيَّتِهَا الْحَيَّةَةِ الْمُؤَثِّرَةِ، وَالتَّأْثِيرُ غَيْرُ مَوْقُوفٍ عَلَى الْإِتِّصَالِ الْجَسْمِيَّةِ، كَمَا يَظُنُّهُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ وَمَعْرِفَتُهُ بِالطَّبِيعَةِ وَالشَّرِيعَةِ، بَلِ التَّأْثِيرُ يَكُونُ تَارَةً بِالْإِتِّصَالِ، وَتَارَةً بِالْمُقَابَلَةِ، وَتَارَةً بِالرُّؤْيَةِ، وَتَارَةً بِتَوَجُّهِ الرُّوحِ نَحْوَ مَنْ يُؤَثِّرُ فِيهِ، وَتَارَةً بِالْأَدْعِيَةِ، وَالرُّقَى، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَتَارَةً بِالْوَهْمِ وَالتَّخَيُّلِ، وَنَفْسُ الْعَائِنِ لَا يَتَوَقَّفُ تَأْثِيرُهَا عَلَى الرُّؤْيَةِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَعْمَى، فَيُوصَفُ لَهُ الشَّيْءُ فَتُؤَثِّرُ نَفْسُهُ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَرَهُ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْعَائِنِينَ يُؤَثِّرُ فِي الْمَعِينِ بِالْوَصْفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١].

وَقَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ - مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ - وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ - وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ - وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥].

فَكُلُّ عَائِنٍ حَاسِدٍ، وَلَيْسَ كُلُّ حَاسِدٍ عَائِنًا، فَلَمَّا كَانَ الْحَاسِدُ أَعْمَ مِنَ الْعَائِنِ، كَانَتْ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْهُ اسْتِعَاذَةً مِنَ الْعَائِنِ، وَهِيَ سَهَامٌ تَخْرُجُ مِنْ نَفْسِ الْحَاسِدِ وَالْعَائِنِ نَحْوَ الْمَحْسُودِ وَالْمَعِينِ تُصِيبُهُ تَارَةً، وَتُخْطِئُهُ تَارَةً، فَإِنْ صَادَقَتْهُ مَكْشُوفًا لَا وِقَايَةَ

عَلَيْهِ، أَثَرَتْ فِيهِ، وَلَا بُدَّ وَإِنْ صَادَقَتْهُ حَدِرًا شَاكِي السِّلَاحِ لَا مَنَفَذَ فِيهِ لِلْسِّهَامِ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ، وَرُبَّمَا رُدَّتِ السِّهَامُ عَلَى صَاحِبِهَا، وَهَذَا بِمِثَابَةِ الرَّمْيِ الْحِسِّيِّ سَوَاءً، فَهَذَا مِنَ الثُّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ وَذَاكَ مِنَ الْأَجْسَامِ وَالْأَشْبَاحِ. وَأَصْلُهُ مِنَ إعْجَابِ الْعَائِنِ بِالشَّيْءِ، ثُمَّ تَتَّبَعُهُ كَيْفِيَّةُ نَفْسِهِ الْحَبِيبَةِ، ثُمَّ تَسْتَعِينُ عَلَى تَنْفِيدِ سُمِّهَا بِنَظَرَةٍ إِلَى الْمَعِينِ، وَقَدْ يَعِينُ الرَّجُلُ نَفْسَهُ، وَقَدْ يَعِينُ بَعْضُ إِرَادَتِهِ، بَلْ يَطْبَعُهُ، وَهَذَا أَرَادَ مَا يَكُونُ مِنَ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ، وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ: إِنَّ مَنْ عُرِفَ بِذَلِكَ، حَبَسَهُ الْإِمَامُ، وَأَجْرَى لَهُ مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ إِلَى الْمَوْتِ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ قَطْعًا.

* [فصل: علاج المعيون بالتعوذات والرقى]

* فصل

والمقصود: العلاج النبوي لهذه العلة، وهو أنواع، وقد روى أبو داود في "سُنَنِهِ" عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ: «مَرَرْنَا بِسَيْلٍ، فَدَخَلْتُ، فَاجْتَسَلْتُ فِيهِ، فَخَرَجْتُ مَحْمُومًا، فَمَنِي ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "مُرُوا أَبَا ثَابِتٍ يَتَعَوَّذُ" قَالَ: فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي! وَالرَّقَى صَالِحَةٌ؟ فَقَالَ: لَا رُقِيَّةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ أَوْ حِمَةٍ أَوْ لَدَغَةٍ». وَالتَّفْسُ: الْعَيْنُ، يُقَالُ: أَصَابَتْ فَلَانًا نَفْسًا، أَيْ: عَيْنًا.

والتفيس: العائن. واللدغة - بدال مهملة وغين معجمة - وهي ضربة العقرب ونحوها.

فمن التعوذات والرقى الإكثار من قراءة المعوذتين، وفتحة الكتاب، وآية الكرسي، ومنها التعوذات النبوية.

نحو: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق».

ونحو: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة».

ونحو: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرا وبرا، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرا في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن».

ومنها: «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون».

ومنها: «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامات من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم، اللهم إنه لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك، سبحانك وبحمدك».

ومنها: «أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وأسماء الله الحسنى ما علمت منها، وما لم أعلم، من شر ما خلق، وذرا، وبرا، ومن شر كل ذي شر لا أطاق شره، ومن شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، إن ربي على صراط مستقيم».

ومنها: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا،

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وَأِنْ شَاءَ قَالَ: «تَخَصَّنْتُ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِلَهِي وَإِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ، وَاعْتَصَمْتُ بِرَبِّي وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَاسْتَدْفَعْتُ الشَّرَّ بِلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، حَسْبِيَ الرَّبُّ مِنَ الْعِبَادِ، حَسْبِيَ الْخَالِقُ مِنَ الْمَخْلُوقِ، حَسْبِيَ الرَّازِقُ مِنَ الْمَرْزُوقِ، حَسْبِيَ الَّذِي هُوَ حَسْبِي، حَسْبِيَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، حَسْبِيَ اللَّهُ وَكَفَى، سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ دَعَا، لَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ مَرْمَى، حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

وَمَنْ جَرَّبَ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ وَالْعُذُودَ؛ عَرَفَ مِقْدَارَ مَنَفَعَتِهَا، وَشِدَّةَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَهِيَ تَمْنَعُ وُصُولَ أَثَرِ الْعَائِنِ، وَتَدْفَعُهُ بَعْدَ وُصُولِهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ إِيْمَانِ قَائِلِهَا، وَقُوَّةِ نَفْسِهِ، وَاسْتِعْدَادِهِ، وَقُوَّةِ تَوَكُّلِهِ، وَثَبَاتِ قَلْبِهِ، فَإِنَّهَا سِلَاحٌ وَالسِّلَاحُ بِضَارِبِهِ.

* [فصل: مَا يَقُولُهُ الْعَائِنُ خَشْيَةً مِنْ ضَرَرٍ عَلَيْهِ]

* فصل

وَإِذَا كَانَ الْعَائِنُ يَخْشَى ضَرَرَ عَيْنِهِ وَإِصَابَتَهَا لِلْمَعِينِ، فَلْيَدْفَعْ شَرَّهَا بِقَوْلِهِ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، لَمَّا عَانَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ: " أَلَا بَرَكْتَ " أَيْ: قُلْتَ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ.

وَمَا يُدْفَعُ بِهِ إِصَابَةُ الْعَيْنِ قَوْلٌ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، رَوَى هِشَامُ بْنُ عُروَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا رَأَى شَيْئًا يُعْجِبُهُ، أَوْ دَخَلَ حَائِطًا مِنْ حَيْطَانِهِ، قَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَمِنْهَا: رُفِيعَةُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلنَّبِيِّ ﷺ الَّتِي رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي " صَحِيحِهِ "

«بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ».

وَرَأَى جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ أَنْ تُكْتَبَ لَهُ الْآيَاتُ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ يَشْرَبَهَا.

قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا بَأْسَ أَنْ يُكْتَبَ الْقُرْآنُ، وَيُغْسَلَهُ، وَيَسْقَىهُ الْمَرِيضُ، وَمِثْلُهُ عَنْ أَبِي قَالِبَةَ.

وَيُذَكَّرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ لِمَرْأَةٍ تَعَسَّرَ عَلَيْهَا وَلَاذُهَا أَثَرٌ مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ يُغْسَلُ وَتُسْقَى»

وَقَالَ أَيُّوبُ: «رَأَيْتُ أَبَا قَالِبَةَ كَتَبَ كِتَابًا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءٍ وَسَقَاهُ رَجُلًا كَانَ بِهِ وَجَعٌ».

* [فصل: اسْتِغْسَالُ الْعَائِنِ لِلْمَعِينِ وَالرُّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَهُ مِنَ الْأَطْبَاءِ]

* فصل

وَمِنْهَا: أَنْ يُؤَمَّرَ الْعَائِنُ بِغَسَلِ مَعَايِنِهِ وَأَطْرَافِهِ وَدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، وَفِيهِ قَوْلَانِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ فَرَجُهُ.

والتَّابِي: أَنَّهُ طَرَفُ إِزَارِهِ الدَّاحِلِ الَّذِي يَلِي جَسَدَهُ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَى رَأْسِ الْمَعِينِ مِنْ خَلْفِهِ بَغْتَةً، وَهَذَا مِمَّا لَا يَبَالُهُ عِلَاجُ الْأَطْبَاءِ ()، وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ أَنْكَرَهُ، أَوْ سَخَرَ مِنْهُ، أَوْ شَكَّ فِيهِ، أَوْ فَعَلَهُ مُجَرَّبًا لَا يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ. وَإِذَا كَانَ فِي الطَّبِيعَةِ خَوَاصُّ لَا تَعْرِفُ الْأَطْبَاءُ عِلَلَهَا أَلْبَتَّةَ، بَلْ هِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنْ قِيَاسِ الطَّبِيعَةِ تَفْعَلُ بِالْخَاصِيَّةِ، فَمَا الَّذِي يُنْكِرُهُ زَنَادِقَتُهُمْ وَجَهْلَتُهُمْ مِنَ الْخَوَاصِّ الشَّرْعِيَّةِ، هَذَا مَعَ أَنَّ فِي الْمُعَالَجَةِ بِهَذَا الْإِسْتِغْسَالِ مَا تَشْهَدُ لَهُ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ، وَتُقَرُّ لِمُنَاسَبَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ تَرْيَاقَ سُمِّ الْحَيَّةِ فِي لَحْمِهَا، وَأَنَّ عِلَاجَ تَأْثِيرِ النَّفْسِ الْغَضَبِيَّةِ فِي تَسْكِينِ غَضَبِهَا، وَإِطْفَاءُ نَارِهِ بِوَضْعِ يَدِكَ عَلَيْهِ، وَالْمَسْحُ عَلَيْهِ، وَتَسْكِينُ غَضَبِهِ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ، وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَقْذِفَكَ بِهَا، فَصَبَبَتْ عَلَيْهَا الْمَاءَ، وَهِيَ فِي يَدِهِ حَتَّى طَفِئَتْ، وَلِذَلِكَ أَمَرَ الْعَائِنُ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ»؛ لِيُدْفَعَ تِلْكَ الْكَيْفِيَّةُ الْحَبِيبَةُ بِالْإِدْعَاءِ الَّذِي هُوَ إِحْسَانٌ إِلَى الْمَعِينِ، فَإِنَّ دَوَاءَ الشَّيْءِ بِضِدِّهِ. وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْكَيْفِيَّةُ الْحَبِيبَةُ تَظْهَرُ فِي الْمَوَاضِعِ الرَّقِيقَةِ مِنَ الْجَسَدِ؛ لِأَنَّهَا تَطْلُبُ النُّفُودَ، فَلَا تَجِدُ أَرْقَ مِنَ الْمَغَابِنِ وَدَاخِلَةِ الْإِزَارِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ كِنَايَةً عَنِ الْفَرْجِ، فَإِذَا غُسِلَتْ بِالْمَاءِ، بَطَلَ تَأْثِيرُهَا وَعَمَلُهَا، وَأَيْضًا فَهَذِهِ الْمَوَاضِعُ لِلْأَرْوَاحِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِهَا اخْتِصَاصٌ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ غَسْلَهَا بِالْمَاءِ يُطْفِئُ تِلْكَ النَّارِيَّةَ، وَيَذْهَبُ بِتِلْكَ السُّمِّيَّةِ. وَفِيهِ أَمْرٌ آخَرٌ، وَهُوَ وُضُوءُ أَثَرِ الْغَسْلِ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَرْقِ الْمَوَاضِعِ وَأَسْرَعِهَا تَنْفِيذًا، فَيُطْفِئُ تِلْكَ النَّارِيَّةَ وَالسُّمِّيَّةَ بِالْمَاءِ، فَيُشْفَى الْمَعِينُ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ ذَوَاتِ السُّمُومِ إِذَا قُتِلَتْ بَعْدَ لَسْعِهَا، خَفَّ أَثَرُ اللَّسْعَةِ عَنِ الْمَلْسُوعِ، وَوَجَدَ رَاحَةً، فَإِنَّ أَنْفُسَهَا تَمُدُّ أَذَاهَا بَعْدَ لَسْعِهَا، وَتَوْصِلُهُ إِلَى الْمَلْسُوعِ. فَإِذَا قُتِلَتْ خَفَّ الْأَلَمُ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ. وَإِنْ كَانَ مِنْ أَسْبَابِهِ فَرْحُ الْمَلْسُوعِ، وَاشْتِفَاءُ نَفْسِهِ بِقَتْلِ عَدُوِّهِ، فَتَقْوَى الطَّبِيعَةُ عَلَى الْأَلَمِ فَتَدْفَعُهُ. وَبِالْجُمْلَةِ غَسْلُ الْعَائِنِ يَذْهَبُ تِلْكَ الْكَيْفِيَّةُ الَّتِي ظَهَرَتْ مِنْهُ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ غَسْلُهُ عِنْدَ تَكْيُفِ نَفْسِهِ بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ. فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ ظَهَرَتْ مُنَاسَبَةُ الْغَسْلِ فَمَا مُنَاسَبَةُ صَبِّ ذَلِكَ الْمَاءِ عَلَى الْمَعِينِ؟ قِيلَ هُوَ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَاءَ مَاءٌ طُفِيَ بِهِ تِلْكَ النَّارِيَّةُ، وَأَبْطَلَ تِلْكَ الْكَيْفِيَّةَ الرَّدِيَّةَ مِنَ الْفَاعِلِ، فَكَمَا طُفِئَتْ بِهِ النَّارِيَّةُ الْقَائِمَةُ بِالْفَاعِلِ طُفِئَتْ بِهِ، وَأُبْطِلَتْ عَنِ الْمَحَلِّ الْمَتَأَثِّرِ، بَعْدَ مُلَابَسَتِهِ لِلْمُؤَثِّرِ الْعَائِنِ، وَالْمَاءُ الَّذِي يُطْفَأُ بِهِ الْحَدِيدُ، يَدْخُلُ فِي أَدْوِيَةِ عِدَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ ذَكَرَهَا الْأَطْبَاءُ، فَهَذَا الَّذِي طُفِيَ بِهِ نَارِيَّةُ الْعَائِنِ، لَا يُسْتَنْكَرُ أَنْ يَدْخُلَ فِي دَوَاءٍ يُنَاسِبُ هَذَا الدَّاءَ. وَبِالْجُمْلَةِ: فَطَبُّ الطَّبَائِعِيَّةِ، وَعِلَاجُهُمْ بِالنَّسَبَةِ إِلَى الْعِلَاجِ النَّبَوِيِّ، كَطَبِّ الطَّرِيقَةِ بِالنَّسَبَةِ إِلَى طَبِّهِمْ، بَلْ أَقْلٌ، فَإِنَّ التَّفَاوُتَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ، وَأَعْظَمُ مِنَ التَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الطَّرِيقَةِ بِمَا لَا يُدْرِكُ الْإِنْسَانُ مِقْدَارَهُ، فَقَدْ ظَهَرَ لَكَ عَقْدُ الْإِخَاءِ الَّذِي بَيْنَ

١ - من اصعب الأشياء انك ترى مريضك ثم تذهب به الى الطبيب فلا يستطيع فعل شيء له وذلك في حال الغفلة عن الطب الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة كالاصابة بالسحر او العين .

الحِكْمَةُ وَالشَّرْعُ، وَعَدَمُ مُنَاقَصَةِ أَحَدِهِمَا لِلْآخَرِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الصَّوَابِ، وَيَفْتَحُ لِمَنْ أَدَامَ قَرَعَ بَابِ التَّوْفِيقِ مِنْهُ كُلَّ بَابٍ، وَلَهُ النِّعْمَةُ السَّابِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ.

* [فصل: لِلَاخْتِرَازِ مِنَ الْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ سِتْرٌ مُحَاسِنٌ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِ الْعَيْنُ]
* فَصْلٌ

وَمِنْ عِلَاجِ ذَلِكَ أَيْضًا وَالْإِخْتِرَازِ مِنْهُ سِتْرٌ مُحَاسِنٌ مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِ الْعَيْنُ بِمَا يَرُدُّهَا عَنْهُ، كَمَا ذَكَرَ الْبَغَوِيُّ فِي كِتَابِ " شَرْحِ السُّنَنِ " : أَنَّ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأَى صَبِيًّا مَلِيحًا فَقَالَ: «دَسِّمُوا نُونَتَهُ؛ لِقَلَّا تُصِيبُهُ الْعَيْنُ» ثُمَّ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ وَمَعْنَى: دَسِّمُوا نُونَتَهُ أَي: سَوِّدُوا نُونَتَهُ، وَالنُّونَةُ: الثُّقْرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي ذَقَنِ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ. وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي " غَرِيبِ الْحَدِيثِ " لَهُ عَنْ عِثْمَانَ: إِنَّهُ رَأَى صَبِيًّا تَأْخُذُهُ الْعَيْنُ فَقَالَ: «دَسِّمُوا نُونَتَهُ» فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: سَأَلْتُ أَحْمَدَ بْنَ يَحْيَى عَنْهُ فَقَالَ: أَرَادَ بِالنُّونَةِ الثُّقْرَةَ الَّتِي فِي ذَقْنِهِ. وَالتَّدْسِيمُ: التَّسْوِيدُ. أَرَادَ: سَوِّدُوا ذَلِكَ الْمَوْضِعَ مِنْ ذَقْنِهِ لِيَرُدَّ الْعَيْنُ. قَالَ: وَمِنْ هَذَا حَدِيثٌ عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ دَسْمَاءُ» أَي: سَوْدَاءُ. أَرَادَ الْإِسْتِشْهَادَ عَلَى اللَّفْظَةِ وَمِنْ هَذَا أَخَذَ الشَّاعِرُ قَوْلَهُ: مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى *** عَيْبٍ يُوقِيهِ مِنَ الْعَيْنِ

* [فصل: ذِكْرُ رُقِيَّةٍ تَرُدُّ الْعَيْنَ]
* فَصْلٌ

وَمِنْ الرُّقَى الَّتِي تَرُدُّ الْعَيْنَ مَا ذُكِرَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ السَّاجِي أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ لِلْحَجِّ أَوْ الْغَزْوِ عَلَى نَاقَةٍ فَارِهَةٍ، وَكَانَ فِي الرُّفْقَةِ رَجُلٌ عَائِنٌ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ إِلَّا أَتْلَفَهُ، فَقِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: اخْفِظْ نَاقَتَكَ مِنَ الْعَائِنِ، فَقَالَ: لَيْسَ لَهُ إِلَى نَاقَتِي سَبِيلٌ، فَأَخْبَرَ الْعَائِنُ بِقَوْلِهِ؛ فَتَحَيَّنَ غَبِيَّةً أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَجَاءَ إِلَى رَحْلِهِ، فَنَظَرَ إِلَى النَّاقَةِ فَاضْطَرَبَتْ، وَسَقَطَتْ؛ فَجَاءَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فَأَخْبَرَ أَنَّ الْعَائِنَ قَدْ عَاثَهَا وَهِيَ كَمَا تَرَى، فَقَالَ: دَلُونِي عَلَيْهِ فِدْلٌ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ حَبْسٌ حَابِسٌ، وَحَجَرٌ يَابِسٌ، وَشِهَابٌ قَابِسٌ، رَدَدْتُ عَيْنَ الْعَائِنِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ - ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] فَخَرَجَتْ حَدَقَتَا الْعَائِنِ، وَقَامَتِ النَّاقَةُ لَا بَأْسَ بِهَا.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيْمِ فِي زَادِ الْمَعَادِ: " فصل: فِي هَدْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعِلَاجِ الْعَامِ لِكُلِّ شَكْوَى بِالرُّقِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي "سُنَنِ": مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ اشْتَكَى مِنْكُمْ شَيْئًا، أَوْ اشْتَكَاهُ أَخٌ لَهُ فَلْيَقُلْ: رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا رَحِمْتُكَ فِي السَّمَاءِ،

فاجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا خُوبَنَا وخطايانا أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وشفاءً من شفائك على هذا

الْوَجَعِ، فَيَبْرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

وفي "صحيح مسلم" عن أبي سعيد الخدري، أَنَّ جبريلَ عليه السلام أتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا محمد ؛ أَشْتَكَيْتَ ؟ فقال: "نعم". فقال جبريلُ عليه السلام : "باسمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ، باسمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ".

فإن قيل: فما تقولون في الحديث الذي رواه أبو داود: "لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ"، والْحُمَةُ: ذوات السُّمُوم كلها ؟ فالجواب: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُرِدْ به نفى جواز الرُقِيَةِ في غيرها، بل المرادُ به: لا رُقِيَةَ أُولَى وَأَنْفَعُ مِنْهَا فِي الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ، ويدل عليه سياقُ الحديث، فَإِنَّ سهل ابن حنيف قال له لما أصابته العين: أَوْ فِي الرُّقَى خَيْر ؟ فقال: "لا رُقِيَةَ إِلَّا فِي نَفْسٍ

أَوْ حُمَةٍ" ويدل عليه سائرُ أحاديث الرُّقَى العامة والخاصة، وقد روى أبو داود من حديث أنس قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ، أَوْ دَمٍ يَرْقَأُ".

وفي "صحيح مسلم" عنه أيضاً: "رَخَّصَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الرُّقِيَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ وَالنَّمْلَةِ".

فصل: في هَدْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رُقِيَةِ اللَّدِيغِ بِالْفَاتِحَةِ

أخرجنا في "الصحيحين" من حديث أبي سعيد الخدري، قال: "انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرَةٍ سافروها حتى نزلوا على حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلَدَغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا لَعَلَّهُمْ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ. فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ ؛ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعِينَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ اسْتَضَفْنَاكُمْ، فَلَمْ تَضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعَلًا، فَصَاحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَاَنْطَلَقَ يَتَفَلَّ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فَكَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَاَنْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلْبَةٌ، قَالَ: فَأَوْقَوْهُمْ جُعَلَهُمُ الَّذِي صَاحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْتَسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَانْظَرُ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: "وَمَا يُدْرِيكَ أَهْمَا رُقِيَّةٌ" ؟، ثُمَّ قَالَ: "قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا".

وقد روى ابن ماجه في "سننه" من حديث علي قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُ الدَّوَاءِ الْقُرْآنُ".

ومن المعلوم أَنَّ بعض الكلام له خواصُّ ومنافعُ مُجَرَّبَةٌ، فَمَا الظَّنُّ بِكَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي فَضَّلَهُ عَلَى كُلِّ كَلَامٍ كَفَضَلَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ الَّذِي هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُ، وَالْعِصْمَةُ النَّافِعَةُ، وَالنُّورُ الْهَادِي، وَالرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ، الَّذِي لَوْ أَنْزَلَ عَلَى جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ

من عظمته وجلالته. قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: ٨٢]. و"من" ههنا لبيان الجنس لا للتبويض، هذا أصح القولين، كقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩] وكُلُّهُمْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فما الظنُّ بفاتحة الكتاب التي لم يُنزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلها، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب تعالى ومجامعها، وهي: الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وذكر الافتقار إلى الرب سبحانه في طلب الإعانة وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفرضه، وما العباد أحوج شيء إليه، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى منعم عليه بمعرفة الحق، والعمل به، ومحبته، وإيثاره، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له. وهؤلاء أقسام الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر، والشرع، والأسماء، والصفات، والمعاد، والنبوات، وتركيب النفوس، وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير "مدارج السالكين" في شرحها. وحقيق بسورة هذا بعض شأنها، أن يُستشفى بها من الأدواء، ويرقى بها اللدغ. وبالجملة.. فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية. وقد قيل: إن موضع الرقية منها: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٤]، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى الغايات، وهي عبادة الرب وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد مر بي وقت بمكة سقيمت فيه، وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربة من ماء زمزم، وأقرأها عليها مراراً، ثم أشر به، فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع.

فصل

وفي تأثير الرقي بالفاتحة وغيرها في علاج ذوات السموم سرٌ بديع، فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسها الحبيثة، كما تقدم، وسلاحها حُماتها التي تلدغ بها، وهي لا تلدغ حتى تغضب، فإذا غضبت، ثار فيها السم، فتقذفه بآلتها، وقد جعل الله سبحانه لكل داء دواء، ولكل شيء ضداً، ونفس الراقي تفعل في نفس المرقى، فيقع بين نفسيهما فعل وانفعال، كما يقع بين الداء والدواء، فتقوى نفس الراقي وقوته بالرقية على ذلك الداء، فيدفعه بإذن الله، ومدار تأثير الأدوية والأدواء على الفعل والانفعال، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين، يقع بين الداء والدواء الروحانيين، والروحاني، والطبيعي، وفي التفت والتقل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشر للرقية، والذكر والدعاء، فإن

الرُّقِيَّةُ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِ الرَّاقِي وَفَمِهِ، إِذَا صَاحِبَهَا شَيْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ بَاطِنِهِ مِنَ الرِّيقِ وَالْهَوَاءِ وَالنَّفْسِ، كَانَتْ أَمَّ تَأْثِيرًا، وَأَقْوَى فِعْلًا وَنَفُوذًا، وَيَحْصُلُ بِالْإِزْدَوَاجِ بَيْنَهُمَا كَيْفِيَّةٌ مُؤَثَّرَةٌ شَبِيهَةٌ بِالْكَفِيَّةِ الْحَادِثَةِ عِنْدَ تَرْكِيبِ الْأَدْوِيَّةِ.

وَبِالْجُمْلَةِ.. فَنَفْسُ الرَّاقِي تُقَابِلُ تِلْكَ النُّفُوسَ الْخَبِيثَةَ، وَتَزِيدُ بِكَفِيَّةِ نَفْسِهِ، وَتَسْتَعِينُ بِالرُّقِيَّةِ وَبِالنَّفْثِ عَلَى إِزَالَةِ ذَلِكَ الْأَثَرِ، وَكُلَّمَا كَانَتْ كَيْفِيَّةُ نَفْسِ الرَّاقِي أَقْوَى، كَانَتْ الرُّقِيَّةُ أَمَّ، وَاسْتَعَانَتْهُ بِنَفْثِهِ كَاسْتَعَانَةَ تِلْكَ النُّفُوسِ الرَّدِيئَةِ بِلِسْعِهَا.

وَفِي النَّفْثِ سِرٌّ آخَرٌ، فَإِنَّهُ مِمَّا تَسْتَعِينُ بِهِ الْأَرْوَاحُ الطَّيِّبَةُ وَالْخَبِيثَةُ، وَلِهَذَا تَفْعَلُهُ السَّحَرَةُ كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ. قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ شَرَّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ تَتَكَيَّفُ بِكَفِيَّةِ الْغَضَبِ وَالْحَارَةِ، وَتُرْسَلُ أَنْفَاسُهَا سِهَامًا لَهَا، وَتَمُدُّهَا بِالنَّفْثِ وَالتَّغْلُفِ الَّذِي مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الرِّيقِ مَصَاحِبٌ لِكَيْفِيَّةِ مُؤَثَّرَةٍ، وَالسَّوَاحِرُ تَسْتَعِينُ بِالنَّفْثِ اسْتِعَانَةً بَيِّنَةً، وَإِنْ لَمْ تَتَّصِلْ بِجِسْمِ الْمَسْحُورِ، بَلْ تَنْفُثُ عَلَى الْعُقْدَةِ وَتَعْقِدُهَا، وَتَتَكَلَّمُ بِالسَّحَرِ، فَيَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْمَسْحُورِ بِنُوسِ الْأَرْوَاحِ السُّفْلِيَّةِ الْخَبِيثَةِ، فَتَقَابِلُهَا الرُّوحُ الزَّكِيَّةُ الطَّيِّبَةُ بِكَفِيَّةِ الدَّفْعِ وَالتَّكَلُّمِ بِالرُّقِيَّةِ، وَتَسْتَعِينُ بِالنَّفْثِ، فَأَيُّهُمَا قَوَى كَانَ الْحُكْمُ لَهُ، وَمُقَابِلَةُ الْأَرْوَاحِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، وَمَحَارِبَتُهَا وَآلَتُهَا مِنْ جِنْسٍ مُقَابِلَةِ الْأَجْسَامِ، وَمَحَارِبَتُهَا وَآلَتُهَا سَوَاءً، بَلِ الْأَصْلُ فِي الْمَحَارِبَةِ وَالتَّقَابِلِ لِلْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ آلَتُهَا وَجَنْدُهَا، وَلَكِنْ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْحِسُّ لَا يَشْعُرُ بِتَأْثِيرَاتِ الْأَرْوَاحِ وَأَفْعَالِهَا وَانْفِعَالِهَا لِاسْتِيْلَاءِ سُلْطَانِ الْحِسِّ عَلَيْهِ، وَبُعْدِهِ مِنْ عَالَمِ الْأَرْوَاحِ، وَأَحْكَامِهَا، وَأَفْعَالِهَا.

وَالْمَقْصُودُ.. أَنَّ الرُّوحَ إِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً وَتَكَيَّفَتْ بِمَعَانِي الْفَاتِحَةِ، وَاسْتَعَانَتْ بِالنَّفْثِ وَالتَّغْلُفِ، قَابِلَتْ ذَلِكَ الْأَثَرَ الَّذِي حَصَلَ مِنَ النُّفُوسِ الْخَبِيثَةِ، فَأَزَالَتْهُ.. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ()

فصل: فِي هَدْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عِلَاجِ لَدَغَةِ الْعَقْرَبِ بِالرُّقِيَّةِ

رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي "مُسْنَدِهِ"، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي، إِذْ سَجَدَ فَلَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ فِي أُصْبَعِهِ، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: "لَعَنَ اللَّهُ الْعَقْرَبَ مَا تَدْعُ نَبِيًّا وَلَا غَيْرَهُ" ، قَالَ: ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ وَمِلْحٌ، فَجَعَلَ يَضَعُ مَوْضِعَ اللَّدَغَةِ فِي الْمَاءِ وَالْمِلْحِ، وَيَقْرَأُ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَالْمُعَوَّذَتَيْنِ} حَتَّى سَكَنَتْ.

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْعِلَاجُ بِالدَّوَاءِ الْمُرَكَّبِ مِنَ الْأَمْرَيْنِ: الطَّبِيعِيِّ وَالْإِلَهِيِّ، فَإِنَّ فِي سُورَةِ الْإِحْلَاصِ مِنْ كَمَالِ التَّوْحِيدِ الْعِلْمِيِّ الْإِعْتِقَادِيِّ، وَإِثْبَاتِ الْاِحْدِيَّةِ لِلَّهِ، الْمُسْتَلْزِمَةَ نَفْيِ كُلِّ شَرَكَةٍ عَنْهُ، وَإِثْبَاتِ الصَّمَدِيَّةِ الْمُسْتَلْزِمَةَ لِإِثْبَاتِ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ مَعَ كَوْنِ الْخَلَائِقِ تَصَمُّدًا إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِهَا، أَيْ: تَقْصِيدُهُ الْخَلِيقَةَ، وَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، غُلُوبُهَا وَسُفْلِيَّتُهَا، وَنَفْيِ الْوَالِدِ

١ - الرقية على مراتب اعلاها ان تكون الرقية مباشرة على المريض بنفث كما في حديث اللديغ.

يليه في المرتبة ان يقرأ وينفخ ويليهِ الرقية بغير نفخ. والقراءة بنية الرقية اعظم اثرا من القراءة بغير نية فان النية واليقين لهما اثر بالغ في الانتفاع بالرقية .

والولد، والكُفء عنه المتضمن لنفي الأصل، والفرع والنظير، والمماثل مما اختصت به وصارت تعدل ثلث القرآن، ففي اسمه "الصمد" إثبات كل الكمال، وفي نفي الكُفء التنزيه عن الشبيه والمثال. وفي "الأحد" نفي كل شريك لدى الجلال، وهذه الأصول الثلاثة هي مجامع التوحيد.

وفي المعوذتين الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً، فإن الاستعاذة من شر ما خلق تعم كل شر يستعاذ منه، سواء أكان في الأجسام أو الأرواح، والاستعاذة من شر الغاسق وهو الليل، وآيته وهو القمر إذا غاب، تتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نور النهار يحول بينها وبين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر، انتشرت وعاثت.

والاستعاذة من شر النفاثات في العقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر وسحرهن.

والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها.

والسورة الثانية: تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر، ولهما شأن عظيم في الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها، ولهذا أوصى النبي صلى الله عليه وسلم غيبة بن عامر بقراءة عقبة كل صلاة، ذكره الترمذ في "جامعه" وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة.

وقال: ما تعوذ المتعوذون بمثلها. وقد ذكر أنه صلى الله عليه وسلم سحر في إحدى عشرة عقدة، وأن جبريل نزل عليه بهما، فجعل كلما قرأ آية منهما انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، وكأنما أنشط من عقال.

وأما العلاج الطبيعي فيه، فإن في الملح نفعاً لكثير من السُموم، ولا سيما لدغة العقرب، قال صاحب "القانون": يُضمّد به مع بذر الكتان للسع العقرب، وذكره غيره أيضاً. وفي الملح من القوة الجاذبة المحللة ما يجذب السُموم ويحللها، ولما كان في لسعها قوة نارية تحتاج إلى تبريد وجذب وإخراج جمع بين الماء المبرد لنار اللسعة، والمِلح الذي فيه جذب وإخراج، وهذا أتم ما يكون من العلاج وأيسره وأسهله، وفيه تنبيه على أن علاج هذا الداء بالتبريد والجذب والإخراج.. والله أعلم.

وقد روى مسلم في "صحيحه" عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله؛ ما لقيت من عقربٍ لدغني البارحة فقال: "أما لو قلت حين أمسيّت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضرّك".

واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله، وتمنع من وقوعه، وإن وقع لم يقع وقوعاً مضرّاً، وإن كان مؤذياً، والأدوية الطبيعية إنما تنفع، بعد حصول الداء، فالتعوذات والأذكار، إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب، وإما أن تحوّل بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه، فالرقى والعوذ تُستعمل لحفظ الصحة، ولإزالة المرض،

أما الأول: فكما في "الصحيحين" من حديث عائشة كان رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أوى إلى فراشه نَفَثَ في كَفَّيْهِ: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} و

المُعَوَّذَتَيْنِ. ثم يمسحُ بهما وجهه، وما بلغت يده من جسده".

وكما في حديث عُذَّة أبي الدرداء المرفوع: "اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ"، وقد تقدّم وفيه: "مَنْ قَالَهَا أَوَّلَ نَهَارِهِ لَمْ تُصِبهْ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُمَسِيَ، وَمَنْ قَالَهَا آخِرَ نَهَارِهِ لَمْ تُصِبهْ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُصْبِحَ".

وكما في "الصحيحين": "مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفَّاهُ".

وكما في "صحيح مسلم" عن النبی صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّمَانَةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ".

وكما في "سنن أبي داود" أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي السَّفَرِ يَقُولُ بِاللَّيْلِ: "يَا أَرْضُ؛ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ وَشَرِّ مَا فِيكَ، وَشَرِّ مَا يَدْبُ عَلَيْكَ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ، وَمِنْ حَيَّةٍ وَالْعَقْرَبِ، وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ".

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد:

في أنواع الشرور المستعاض منها في هاتين السورتين.

الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها. فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه. ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها. وهو أعظم الشرين وأدومهما، وأشدّهما اتصالاً بصاحبه.

وإما شر واقع به من غيره. وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره، وهو الإنسان، أو ليس نظيره، وهو الجنى. وغير المكلف: مثل الهوام وذوات الحمة «الكائنات التي تمتلك سُمًّا أو ابرة تلسع او تلدغ بها» وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه، وأدله على المراد، وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاض منه فيهما.

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة.

أحدها: شر المخلوقات التي لها شر عموماً.

الثاني: شر الغاسق إذا وقب.

الثالث: شر النفاثات في العقد.

الرابع شر الحاسد إذا حسد.

فتتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد، والتحرز منها قبل وقوعها، وبماذا تدفع بعد وقوعها؟

وقبل الكلام في ذلك لا بد من بيان الشر: ما هو؟ وما حقيقته؟

فنقول: الشر. يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه.

وليس له مسمى سوى ذلك. فالشرور: هي الآلام وأسبابها. فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم: هي شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة، لكنها شرور. لأنها أسباب للآلام، ومفضية إليها، كإفشاء سائر الأسباب إلى مسبباتها. فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة، وعلى الذبح والإحراق بالنار، والخنق بالحبل، وغير ذلك من الأسباب التي تكون مفضية إلى مسبباتها، ولا بد، ما لم يمنع من السبية مانع، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه وأشد اقتضاء لصدده، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان، وعظم الحسنات الماحية وكثرتها. فيزيد في كميتها أو كيفيتها على أسباب العذاب. فيدفع الأقوى الأضعف.

وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة، كأسباب الصحة والمرض، وأسباب الضعف والقوة.

والمقصود: أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما هي شر، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة. وهي بمنزلة طعام لذيد شهوي لكنه مسموم، إذا تناوله الأكل لَدَّ لأكله وطاب له مساعه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل. فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة والخاصة والعامة من أكبر شهوده.

وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردَّ لَهُ وما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه: إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله.

وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه. وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها *** فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته. ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره. ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه. فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس. ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

والمقصود: أن هذه الأسباب شرور ولا بد.

وأما كون مسبباتها شرورا: فلأنها آلام نفسية وبدنية. فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات. ولو تفتن العاقل اللبيب لهذا حق التفتن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب. ولكن

قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمرا كان مفعولا. فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا، حسرات على ما فاتته من حظه العاجل والآجل من الله. وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم، والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول:

﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ و ﴿يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾.

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها، كانت استعدادات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين. فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع. وأمر بالاستعاذة منهن وهي: «عذاب القبر، وعذاب النار» فهذان أعظم المؤلمات «وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال» وهذان سبب العذاب المؤلم. فالفتنة سبب العذاب. وذكر الفتنة خصوصا. وذكر نوعي الفتنة.

لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت. ففتنة الحياة: قد يتراخى عنها العذاب مدة، وأما فتنة بعد الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ.

فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابها.

وهذا من أكد أدعية الصلاة، حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير. وأوجبه ابن حزم في كل تشهد. فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته.

ومن ذلك

قوله ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال»

فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان.

فالهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها. والفرق بينهما: أن الهم توقع الشر في المستقبل. والحزن: هو التألم على حصول المكروه في الماضي، أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح. فإن تعلق بالماضي سمي حزنا. وإن تعلق بالمستقبل سمي همًا.

والعجز والكسل قرينان، وهما من أسباب الألم. لأنهما يستلزمان فوات المحبوب. فالعجز يستلزم عدم القدرة. والكسل يستلزم عدم إرادته.

فتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به، والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان. لأنهما عدم النفع بالمال والبدن. وهما من أسباب الألم. لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة، لا تنال إلا بالبذل والشجاعة. والبخل يحول بينه وبينها. فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام.

وضلع الدين، وقهر الرجال: قرينان. وهما مؤلمان للنفس معذبان لها. أحدهما: قهر بحق، وهو ضلع الدين. والثاني: قهر بباطل، وهو غلبة الرجال.

وأيضاً: فضلع الدين. قهر بسبب من العبد في الغالب. وغلبة الرجال قهر بغير اختياره. ومن ذلك تعوده ﷺ «من المأثم والمغرم» فإنهما يسببان الألم العاجل. ومن ذلك

قوله: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك» فالسخط: سبب الألم، والعقوبة: هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها. * (فصل)

والشر المستعاذ منه نوعان.

أحدهما: موجود، يطلب رفعه. والثاني: معدوم، يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد. كما أن الخير المطلق نوعان. أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله. فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين. وعليها مدار طلباتهم. وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ. فَأَمَنَّا، رَبَّنَا فَاعْفُ رُبَّنَا ذُنُوبَنَا، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا فهذا الطلب لدفع الشر الموجود. فإن الذنوب والسيئات شر، كما تقدم بيانه. ثم قال:

وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه. فهذان قسمان.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه.

ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة.

فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا، وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت.

ثم أتبعاً بالنوعين اللذين في الآخرة، وهما أن يعطوا ما وعدوه على السنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة. فإذا عرف هذا.

فقوله ﷺ في تشهد الخطبة «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا»

يتناول الاستعاذة من شر النفس، الذي هو معدوم لكنه فيها بالقوة. فيسأل دفعه وأن لا يوجد.

وأما قوله: «من سيئات أعمالنا» ففيه قولان.

أحدهما: أنه استعانة من الأعمال السيئة التي قد وجدت. فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعانة من الشر المعدوم الذي لم يوجد، ومن الشر الموجود. فطلب دفع الأول ورفع الثاني.

والقول الثاني: أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها. وعلى هذا يكون من استعانة الدفع أيضا دفع المسبب.

والأول دفع السبب. فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه.

وعلى الأول: تكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه. فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها.

وعلى الأول: تكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه. فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها.

وعلى الثاني: تكون من باب إضافة المسبب إلى سببه، والمعلول إلى علته. كأنه قال: من عقوبة عملي. والقولان محتملان. فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به. فإن مع كل واحد منهما نوعا من الترجيح. فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس. فشر النفس يولد الأعمال السيئة، فاستعاذ من صفة النفس، ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة. وهذان جماع الشر، وأسباب كل ألم. فمتى عوفي منهما عوفي من الشر بحذافيره.

ويترجح الثاني: بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها شر النفس، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها.

والقولان في الحقيقة متلازمان. والاستعانة من أحدهما تستلزم الاستعانة من الآخر.

* (فصل)

ولما كان الشر له سبب: هو مصدره، وله مورد ومنتهى. وكان السبب إما من ذات العبد، وإما من خارج. ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره: كان هنا أربعة أمور: شر مصدره من نفسه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى. وشر مصدره من غيره، وهو السبب فيه. ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى -

جمع النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق رضي الله عنه: أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه «اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن اقترب على نفسي سوءا، أو أجره إلى مسلم»

فذكر مصدر الشر، وهما النفس والشيطان وذكر مورديه ونهايته وهما عوده على النفس، أو على أخيه المسلم. فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ وأحضره وأجمعه وأبينه.

* (فصل)

فإذا عرف هذا فلتتكلم على الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين.

الشر الأول: العام في قوله من شرِّ ما خَلَقَ و «ما» هاهنا موصولة ليس إلا. والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما. فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى. فإن ذاته لها الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة، لا شر فيها أصلا، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه منه حكم، تعالى ربنا وتقديس عن ذلك.

وما يفعله من العدل بعباده، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم: هو خير محض إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم. فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى. ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر.

ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال.

أحدهما: أن ما هو شر، أو متضمن للشر، فإنه لا يكون إلا مفعولا منفصلا لا يكون وصفا له، ولا فعلا من أفعاله. الثاني: أن كونه شرا هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه. فله وجهان، هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقا وتكويناً ومشية، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها، وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادئ معرفتها، فضلا عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان الجمل بأن الله سبحانه هو الغني الحميد، وفاعل الشر لا يفعله إلا لحاجته المنافية لغناه، أو لنقصه وعييه المنافي لحمده. فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد فعلا. وإن كان هو الخالق للخير والشر.

فقد عرفت أن كونه شرا هو أمر إضافي، وهو في نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه. فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك بابا عظيما من معرفة الرب ومحبته. ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء.

وقد بسطت هذا في كتاب «التحفة المكية» وكتاب «الفتح القدسي» وغيرهما.

وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة.

أحدهما: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمرا وحكما، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموما بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضّر بهم. فهو محمود على حكمه بذلك، وأمره به مشكور عليه يستحق عليه الحمد من عباده، والثناء عليه والحبّة له.

وكذلك الحكم بقتل من يصلون عليهم في دمائهم وحرماقتهم، وجلد من يصلون عليهم في أعراضهم. فإذا كان هذا عقوبة من يصلون عليهم في دنياهم فكيف عقوبة من يصلون على أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله وجعله سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟ أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض، وحكمة وعدل، وإحسان إلى العبيد؟ وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي.

فالشر: ما قام به من تلك العقوبة. وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة. فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبا العظيم. والسر الذي يطلعك على مسألة القدر ويفتح لك الطريق إلى الله، ومعرفة حكمته ورحمته، وإحسانه إلى خلقه، وأنه سبحانه: كما أنه البر الرحيم الودود المحسن، فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمته ورحمته. بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته.

ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابهم عن الله: إن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء، ولا فرق أصلا، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة.

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلا بالرد على هذه المقالة، وإنكارها أشد الإنكار، وتنزيه الرب نفسه عنها، بقوله تعالى: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ فأنكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيئ، ونزه نفسه عنه.

فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة: أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلهيته لا إله إلا هو، تعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا.

وقد فطر الله عقول عباده على استقبح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان، ومكافأة الصنع الجميل بمثلة وزيادة. فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار، واستهجنته أعظم الاستهجان. وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحرمتهم ودمائهم، فأكرمه غاية الإكرام، ورفعته وكرمه. فإن الفطر والعقول تأتي استحسان هذا، وتشهد على سفه من فعله. هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها.

فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة، وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها، وأحقها بالعقوبة؟ وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها، ولم تلق، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

نعمة الله لا تعاب، ولكن *** ربما استقبحت على أقوام

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصادين عن سبيله الساعين في خلاف مرضاته، الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطلون ما حكم به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره، والحكم لغيره، والطاعة لغيره. فهم مضادون له في كل ما يريد، يحبون ما يبغضه، ويدعون إليه. ويبغضون ما يحبه وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله: كما قال تعالى: ٢٥: ٥٥ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا وَقَالَ: ١٨: ٥٠ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ، فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ. أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، وهم لكم عدو؟

فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعقابا وجلالة وتهديدا كيف صدره باخبارنا: أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا فأبى ذلك، فطرده

ولعنه، وعاداه من أجل إباءه عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني.

وقد لعنته وطرده، إذ لم يسجد لأبيكم، وجعلته عدوا لكم ولأبيكم، فواليتموه وتركتموني. أفليس هذا من أعظم الغبن، وأشد الحسرة عليكم؟

ويوم القيامة يقول تعالى «أليس عدلا مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا؟».

فليعلمن أولياء الشيطان: كيف حالهم يوم القيامة: إذا ذهبوا مع أوليائهم، وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد فيتجلى لهم ويقول «ألا تذهبون حيث ذهب الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده. فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، إنه لا مثل له. فيتجلى لهم ويكشف عن ساق، فيخرون له سجدا».

فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالات، ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم، ويقوا مع مولاهم الحق. فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أوليائه ٨: ٣٤ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

ولا تستطل هذا البسط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله، ونزولها منه منازلها في الدنيا لتتنزل في جوار ربها في الآخرة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

* (فصل)

إذا عرفت هذا عرفت معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح «ليبك وسعديك، والخير في يدك، والشر ليس إليك»

وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال: والشر لا يتقرب به إليك، وقول من قال: والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه - وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه - فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر. بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق. فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه.

وإن دخل في مخلوقاته كقوله: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ.

وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به.

كقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾

وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾

وهو في القرآن أكثر من أن يذكر هاهنا عشر معشاره. وإنما المقصود التمثيل.

وتارة بحذف فاعله. كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

فحذفوا فاعل الشر ومريده، وصرحوا بمريد الرشد.

ونظيره في الفاتحة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه، والضلال منسوباً إلى من قام به، والغضب محذوفاً فاعله.

ومثله قول الخضر في السفينة ﴿فَارْزُقْتُ أَنْ أُعِيْبَهَا﴾ وفي الغلامين ﴿فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً

مِنَ رَبِّكَ﴾

ومثله قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾

فنسب هذا التزيين المحبوب إليه.

وقال: ﴿رَيْنَ لِلنَّاسِ هُبُ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾

فحذف الفاعل المزين. ومثله قول الخليل ﷺ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ

فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾

فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة.

وهذا كثير في القرآن ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية وبيننا هناك السر في مجيء ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾

﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾

والفرق بين الموضوعين، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح. وحيث حذفه كان من أوتيه

واقعا في سياق الذم أو منقسما.

وذلك من أسرار القرآن.

ومثله ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾

وقال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾

وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى﴾.

وبالجملة: فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة، وعدل. والشر ليس إليه.

* (فصل)

وقد دخل في قوله تعالى: «من شر ما خلق» الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر: من حيوان، أو غيره،

إنسيا كان أو جنيا، أو هامة أو دابة أو ريحاً، أو صاعقة، أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت: فهل في «ما» هاهنا عموم؟

قلت: فيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي. والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر. فعمومها من هذا الوجه. وليس

المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله. فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر. وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض.

والخير كله حصل على أيديهم، فلاستعاذة من شر ما خلق: تعم شر كل مخلوق فيه شر. وكل شر في الدنيا والآخرة،

وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع والهوام، وشر النار والهواء، وغير ذلك.

وفي الصحيح: عن النبي ﷺ أنه قال: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم يضره شيء،

حتى يرتحل منه» رواه مسلم.

وروى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: يا أرض، ربي وربك

الله، أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية

والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد».

وفي الحديث الآخر «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر: من شر ما خلق، وذراً وبرأ، ومن شر ما

نزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذراً في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل

طارق، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن».

* [فصل: شروط الدعاء المستجاب]

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد

ساعد قوي، والمانع مفقود؛ حصلت به النكاية في العدو، ومتى تحلف واحد من هذه الثلاثة تحلف التأثير، فإن كان

الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة، لم يحصل الأثر.

[ملتقى التفاسير]

[تفسير سورة { الناس }]

• قال ابن الجوزي : " وفيها قولان .

أحدهما : أنها مَدَنِيَّةٌ ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها مَكِّيَّةٌ ، رواه أبو كريب عن ابن عباس . "

• وقال ابن جرير : " يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ : قل يا محمد أستجير ﴿ رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ وهو ملك جميع الخلق : إنسهم وجنهم ، وغير ذلك ، إعلاما منه بذلك من كان يعظم الناس تعظيم المؤمنين ربهم أنه ملك من يعظمه ، وأن ذلك في ملكه وسلطانه ، تجري عليه قدرته ، وأنه أولى بالتعظيم ، وأحق بالتعبد له ممن يعظمه ، ويُتبع له ، من غيره من الناس .

وقوله : ﴿ إِلَهَ النَّاسِ ﴾

يقول : معبود الناس ، الذي له العبادة دون كل شيء سواه . "

• وقال القرطبي : " قَوْلُهُ تَعَالَى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ أَي مَالِكِهِمْ وَمُصْلِحِ أُمُورِهِمْ . وَإِنَّمَا ذَكَرَ أَنَّهُ رَبُّ النَّاسِ ، وَإِنْ كَانَ رَبًّا لِّجَمِيعِ الْخَلْقِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لِأَنَّ النَّاسَ مُعْظَمُونَ ، فَأَعْلَمَ بِذِكْرِهِمْ أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَإِنْ عَظُمُوا . الثَّانِي : لِأَنَّهُ أَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِمْ ، فَأَعْلَمَ بِذِكْرِهِمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَعِيزُ مِنْهُمْ .

إِنَّمَا قَالَ : مَلِكِ النَّاسِ إِلَهَ النَّاسِ لِأَنَّ فِي النَّاسِ مُلُوكًا يَذْكُرُ أَنَّهُ مَلِكُهُمْ .

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَهُ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ إِلَهُهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُسْتَعَاذَ بِهِ وَيُلْجَأَ إِلَيْهِ ، دُونَ الْمُلُوكِ وَالْعِظَمَاءِ . "

• وقال الالوسي : " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ قُلْ أَعُوذُ ﴾ وَفُرِئَ فِي السُّورَتَيْنِ بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ وَنَقْلِ حَرَكَتِهَا إِلَى اللَّامِ كَمَا فُرِئَ : « فَخَذَّ اَرْبَعَةً » .

﴿ رَبِّ النَّاسِ ﴾ أَي : مَالِكِ أُمُورِهِمْ وَمُرَبِّهِمْ بِإِفَاضَةٍ مَا يُصْلِحُهُمْ وَدَفَعَ مَا يَضُرُّهُمْ ، وَأَمَّا « النَّاسِ » هُنَا أَبُو عَمْرٍو وَالدُّوْرِيُّ عَنْ الْكِسَائِيِّ وَكَذَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ وَقَعَ فِيهِ مَجْرُورًا .

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ عَظُفُ بَيَانٍ عَلَى مَا اخْتَارَهُ الرَّخْشَرِيُّ جِيءَ بِهِ لِبَيَانِ أَنَّ تَرْبِيَتَهُ تَعَالَى إِيَّاهُمْ لَيْسَتْ بِطَرِيقِ تَرْبِيَةِ سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ لِمَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ مَمَالِكِهِمْ بَلْ بِطَرِيقِ الْمَلِكِ الْكَامِلِ وَالتَّصَرُّفِ الْكُلِّيِّ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ فَإِنَّهُ لِبَيَانِ أَنَّ مُلْكُهُ تَعَالَى لَيْسَ بِمُجَرَّدِ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَيْهِمْ وَالْقِيَامِ بِتَنْدِيرِ أُمُورِ سِيَاسَتِهِمْ وَالتَّوَلَّى لِتَرْتِيبِ مَبَادِي حِفْظِهِمْ وَحِمَايَتِهِمْ كَمَا هُوَ قُصَارَى أَمْرِ الْمُلُوكِ بَلْ هُوَ بِطَرِيقِ الْمُعْبُودِيَّةِ الْمُؤَسَّسَةِ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْقُدْرَةِ التَّامَّةِ عَلَى التَّصَرُّفِ الْكُلِّيِّ فِيهِمْ إِحْيَاءً وَإِمَاتَةً وَإِجَادًا وَإِعْدَامًا. وَجُوزَتْ الْبَدَلِيَّةُ أَيْضًا وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْهُ عَقْلًا، " . وقال ابن القيم في بدائع الفوائد : " وأما سورة الناس : فقد تضمنت أيضا استعاذة، ومستعاذا به، ومستعاذا منه. فالاستعاذة تقدمت.

وأما المستعاذ به: فهو الله رَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهُ النَّاسِ.

فذكر ربوبيته للناس، وملكه إياهم، وإلهيته لهم، ولا بد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان، كما تقدم. فذكر أولا معنى هذه الإضافات الثلاث. ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة، فنقول:

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لحقهم وتدبيرهم، وتربيتهم، وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. هذا معنى ربوبيته لهم. وذلك يتضمن قدرته التامة. ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك: فهو ملكهم المتصرف فيهم: وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق: الذي إليه مفرعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم. فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وتدبيره فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية. فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم. فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكا في إلهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه.

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة.

وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفرع لنا في الشدائد سواه.

ولا ملجأ لنا منه إلا إليه. ولا معبود لنا غيره. فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى، ولا يحب سواه، ولا يذلّ لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه: إما أن يكون مربك والقيم بأمورك، ومتولي شأنك وهو ربك، فلا رب سواه، أو تكون مملوكة وعبدك الحق، فهو ملك الناس حقا، وكلهم عبيده ومماليكه، أو

يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك، وهو الإله الحق إله الناس الذي لا إله لهم سواه.

فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعينوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه ولا يلجئوا إلى غير حماه، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم، ومتولي أمورهم جميعا ربوبيته وملكه وإهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكة وإلهه؟

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة: من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة، وأشدهم ضررا، وأبلغهم كيدا. ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر، ولم يوقع المضر موقعه. فيقول: رب الناس وملكهم وإلههم: تحقيقا لهذا المعنى، وتقوية له. فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب.

وأخر الإلهية لخصوصها لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحدته واتخذة دون غيره إله. فمن لم يعبدده ويوحده فليس بإلهه. وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن المشرك ترك إلهه الحق واتخذ إلهه غيره باطلا.

ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره. فهو المطاع إذا أمر. وملكه لهم تابع لخلقه إياهم. فملكه من كمال ربوبيته. وكونه إلههم الحق من كمال ملكه. فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه.

وملكه يستلزم إهيته: يقتضيه، فهو الرب الحق، الملك الحق، الإله الحق، خلقهم ربوبيته وقهرهم بملكه. واستعبدهم بإهيته.

فتأمل هذه الجلالة، وهذه العظمة، التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام، وأحسن سياق «رب الناس، ملك الناس، إله الناس».

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى.

أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى. فإن الرب هو القادر الخالق، البارئ المصور، الحي القيوم، العليم السميع البصير، المحسن المنعم، الجواد المعطي. المانع، الضار النافع، المقدم المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء - إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك: فهو الأمر الناهي، المعز المذل، الذي يصرف أمور عبادته كما يحب، ويقلبهم كما يشاء. وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز، الجبار المتكبر، الحكم العدل، الخافض الرافع، المعز المذل، العظيم الجليل الكبير، الحسيب المجيد، الوالي المتعالي، مالك الملك، المقسط الجامع - إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك. وأما الإله: فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال. فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى. ولهذا كان القول الصحيح: أن «الله» أصله الإله. كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا من شذ منهم، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى. فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى. فكان المستعبد بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ، ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه. وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر. وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وأن نسبة بادية إلى الخافي يسير.

• وقال ابن عثيمين: "﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وهو الله عز وجل، وهو ربُّ الناس وغيرهم، ربُّ الناس، ربُّ الملائكة، ربُّ الجن، ربُّ السموات، ربُّ الأرض، ربُّ الشمس، ربُّ القمر، ربُّ كلِّ شيء، لكن للمناسبة خصَّ الناس. ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ أي: الملك الذي له السُّلْطَةُ العُليا في الناس والتصرُّفُ الكامل هو الله عز وجل. ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ أي: مألُوهُم ومعبودهم، فالمعبود حقاً الذي تألَّهُ القلوبُ وتُحِبُّه وتعظِّمه هو الله عز وجل."

وقوله: ﴿مَنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾

• قال ابن جرير: "يعني: من شرِّ الشيطان ﴿الْخَنَاسِ﴾ الذي يخنس مرةً ويوسوس أخرى، وإنما يخنس فيما ذكر عند ذكر العبد ربه.

(ثم روى) عن ابن عباس، قال: ما من مولود إلا على قلبه الوسواس، فإذا عقل فذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، قال: فذلك قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ﴾.

(وعنه) في قوله ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس.

(وعن) مجاهد ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ﴾ قال: ينبسط فإذا ذكر الله خنس وانقبض، فإذا غفل انبسط.

(وعنه) في قوله ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ﴾ قال: الشيطان يكون على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خنس.

(وعن) قتادة ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قال: قال هو الشيطان، وهو الخناس أيضاً، إذا ذكر العبد ربه خنس، وهو يوسوس ويخنس.

(وعن) ابن ثور، عن أبيه، قال: ذكر لي أن الشيطان، أو قال الوسواس، ينفث في قلب الإنسان عند الحزن وعند الفرح، وإذا ذكر الله خنس.

(وعن) ابن زيد، في قوله: ﴿الْحَنَاسِ﴾ قال: الحناس الذي يوسوس مرّة، ويخنس مرّة من الجنّ والإنس، وكان يقال: شيطان الإنس أشدّ على الناس من شيطان الجنّ، شيطان الجنّ يوسوس ولا تراه، وهذا يُعَايِنُكَ معاينة. ورؤي عن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان يقول في ذلك ﴿مَنْ شَرُّ الْوَسْوَاسِ﴾ الذي يوسوس بالدعاء إلى طاعته في صدور الناس، حتى يُسْتَجَابَ له إلى ما دعا إليه من طاعته، فإذا استجيب له إلى ذلك خَسَنَ. ...

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله أمر نبيه محمدا ﷺ أن يستعيذ به من شرّ شيطان يوسوس مرّة ويخنس أخرى، ولم يخصّ وسوسته على نوع من أنواعها، ولا خنوسه على وجه دون وجه، وقد يوسوس بالدعاء إلى معصية الله، فإذا أطع فيها خَسَنَ، وقد يوسوس بالنهي عن طاعة الله فإذا ذكر العبد أمر ربه فأطاعه فيه، وعصى الشيطان خَسَنَ، فهو في كلّ حالتيه وسواس حناس، وهذه الصفة صفته.

• وقال ابن كثير: "هذه ثلاث صفات من صفات الربّ، عزّ وجلّ؛ الرُّبُوبِيَّةُ، وَالْمُلْكُ، وَالْإِلَهِيَّةُ: فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ، فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ، مَمْلُوكَةٌ عِيبٌ لَهُ، فَأَمَرَ الْمُسْتَعِيدُ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِالْمُتَّصِفِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْحَنَاسِ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ الْمُؤَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزِينُ لَهُ الْفَوَاحِشَ، وَلَا يَأْلُوهُ جُهْدًا فِي الْحَبَالِ. وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينَةً". قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "نَعَمْ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ" وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَنَسٍ فِي قِصَّةِ زِيَارَةِ صَفِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، وَخُرُوجِهِ مَعَهَا لَيْلًا لِيَرْدُهَا إِلَى مَنْزِلِهَا، فَلَقِيَهُ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: "عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيٍّ". فَقَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا، أَوْ قَالَ: شَرًّا."

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُؤَصِّلِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَحْرٍ، حَدَّثَنَا عَدِيُّ بْنُ أَبِي عَمَارَةَ، حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ أَبِي حَسْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ خَسَنَ، وَإِنْ نَسِيَ التَّقَمَّ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْحَنَاسُ غَرِيبٌ."

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَاصِمٍ، سَمِعْتُ أَبَا تَمِيمَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَدِيفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا تَقُلْ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، تَعَاظَمَ، وَقَالَ: بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الدُّبَابِ".

تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْقَلْبَ مَتَى ذَكَرَ اللَّهُ تَصَاغَرَ الشَّيْطَانُ وَغَلِبَ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ تَعَاظَمَ وَغَلِبَ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الْخَنْفِيُّ، حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الْمَسْجِدِ، جَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَأَبَسَ بِهِ كَمَا يُبَسُّ الرَّجُلُ بِدَابَّتِهِ، فَإِذَا سَكَنَ لَهُ رَنَقُهُ - أَوْ: أَلْجَمُهُ". قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ ذَلِكَ، أَمَّا الْمَرْئِيُّ فَنَرَاهُ مَائِلًا - كَذَا - لَا يَذْكُرُ اللَّهَ، وَأَمَّا الْمُلْجَمُ فَفَاتِحُ فَاةٍ لَا يَذْكُرُ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ﴾ قَالَ: الشَّيْطَانُ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسُوسَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَسَّ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ.

وَقَالَ الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِيهِ: ذَكَرَ لِي أَنَّ الشَّيْطَانَ، أَوْ: الْوَسْوَاسَ يَنْفُثُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ عِنْدَ الْحُزْنِ وَعِنْدَ الْفَرَحِ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَسَّ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْوَسْوَاسُ﴾ قَالَ: هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْمُرُ، فَإِذَا أَطِيعَ خَسَّ..

• قال ابن القيم في بدائع الفوائد: " فالوسواس فعال من وسوس وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس فيحترز منه فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقى إليه وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد ومن هذا وسوسة الحلي وهو حركته الخفية في الأذن والظاهر والله تعالى أعلم إنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن فليل وسوسة الحلي لأنه صوت مجاور للأذن كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في أذن من يوسوس له ولما كانت الوسوسة كلاما يكرره الموسوس ويؤكدده عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها فقالوا وسوس وسوسة فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه كالدوران والغليان والنزوان وبابه ونظير ذلك زلزل ودكدك وقلقل وكبكب الشيء لأن الزلزلة حركة متكررة وكذلك الدكدكة والقلقلة وكذلك كبكب الشيء إذا كبه في مكان بعيد فهو يكب فيه كبا بعد كب كقوله تعالى: {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ} ومثله ررضة إذا كرر ررضه مرة بعد مرة ومثله ذرذره إذا ذره شيئا بعد شيء ومثله صرصر الباب إذا تكرر صريره ومثله مطمط الكلام إذا مطه شيئا بعد شيء ومثله كفكف الشيء إذا كرر كفه وهو كثير وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب لأن الثلاثي لا يدل على تكرار بخلاف الرباعي المكرر فإذا قلت ذر الشيء وصرر الباب وكف الثوب ورض الحب لم يدل على تكرار الفعل بخلاف ذرذر وصرصر ورضرض ونحوه فتأمله فإنه مطابق للقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعاني وقد تقدم التنبيه على ذلك فلا وجه لإعادته وكذلك قولهم عج العجل إذا صوت فإن تابع صوته قالوا عجعج وكذلك ثج الماء إذا صب فإن تكرر ذلك قيل ثجثج والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قبل وسوس.

... وأما الخناس: فهو فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى ومنه قول أبي هريرة: "لقيني النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طرق المدينة وأنا جنب فانخنست منه: وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور فليست لجرد الاختفاء ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالى: {فَلَا أُفْسِمُ بِالْخَنَّاسِ} قال قتادة: "هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار فتختفي ولا ترى"

وكذلك قال علي رضي الله عنه: "هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى" وقالت طائفة: الخنس هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق وهي السبعة السيارة" قالوا: وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء" والخناس مأخوذ من هذين المعنيين فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان وانبسط عليه وبذر فيه أنواع الوسواس التي هي أصل الذنوب كلها فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به انخنس وانقبض كما ينخنس الشيء ليتوارى وذلك الانخناس والانقباض هو أيضا تجمع ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج فهو تأخر ورجوع معه اختفاء وخنس وانخنس يدل على الأمرين معا قال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس ويقال رأسه كراس الحية وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمينه ويحدته فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا لم يذكره عاد ووضعه رأسه يوسوس إليه ويمنيه وجيء من هذا الفعل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيذانا بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله وأن ذلك دأبه ودينه لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحيانا بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر فإن ذكر الله هو مقمعه التي يقمع بها كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سباط وحديد وعصي ونحوها فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيبا ضئيلا مضنى مما يعذبه ويقمعه به من ذكر الله وطاعته وفي أثر عن بعض السلف أن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر لأنه كلما اعترضه صب عليه سباط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة فشيطانه معه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة ولهذا يكون قويا عاتيا شديدا فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارا حتى يعزم عليها العبد وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل لأنه كلما ذكر الله انخنس ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنيهما.

• وقال الرازي: "فيه مسائل:

المسألة الأولى: قُرئ: (قُلْ أَعُوذُ) بِحَذْفِ الهمزة ونَقْلِ حَرَكَتِهَا إِلَى اللَّامِ وَنَظِيرُهُ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ وَأَيْضًا أَجْمَعَ الْقُرَاءُ عَلَى تَرْكِ الإِمَالَةِ فِي النَّاسِ، وَرُويَ عَنِ الْكِسَائِيِّ الإِمَالَةُ فِي النَّاسِ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِ الْحَقْصِ.

المسألة الثانية: أَنَّهُ تَعَالَى رَبُّ جَمِيعِ الْمُحَدَّثَاتِ، وَلَكِنَّهُ هَهُنَا ذَكَرَ أَنَّهُ رَبُّ النَّاسِ عَلَى التَّخْصِصِ وَذَلِكَ لِوُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّ الإِسْتِعَادَةَ وَقَعَتْ مِنْ شَرِّ الْمُؤَسَّوسِ فِي صُدُورِ النَّاسِ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أَعُوذُ مِنْ شَرِّ الْمُؤَسَّوسِ إِلَى النَّاسِ بِرَبِّهِمُ الَّذِي يَمْلِكُ عَلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ وَهُوَ إِنْهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ كَمَا يَسْتَعِيثُ بَعْضُ الْمَوَالِي إِذَا اعْتَرَاهُمْ خَطْبٌ بِسَيِّدِهِمْ وَخَدُّوهُمْ وَوَالِي أَمْرِهِمْ. وَثَانِيهَا: أَنَّ أَشْرَفَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي الْعَالَمِ هُمُ النَّاسُ.

وِثَالِثُهَا: أَنَّ الْمَأْمُورَ بِالِاسْتِعَادَةِ هُوَ الْإِنْسَانُ، فَإِذَا قَرَأَ الْإِنْسَانُ هَذِهِ صَارَ كَأَنَّهُ يَقُولُ: يَا رَبِّ يَا مَلِكِي يَا إِلَهِي.

المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ هُمَا عَطْفُ بَيَانٍ كَقَوْلِهِ: سِيرَةُ أَبِي حَفْصٍ عُمَرُ الْفَارُوقِ، فَوُصِفَ أَوَّلًا بِأَنَّهُ رَبُّ النَّاسِ ثُمَّ الرَّبُّ قَدْ يَكُونُ مَلِكًا وَقَدْ لَا يَكُونُ، كَمَا يَقَالُ: رَبُّ الدَّارِ وَرَبُّ الْمَنَاعِ قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُءُوبَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فَلَا جَرَمَ بَيْنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ثُمَّ الْمَلِكُ قَدْ يَكُونُ إلهًا، وَقَدْ لَا يَكُونُ فَلَا جَرَمَ بَيْنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ لِأَنَّ الْإِلَهَ خَاصٌّ بِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ .

وقال الالوسي: " ثُمَّ مَا هُنَا -وإن لم يكن جامدًا- فهو في حكمه، ولعل الجزالة دعت إلى اختياره وتخصيص الإضافة إلى الناس مع انتظام جميع العالم في سلك ربوبيته تعالى وملكوته وألوهيته على ما في الإرشاد للإرشاد إلى منهاج الاستعادة الحقيقية بالإعادة فإن توسل العائد بربه وانتسابه إليه بالربوبية والملوكية والعبودية في ضمن جنس هو فرد من أفراد من دواعي مزيد الرحمة والرأفة، وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعادة لا محالة، ولأن المستعاد منه شر الشيطان المعروف بعداوتهم ففي التخصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته رمز إلى إنجائهم من ملكة الشيطان وتسليطه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ واقتصر بعض الأجلة في بيان وجه التخصيص على كون الاستعادة هنا من شر ما يخص النفوس البشرية وهي الوسوسة كما قال تعالى: ﴿من شر الوسواس﴾ وبحث فيه بعد الإغماض عما فيه من القصور في توفية المقام حقه بأن شر الوسواس كما يلحق النفوس يلحق الأبدان أيضًا، وفيه شيء سنشير إن شاء الله تعالى إليه، واختار هذا الباحث في ذلك أنه لما كانت الاستعادة فيما سبق من شر كل شيء أضيف الرب إلى كل شيء؛ أي بناء على عموم الفلق، ولما كانت هنا من شر الوسواس لم يضاف إلى كل شيء، وكان النظر إلى السورة السابقة يفتضي الإضافة إلى الوسواس لكنه لم يضاف إليه خطأ لدرجته عن إضافة الرب إليه بل إلى المستعبد، وكان في هذا الخط رمزًا إلى الوعد بالإعادة وهو الذي يجعل لما ذكر خطأ في أداء حق المقام، وربما يقال: إن في إضافة الرب إلى الناس في آخر سورة من كتابه تذكير الأول أمر عرفوه في عالم الذر وأخذ عليهم العهد بالإقرار به فيما بعد كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية.. فيكون في ذلك تحريض على الاستعادة من شر الوسواس لئلا يتدنس أمر ذلك العهد، وفيه أيضًا رمز إلى الوعد الكريم بالإعادة .

• وقال الطاهر بن عاشور: " والوسواس: المتكلم بالوسوسة، وهي الكلام الحقي. قال رؤبه يصف صائدًا في قترته:

وسوس يدعو مخلصًا رب الفلق

فالوسواس اسم فاعل، ويطلق الوسواس بفتح الواو مجازًا على ما يخطر بنفس المرء من الخواطر التي يتوهمها مثل كلام يكلم به نفسه. قال غزوة بن أذينة:

وإذا وجدت لها وسوس سلوة *** شفع الفؤاد إلى الضمير فسألها

والتَّعْرِيفُ فِي (الْوَسْوَاسِ) تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، وَإِطْلَاقُ (الْوَسْوَاسِ) عَلَى مَعْنَيْهِ الْمَجَازِيِّ وَالْحَقِيقِيِّ يَشْمَلُ الشَّيَاطِينَ الَّتِي تُنْقَلِي فِي أَنْفُسِ النَّاسِ الْخَوَاطِرَ الشَّرِيرَةَ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ١٢٠]، وَيَشْمَلُ الْوَسْوَاسُ كُلَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامًا خَفِيًّا مِنَ النَّاسِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَكَائِدِ وَالْمُؤَامَرَاتِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا إِلْحَاقُ الْأَذَى مِنْ اغْتِيَالِ نُفُوسٍ أَوْ سَرِقَةِ أَمْوَالٍ أَوْ إِغْرَاءٍ بِالصَّلَالِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْهُدَى؛ لِأَنَّ شَأْنَ مُذَاكِرَةِ هَؤُلَاءِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ أَنْ تَكُونَ سِرًّا لِقَلَا يَطْلَعُ عَلَيْهَا مَنْ يُرِيدُونَ الْإِبْقَاعَ بِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الدَّوَائِرَ وَيُغْرُونَ النَّاسَ بِأَذْيَتِهِ.

وَالْحَتَّاسُ: الشَّدِيدُ الْحَتْسِ وَالْكَثِيرُ. وَالْمُرَادُ أَنَّهُ صَارَ عَادَةً لَهُ. وَالْحَتْسُ وَالْحَتُّوسُ: الْإِخْتِفَاءُ. وَالشَّيْطَانُ يُلَقَّبُ بِـ (الْحَتَّاسِ) لِأَنَّهُ يَتَّصِلُ بِعَقْلِ الْإِنْسَانِ وَعَزْمِهِ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُ فَكَأَنَّهُ خَنَسَ فِيهِ، وَأَهْلُ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالتَّخْتُلِ حَتَّاسُونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَحَيَّنُونَ غَفَلَاتِ النَّاسِ وَيَتَسَتَّرُونَ بِأَنْوَاعِ الْحِيلِ لِكَيْلَا يَشْعُرَ النَّاسُ بِهِمْ.

فَالْتَّعْرِيفُ فِي (الْحَتَّاسِ) عَلَى وَزْنِ تَعْرِيفِ مَوْصُوفِهِ، وَلِأَنَّ خَوَاطِرَ الشَّرِّ يَهْمُ بِهَا صَاحِبُهَا فَيُطْرَقُ وَيَتَرَدَّدُ وَيَخَافُ تَبَاعُثَهَا وَتَزْجُرُهَا النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ، أَوْ يَزْعُمُ وَانْزِعَ الدِّينَ أَوْ الْحَيَاءَ أَوْ خَوْفَ الْعِقَابِ عِنْدَ اللَّهِ أَوْ عِنْدَ النَّاسِ ثُمَّ تَعَاوِدُهُ حَتَّى يَطْمَئِنَّ لَهَا وَيَرْتَاضَ بِهَا فَيُصَمِّمَ عَلَى فِعْلِهَا فَيَقْتَرِفَهَا، فَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ يَبْدُو لَهُ ثُمَّ يَخْتَفِي، ثُمَّ يَبْدُو ثُمَّ يَخْتَفِي حَتَّى يَتِمَّ كَيْدُهُ مِنْ تَدْلِيَّتِهِ بِغُرُورٍ.

• وقال ابن تيمية في الرد على المنطقيين: " وهذا سلف الامة والتابعين لهم بأحسان وائمة المسلمين فأنهم يقولون ان الشياطين توسوس في نفوس بني ادم كالعقائد الفاسدة والامر باتباع الهوى وان الملائكة بالعكس انما تقذف في القلوب الصدق والعدل قال ابن مسعود ان للملك لمة وللشيطان لمة فلمة الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالحق وفي الصحيح عن النبي ص - انه قال ما منكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الملائكة ومن الجن قالوا وايك يا رسول الله قال وايي الا ان الله اعاني عليه فأسلم وفي لفظ فلا يأمرني الا بخير قال تعالى قل اعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس الخناس والقول الصحيح الذي عليه اكثر السلف ان المعنى من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس من شياطين الانس والجن

وقال وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شيطان الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقال النبي ص - لابي ذر يا ابا ذر تعوذ بالله من شياطين الانس والجن قال يا رسول الله او للانس وشياطين قال نعم شر من شياطين الجن قال تعالى اذا لقوا الذين امنوا قالوا امنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزءون وهم شياطينهم من الانس كما قال ذلك عامة السلف وكما يدل عليه سباق القران فان شياطين الجن لم يكونوا يحتاجون الى ان يخلوا بهم و لا هم يقولون لهم انا معكم انما نحن مستهزءون .

• وقال السعدي: " وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم من الشيطان، الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، الذي من فتنته وشره أنه يوسوس في صدور الناس؛ فيحسّن لهم الشر، ويريههم إياه في صورة حسنة، وينشط إراداتهم لفعله، ويشبطهم عن الخير، ويريههم إياه في صورة غير صورته، وهو دائماً بهذه الحال، يوسوس ثم يخنس؛ أي: يتأخر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه؛ فينبغي له أن يستعين ويستعبد ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم، وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها، وبألوهيتها التي خلقهم لأجلها؛ فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم الذي يريد أن يقطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه؛ ليكونوا من أصحاب السعير .".

• وقال ابن عطية: " الوَسْوَاسُ " اسمٌ من أسماء الشَّيْطَانِ، وهو أيضاً ما تُوسَّسُ بِهِ شَهَوَاتُ النَّفْسِ وَتَسْوَلُهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْهَوَى الَّذِي هُبِيَ الْمَرْءُ عَنْ اتِّبَاعِهِ، وَأُمِرَ بِمَعْصِيَتِهِ، وَالْغَضَبُ الَّذِي وَصَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِطَرْحِهِ وَتَرْكِهِ حِينَ «قَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَوْصِنِي، فَقَالَ: "لَا تَغْضَبَ"، قَالَ زَيْدِي: قَالَ: "لَا تَغْضَبَ"».

وقوله تعالى: "الْحَنَاسِ" مَعْنَاهُ: الرَّاجِحُ عَلَى عَقِبِهِ، الْمُسْتَبْتَرُ أَحْيَاناً، وَذَلِكَ فِي الشَّيْطَانِ مُتِمِّكِنٌ إِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ اللَّهَ تَعَالَى وَتَعَوَّذَ، وَتَذَكَّرَ فَأَبْصَرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وَإِذَا فَرَضْنَا ذَلِكَ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْغَضَبِ وَنَحْوِهَا فَهُوَ يَخْنُسُ بِتَذْكِيرِ النَّفْسِ لِلْوَامَةِ، وَيَلْمِزُ الْمَلِكِ، وَبِأَنَّ الْحَيَاءَ يَرْدُعُ وَالْإِيمَانَ يَرْدُعُ بِقُوَّةٍ، فَتَخْنُسُ تِلْكَ الْعَوَارِضُ الْمُتَحَرِّكَةُ، وَتَنْقِمُ عِنْدَ مَنْ أُعِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، وَقَدْ انْدَرَجَ هَذَانِ الْمَعْنَيَانِ مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، أَيْ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَنَفْسِ الْإِنْسَانِ. وَيُظْهِرُ أَيْضاً أَنَّ يَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَالنَّاسِ" يُرَادُ بِهِ مَنْ يُوسَّسُ بِخُدَعِهِ مِنَ الْبَشَرِ، وَيَدْعُو إِلَى الْبَاطِلِ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ كَالشَّيْطَانِ.

وَكُلُّهُمْ قَرَأَ: "النَّاسِ" غَيْرُ ثُمَالَةٍ، وَرَوَى الدَّوْرِيُّ عَنِ الْكِسَائِيِّ أَنَّهُ أَمَالَ الثُّونَ مِنَ "النَّاسِ" فِي حَالِ الْحَقْضِ، وَلَا يَمِيلُ فِي الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ جَمَعَ كَفَّيْهِ وَنَفَثَ فِيهِمَا، وَقَرَأَ: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ"، ثُمَّ يَمْسَحُ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِرَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثًا».

وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ مِنَ النَّاسِ شَيَاطِينَ، وَمِنَ الْجِنِّ شَيَاطِينَ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

• وقال ابن عثيمين: "﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قال العلماء: إنها مصدرٌ يُرَادُ بِهِ اسْمُ الْفَاعِلِ؛ أي: المَوسُوس، والوسوسة هي ما يُلْقَى فِي الْقَلْبِ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالْأَوْهَامِ وَالتَّخَيُّلاتِ الَّتِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا.

﴿الْحَنَاسِ﴾ الَّذِي يَخْنُسُ وَيَنْهَزُ وَيُوَلِّي وَيُدْبِرُ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ، وَلِهَذَا «إِذَا أَدَّانَ الْمُؤَذِّنُ انْصَرَفَ الشَّيْطَانُ وَهَرَبَ وَلَهُ ضُرَاطٌ مِنْ شِدَّةِ مَا وَجَدَ مِنَ الضِّيقِ، فَإِذَا انْتَهَى الْأَذَانُ رَجَعَ» (رواه البخاري ومسلم)، نَسَأَلُ اللَّهَ

العافية، ولهذا جاء في الأثر: «إِذَا تَعَوَّلَتِ الْغِيلَانُ فَبَادِرُوا بِالْأَذَانِ» (أخرجه أحمد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.)، والغيلان هي الشياطين التي تتخيل للمسافر في سفره وكأنها أشياء مَهُولَةٌ أو عَدُوٌّ أو ما أشبه ذلك، فإذا كَبُرَ الإنسانُ انصرفت، فقوله عز وجل: ﴿الْحَنَاسِ﴾ يعني الذي يَحْنَسُ؛ أي: ينصرف ويُدبر ويُوَيِّي ويَذل أمامَ ذِكْرِ الله عز وجل.

وقوله: ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾

• قال ابن جرير: "يعني بذلك: الشيطان الوسواس، الذي يوسوس في صدور الناس: جنهم وإنسهم. فإن قال قائل: فالجنّ ناس، فيقال: الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. قيل: قد سماهم الله في هذا الموضع ناسا، كما سماهم في موضع آخر رجالا فقال: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ فجعل الجنّ رجالا وكذلك جعل منهم ناسا.

وقد ذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدث، إذ جاء قوم من الجنّ فوققوا، فقليل: من أنتم؟ فقالوا: ناس من الجنّ، فجعل منهم ناسا، فكذلك ما في التنزيل من ذلك.

• وقال ابن كثير: "وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ هَلْ يَخْتَصُّ هَذَا بِنَبِيِّ آدَمَ - كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ - أَوْ يَعُمُّ بِنَبِيِّ آدَمَ وَالْجِنِّ؟ فِيهِ قَوْلَانِ، وَيَكُونُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ تَغْلِيْبًا.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ اسْتَعْمَلَ فِيهِمْ (رِجَالٌ مِنَ الْجِنِّ) فَلَا بَدْعَ فِي إِطْلَاقِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هَلْ هُوَ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَّهُمْ فَقَالَ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وَهَذَا يُقَوِّي الْقَوْلَ الثَّانِي. وَقِيلَ قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تَفْسِيرٌ لِلَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ، وَكَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا الْمَسْعُودِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرِو الدِّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ الْحَشْحَاشِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَلَسْتُ، فَقَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ صَلَّيْتَ؟" قُلْتُ: لَا. قَالَ: "قُمْ فَصَلِّ". قَالَ: فَقُمْتُ فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ جَلَسْتُ فَقَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، تَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ".

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلْإِنْسِ شَيَاطِينٌ؟ قَالَ: "نَعَمْ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الصَّلَاةُ؟ قَالَ: "خَيْرُ مَوْضُوعٍ، مَنْ شَاءَ أَقَلَّ، وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا الصَّوْمُ؟ قَالَ: "فَرَضٌ يُجْزِي، وَعِنْدَ اللَّهِ مَزِيدٌ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَالْصَّدَقَةُ؟ قَالَ: "أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّهَا أَفْضَلُ؟ قَالَ: "جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ، أَوْ سِرٌّ إِلَى فَقِيرٍ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلُ؟ قَالَ: "آدَمُ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَنَبِيٌّ كَانَ؟ قَالَ: "نَعَمْ، نَبِيٌّ مُكَلِّمٌ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ

الله، كَمِ الْمُرْسَلُونَ؟ قَالَ: "ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفِيرًا". وَقَالَ مَرَّةً: "خَمْسَةَ عَشَرَ". قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: "آيَةُ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَمْرِو الدِّمَشْقِيِّ، بِهِ . وَقَدْ أَخْرَجَ هَذَا الْحَدِيثَ مُطَوَّلًا جَدًّا أَبُو حَاتِمٍ بْنُ جَبَانَ فِي صَحِيحِهِ، بِطَرِيقٍ آخَرَ، وَلَفْظٍ آخَرَ مُطَوَّلٍ جَدًّا فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ ذَرِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْهَمْدَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَحَدْتُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ لِأَنَّ أَخْرَجَ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسةِ".

قال الماوردي: "﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾" أَمَا وَسْوَاسُ الْجِنَّةِ فَهُوَ وَسْوَاسُ الشَّيْطَانِ عَلَى مَا قَدَّمَاهُ، وَأَمَا وَسْوَاسُ النَّاسِ فَفِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا وَسْوَسةُ الْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. (كما قال تعالى { ونعلم ما توسوس به نفسه })
الثَّانِي: أَنَّهُ إِغْوَاءٌ مَنْ يُغْوِيهِ مِنَ النَّاسِ.

قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ مِنَ الْإِنْسِ شَيَاطِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْجِنَّ شَيَاطِينَ، فَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ حَسَنًا وَحُسَيْنًا فَيَقُولُ: أُعِيدُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ»، وَنَحْنُ نَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِمَّا عَوَّذَ وَنَسْتَمِدُّهُ جَمِيلٌ مَا عَوَّذَ.

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد: "وقوله: {الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} صفةٌ ثالثةٌ للشَّيْطَانِ فذكر وسوسته أولاً ثم ذكر محلها ثانياً وأنها في صدور الناس وقد جعل الله للشَّيْطَانِ دخولاً في جوف العبد ونفوذاً إلى قلبه وصدره فهو يجري منه مجرى الدم وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت فانقلبت فقام معي ليلتي وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم علي رسلكما إنها صفية بنت حيي فقالا سبحان الله يا رسول الله فقال إن الشَّيْطَانِ يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً أو قال شيئاً" رواه البخاري وفي الصحيح أيضاً عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا نودي بالصلاة أدبر الشَّيْطَانُ وله ضراطٌ فإذا قضى أقبل فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول اذكر كذا اذكر كذا حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً سجد سجدي السهو" رواه البخاري ومسلم ومن وسوسته ما ثبت وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يأتي الشَّيْطَانُ أحداكم فيقول من خلق كذا ومن خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته" رواه البخاري ومسلم وفي الصحيح أن أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: "يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به قال الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة" صحيح ومن وسوسته أيضا أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه قال تعالى حكاية عن صاحب موسى إنه قال: {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} وتأمل حكمة القرآن الكريم وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ولم يقل من شر وسوسته لنعم الاستعاذة شره جميعه فإن قوله: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} يعم كل شره ووصفه بأعظم صفاته وأشدّها شرا وأقواها تأثيرا وأعمها فسادا وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة فإن القلب يكون فارغا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهيه وينسى علمه بضررها ويطوي عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط وينسى ما وراء ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة فيشتد الحرص عليها من القلب فيبعث الجنود في الطلب فيبعث الشيطان معهم مدادا لهم وعونا فإن فتروا حركهم وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوُهُمْ أَزْوَاجَهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي إِزْعَاجًا كُلَّمَا قَفِرُوا أَوْ نَوُوا أَزَعَجْتَهُمُ الشَّيَاطِينَ وَأَزَعَمُوا وَأَثَرَتَهُمْ فَلَا تَزَالُ بِالنَّاسِ تَقْوَدُهُ إِلَى الذَّنْبِ وَتَنْتَظِمُ شَمْلَ الْجَمَاعَةِ بِأَلْفِ حِيلَةٍ وَأَتَمَّ مَكِيدَةٍ قَدْ رَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ لِفَجْرَةِ بَنِي آدَمَ وَهُوَ الَّذِي اسْتَكْبَرَ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لِأَبْنَيْهِمَا بَتْلُكِ النُّخْوَةِ وَالْكِبَرِ وَلَا يَرْضَاهُ أَنْ يَصِيرَ قَوَادًا لِكُلِّ مَنْ عَصَى اللَّهَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

عجبت من إبليس في تيهه ... وقبح ما أظهر من نخوته

تاه على آدم في سجدة ... وصار قوادا لذريته

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة فلهذا وصفه بما لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضا فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله تعالى عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف وكذلك بيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله تعالى فبأكل طعام الإنس بغير إذنه وبيت في بيوتهم بغير أمرهم فيدخل سارقا ويخرج مغيرا ويدل على عوراتهم فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومنما إنه فعل كذا وكذا ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به وما ذاك إلا أن الشيطان زين له وألقاه في قلبه ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه فأوقعه في الذنب ثم فضحه به فالرب تعالى يستره والشيطان يجهده في كشف ستره وفضيحتة فيغتر العبد ويقول هذا ذنب لم يره إلا الله تعالى ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحتة وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقدا تمنعه من اليقظة كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله قال ويعقد الشيطان على قافية رأس

أحدكم إذا هو نام ثلاث عقدة يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقده
فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان رواه
البخاري ومسلم ومن شره أن يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح كما ثبت عن النبي أنه ذكر عنده رجل نام ليله
حتى أصبح قال ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنيه رواه البخاري رواه البخاري ومن شره أنه قعد لابن آدم
بطرق الخير كلها فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه فإن خالفه وسلكه ثبطه
فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيص له ما يبطل أثره ويرده على حافته
ويكفي من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيامهم
وعن شمائلهم ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من
أولاده شرطة النار من كل ألف وتسعة وتسعين ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض وقصد
أن تكون الدعوة له وأن يعبد من دون الله فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته وإقامة دعوة الكفر
والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض ويكفي من شره أنه تصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في
النار فرد الله تعالى كيده عليه وجعل النار على خليله بردا وسلاما وتصدى حتى أراد اليهود قتله وصلبه فرد الله كيده
وصان المسيح ورفعه إليه وتصدى لتركيا ويحيى حتى قتلا واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوى
أنه ربهم الأعلى وتصدى للنبي صلى الله عليه وسلم وظاهر الكفار على قتله بجهده والله تعالى يكتبه ويرده خاسئا وتفلت
على النبي صلى الله عليه وسلم بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في الصلاة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول
ألعنك بلعنة الله وأعان اليهود على سحرهم للنبي صلى الله عليه وسلم فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر فكيف الخلاص
منه إلا بمعونة الله وتأنيده وإعازته ولا يمكن حصر أجناس شره فضلا عن آحاديها إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه
ويكن ينحصر شره في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدا منها أو أكثر الشر الأول: شر الكفر والشرك
ومعاداة الله ورسوله فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبته معه وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به
حتى يناله منه فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه فإذا
يئس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى المرتبة الثانية من الشر: وهي البدعة وهي أحب إليه
من الفسوق والمعاصي لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد وهي ذنب لا يتاب منه وهي مخالفة لدعوة الرسل
ودعا إلى خلاف ما جاءوا به وهي باب الكفر والشرك فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضا نائبه وداعيا من
دعائه فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى
المرتبة الثالثة من الشر: وهي الكبائر على اختلاف أنواعها فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها ولا سيما إن كان عالما
متبوعا فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستتيب منهم من يشيعها ويذيعها

تدبنا وتقربا بزعمه إلى الله تعالى وهو نائب إبليس ولا يشعر فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونياية عنه كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورهم وقصد لفضيحتهم والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمان الصدور ودسائس النفوس فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فرما أهلك صاحبها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "إياكم ومحقرات الذنوب فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض " صحيح وذكر حديثا معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتوا ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالا منه فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى المرتبة السادسة: وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه وقل من يتنبه لهذا من الناس فإنه إذا رأى فيه داعيا قويا ومحركا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان فإن الشيطان لا يأمر بخير ويرى أن هذا خير فيقول هذا الداعي من الله وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابا من أبواب الخير إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيرا أعظم من تلك السبعين بابا وأجل وأفضل وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه ولا يفتر ولا يني فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقي الله فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه.

فصل:

وتأمل السر في قوله تعالى: {يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} ولم يقل في قلوبهم والصدر هو ساحة القلب وبيته فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز له ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ثم تتفرق على الجنود ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه في القلب فهو موسوس في الصدر ووسوسته واصله إلى القلب ولهذا قال تعالى: {فَوَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ} ولم يقل فيه لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله فيه فدخل في قلبه .

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى : " قَوْلُهُ : { مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ } { الَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } { مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } فِيهَا أَقْوَالٌ وَلَمْ يَذْكُرْ ابْنُ الْجَوَازِيِّ إِلَّا قَوْلَيْنِ وَلَمْ يَذْكُرِ الثَّالِثَ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لِبَيَانِ الْوَسْوَاسِ أَيِّ الَّذِي يُوسُوسُ مِنَ الْجِنَّةِ وَمِنَ النَّاسِ فِي صُدُورِ النَّاسِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَإِخَاؤُهُمْ هُوَ وَسْوَستُهُمْ وَلَيْسَ مِنْ شَرِّطِ الْمُوسُوسِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَتِرًا عَنِ الْبَصَرِ ؛ بَلْ قَدْ يُشَاهِدُ قَالَ تَعَالَى : { فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَآئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } { وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } وَهَذَا كَلَامٌ مَنْ يَعْرِفُ قَائِلَهُ لَيْسَ شَيْئًا يُلْقَى فِي الْقَلْبِ لَا يَدْرِي مِمَّنْ هُوَ وَإِبْلِيسُ قَدْ أَمَرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ فَلَمْ يَكُنْ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُهُ آدَمَ وَهُوَ وَنَسْلُهُ يَرَوْنَ بَنِي آدَمَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ وَأَمَّا آدَمَ فَقَدْ رَأَاهُ .

وَقَدْ يَرَى الشَّيَاطِينُ وَالْجِنُّ كَثِيرٌ مِنَ الْإِنْسِ لَكِنَّهُمْ مِنَ الْاجْتِنَانِ وَالْإِسْتِنَارِ مَا لَيْسَ لِلْإِنْسِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ } وَفِي التَّفْسِيرِ وَالسِّيَرَةِ : أَنَّ الشَّيْطَانَ جَاءَهُمْ فِي صُورَةِ بَعْضِ النَّاسِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } . وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ { عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قُلْتُ : أَوْ لِلْإِنْسِ شَيَاطِينُ ؟ قَالَ : نَعَمْ شَرٌّ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ } .

وَأَيْضًا فَالْنَفْسُ لَهَا وَسْوَسةٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ } فَهَذَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ لِنَفْسِهِ كَمَا يُقَالُ حَدِيثُ النَّفْسِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ } أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ . فَالَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ نَفْسُهُمْ وَشَيَاطِينُ الْجِنِّ وَشَيَاطِينُ الْإِنْسِ .

وَالْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ يَتَنَاولُ وَسْوَسةَ الْجِنَّةِ وَوَسْوَسةَ الْإِنْسِ وَإِلَّا أَيُّ مَعْنَى لِلْإِسْتِعَاذَةِ مِنْ وَسْوَسةِ الْجِنِّ فَقَطُّ مَعَ أَنَّ وَسْوَسةَ نَفْسِهِ وَشَيَاطِينِ الْإِنْسِ هِيَ مِمَّا تَضُرُّهُ وَقَدْ تَكُونُ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِنْ وَسْوَسةِ الْجِنِّ . وَأَمَّا قَوْلُ الْفَرَّاءِ : أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ : الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَأَنَّهُ سَمَّى الْجِنَّ نَاسًا كَمَا سَمَّاهُمْ رِجَالًا وَسَمَّاهُمْ نَفَرًا فَهَذَا ضَعِيفٌ فَإِنَّ لَفْظَ النَّاسِ أَشْهَرُ وَأَظْهَرُ وَأَعْرَفُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى تَنْوِيحِهِ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَفْظَ

النَّاسِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَأَيْضًا فَكُونُهُ يُوسُوسُ فِي صُدُورِ الطَّائِفَتَيْنِ صِفَةً تَوْضِيحٍ وَبَيَانٍ وَلَيْسَ وَسْوَسةُ الْجِنِّ مَعْرُوفَةً عِنْدَ النَّاسِ وَإِنَّمَا يُعْرَفُ هَذَا بِخَبَرٍ وَلَا خَبَرٍ هُنَا (يعني لا يوجد دليل ان الشيطان يوسوس في صدور الجن) ثُمَّ قَدْ قَالَ : { مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } فَكَيْفَ يَكُونُ لَفْظُ النَّاسِ عَامًّا لِلْجِنَّةِ وَالنَّاسِ وَكَيْفَ يَكُونُ قَسِيمُ الشَّيْءِ قِسْمًا مِنْهُ فَهُوَ يَجْعَلُ النَّاسَ قَسِيمَ الْجِنِّ وَيَجْعَلُ الْجِنَّ نَوْعًا مِنَ النَّاسِ وَهَذَا كَمَا يَقُولُ : أَكْرَمُ الْعَرَبِ مِنَ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ فَهَلْ يَقُولُ هَذَا أَحَدٌ وَإِذَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى رِجَالًا لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يُسَمُّونَ نَاسًا وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ يُقَالُ جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْجِنِّ فَذَاكَ مَعَ التَّقْيِيدِ كَمَا يُقَالُ إِنْسَانٌ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ دَافِقٍ وَلَا يَلَزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَدْخُلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُخَاطَبُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ . وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثٌ إِلَى الْجِنِّسَيْنِ لَكِنَّ لَفْظَ النَّاسِ لَمْ يَتَنَاوَلَ الْجِنَّ وَلَكِنْ يَقُولُ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ الرَّجَّاحِ : أَنَّ الْمَعْنَى { مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ } الَّذِي هُوَ الْجِنَّةُ وَمِنْ شَرِّ النَّاسِ فِيهِ ضَعْفٌ وَإِنْ كَانَ أَرْجَحُ مِنَ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ شَرَّ الْجِنِّ أَكْثَرُ مِنْ شَرِّ الْإِنْسِ فَكَيْفَ يُطْلَقُ الْإِسْتِعَادَةُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَلَا يَسْتَعِيدُ إِلَّا مِنْ بَعْضِ الْجِنِّ . وَأَيْضًا فَالْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مِنَ الْجِنَّةِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى قَوْلِهِ { مِنَ الْجِنَّةِ } وَمِنْ { النَّاسِ } فَلِمَاذَا يَخْصُ الْإِسْتِعَادَةَ مِنَ وَسْوَاسِ الْجِنَّةِ دُونَ وَسْوَاسِ النَّاسِ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا تَقَدَّمَ الْمَعْطُوفُ اسْمًا كَانَ عَطْفُهُ عَلَى الْقَرِيبِ أَوْلَى كَمَا أَنَّ عَوْدَ الضَّمِيرِ إِلَى الْأَقْرَبِ أَوْلَى إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ دَلِيلٌ يَقْتَضِي الْعَطْفَ عَلَى الْبَعِيدِ فَعَطْفُ النَّاسِ هُنَا عَلَى الْجِنَّةِ الْمَقْرُونِ بِهِ أَوْلَى مِنْ عَطْفِهِ عَلَى الْوَسْوَاسِ .

وَيَكْفِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ يَقْرَءُونَ هَذِهِ السُّورَةَ مِنْ زَمَنِ نَبِيِّهِمْ وَلَمْ يُنْقَلْ هَذَانِ الْقَوْلَانِ إِلَّا عَنْ بَعْضِ النَّحَاةِ وَالْأَقْوَالِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ هُمْ بِإِحْسَانٍ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا بَلْ إِنَّمَا فِيهَا الْقَوْلُ الَّذِي نَصَرْنَاهُ كَمَا فِي تَفْسِيرِ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ { مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } قَالَ : إِنَّ فِي الْجِنِّ شَيَاطِينَ وَإِنَّ فِي الْإِنْسِ شَيَاطِينَ فَتَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ؛ فَبَيَّنَ قَتَادَةُ أَنَّ الْمَعْنَى الْإِسْتِعَادَةُ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ { الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ } قَالَ : الْخَنَّاسُ الَّذِي يُوسُوسُ مَرَّةً وَيَخْنُسُ مَرَّةً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَبَيَّنَ ابْنُ زَيْدٍ أَنَّ الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ مِنَ الصَّنَفَيْنِ وَكَانَ يُقَالُ : شَيَاطِينُ الْإِنْسِ أَشَدَّ عَلَى النَّاسِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ : شَيْطَانُ الْجِنِّ يُوسُوسُ وَلَا تَرَاهُ وَهَذَا يُعَايِنُكَ مُعَايَنَةً . وَعَنْ ابْنِ جَرِيرٍ : { مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } قَالَ : إِنَّمَا وَسْوَاسَانِ فَوْسْوَاسٌ مِنَ الْجِنَّةِ فَهُوَ { الْخَنَّاسِ } وَوَسْوَاسٌ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ فَهُوَ قَوْلُهُ : { وَالنَّاسِ } وَهَذَا الْقَوْلُ الثَّلَاثُ وَإِنْ كَانَ يُشَبِّهُ قَوْلَ الرَّجَّاحِ فَهَذَا أَحْسَنُ مِنْهُ فَإِنَّهُ جَعَلَ مِنَ النَّاسِ الْوَسْوَاسَ الَّذِي مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ فَمَعْنَاهُ أَحْسَنُ ذَكَرَ الثَّلَاثَةَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ { رَبِّ النَّاسِ } { مَلِكِ النَّاسِ } { إِلَهِ النَّاسِ } فَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ أَنْ يَسْتَعِيدَ النَّاسُ بِرَبِّهِمْ وَمَلِكِهِمْ وَإِلَهِهِمْ مِنْ شَرِّ مَا يُوسُوسُ فِي صُدُورِهِمْ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُطْلَبُ مِنْهُ الْخَيْرُ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ وَيُطْلَبُ مِنْهُ دَفْعُ الشَّرِّ

الَّذِي يَضُرُّهُمْ وَالْوَسْوَاسُ أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ يَضُرُّهُمْ ؛ لِأَنَّهُ مَبْدَأُ لِلْكَفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَعُقُوبَاتُ الرَّبِّ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى ذُنُوبِهِمْ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدِهِمْ ذَنْبٌ فَكُلُّ مَا يُصِيبُهُ نِعْمَةٌ فِي حَقِّهِ وَإِذَا أُبْتُلِيَ بِمَا يُؤْلِمُهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ دَرَجَتَهُ وَيَأْجُرُهُ إِذَا قَدَّرَ عَدَمَ الذُّنُوبِ مُطْلَقًا لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ بِوَاقِعٍ مِنْهُمْ فَإِنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ وَخَيْرُ الْخَاطِئِينَ التَّوَّابُونَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } . فَعَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَنْبِيَاءِ فَمِنْ دُوبِهِمْ هِيَ التَّوْبَةُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } وَقَالَ : نُوحٌ { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ : { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } وَقَالَ مُوسَى : { أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } وَدُعَاءُ نَبِيِّنَا بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ .

فَكَانَ الْوَسْوَاسُ مَبْدَأُ كُلِّ شَرٍّ فَإِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَعَاذُوا بِرَبِّهِمْ وَمَلَكَهِمْ وَإِلَهُهُمْ مِنْ شَرِّهِ فَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ وَسْوَاسُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَسَائِرِ شَرِّ الْإِنْسِ إِنَّمَا يَقَعُ بِذُنُوبِهِمْ فَهُوَ جَزَاءٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ كَالشَّرِّ الَّذِي يَقَعُ مِنَ الْجِنِّ بِغَيْرِ الْوَسْوَاسِ وَكَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَهُمْ لَمْ يَسْتَعِيدُوا هُنَا مِنْ شَرِّ الْمَخْلُوقَاتِ مُطْلَقًا كَمَا اسْتَعَاذُوا فِي سُورَةِ الْفَلَقِ بَلْ مِنْ الشَّرِّ الَّذِي يَكُونُ مَبْدُؤُهُ فِي نَفْسِهِمْ وَإِنْ كَانَ ذِكْرُ رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ يَسْتَعِيدُونَ بِهِ لِيُعِيدَهُمْ وَلِيُعِيدَ مِنْهُمْ وَهَذَا أَعْمُ الْمَعْنَيْنِ فَذَلِكَ يَحْصُلُ بِإِعَاذَتِهِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْمَوْسُوسِ فِي صُدُورِ النَّاسِ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوسَّوسُ بِظُلْمِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَبِإِغْوَاءِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَبِإِعَانَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . فَمَا حَصَلَ لِإِنْسِي شَرٌّ مِنْ إِنْسِي إِلَّا كَانَ مَبْدُؤُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ وَالْأَفْأَسِ فَمَا يَحْصُلُ مِنْ أَدَى بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْوَسْوَاسِ بَلْ كَانَ مِنَ الْوَحْيِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مَلَائِكَتَهُ كَانَ عَدْلًا كَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْإِفْتِصَاصِ مِنَ الظَّالِمِينَ فَهَذِهِ الْأُمُورُ فِيهَا ضَرَرٌ وَأَدَى لِلظَّالِمِينَ مِنَ الْإِنْسِ لَكِنَّ هِيَ بَوْحِي اللَّهِ لَا مِنَ الْوَسْوَاسِ وَهِيَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ فِي حَقِّ عِبَادِهِ حَتَّى فِي حَقِّ الْمُعَاقِبِ فَإِنَّهُ إِذَا غُورِبَ كَانَ ذَلِكَ كَفَّارَةً لَهُ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا وَإِلَّا كَانَ تَخْفِيفًا لِعَذَابِهِ فِي الْآخِرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَذَابٍ مِنْ لَمْ يُعَاقَبْ فِي الدُّنْيَا . وَهَذَا كَانَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَحْمَةً فِي حَقِّ الْعَالَمِينَ بِاعْتِبَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الْخَيْرِ الْعَامِّ بِهِ وَمَا حَصَلَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَبِاعْتِبَارِ أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ رَحْمَةٌ فَمِنْ قَبْلِهَا وَإِلَّا كَانَ هُوَ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ وَبِاعْتِبَارِ أَنَّهُ قَمَعَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ فَتَقَصَّ شَرُّهُمْ وَعَجَزُوا عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ بِدُونِهِ وَقَتْلَ مَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ فَكَانَ تَعَجِيلُ مَوْتِهِمْ خَيْرًا مِنْ طَوْلِ عُمْرِهِمْ فِي الْكُفْرِ هُمْ وَلِلنَّاسِ فَكَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ فَلَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَاتَّبَاعِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ مِنَ النَّاسِ وَإِنْ كَانُوا يَفْعَلُونَ بِأَعْدَائِهِمْ مَا هُوَ أَدَى وَعُقُوبَةٌ وَأَلَمْ هُمْ فَلَمْ تَبْقِ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا بِمَا يَأْتِي بِهِ الْوَسْوَاسُ إِلَيْهِمْ فَيُسْتَعَاذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يُوسَّوسُ لِلْمُسْتَعِيدِ وَمِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يُوسَّوسُ لِسَائِرِ النَّاسِ حَتَّى لَا يَحْصُلَ مِنْهُمْ شَرٌّ لِلْمُسْتَعِيدِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ

شَرُّ إِلَّا مِنَ الْوَسْوَاسِ كَانَتْ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ الَّذِي يُوسَّوسُ لَهُمْ تَخْصِيلاً لِلْمَقْصُودِ وَكَانَ حَسْماً لِلْمَادَّةِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْعَدْلِ وَكَانَ مَخْرَجاً لِلْأَنْبِيَاءِ اللَّهُ وَأَوْلِيَانِهِ أَنْ يُسْتَعَاذَ مِنْ شَرِّهِمْ وَأَنْ يُقَرَّنُوا بِالْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ وَيَكُونُ ذَلِكَ تَفْضِيلاً لِلْجَنِّ عَلَى الْإِنْسِ وَهَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ . فَإِنْ قِيلَ : فَإِنْ كَانَ أَصْلُ الشَّرِّ كُلِّهِ مِنَ الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِ الْإِسْتِعَاذَةِ مِنَ وَسْوَاسِ النَّاسِ فَإِنَّهُ تَابِعٌ لَوْسْوَاسِ الْجِنِّ . قِيلَ : بَلِ الْوَسْوَاسَةُ نَوْعَانِ : نَوْعٌ مِنَ الْجِنِّ وَنَوْعٌ مِنْ نُفُوسِ الْإِنْسِ . كَمَا قَالَ : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ } فَالشَّرُّ مِنَ الْجَهَنِّ جَمِيعاً وَالْإِنْسُ لَهُمْ شَيَاطِينُ كَمَا لِلْجِنِّ شَيَاطِينُ وَالْوَسْوَاسَةُ مِنْ جِنْسِ الْوَشْوَشَةِ بِالْشَّيْنِ الْمُعْجَمَةِ يُقَالُ فُلَانٌ يُوَشْوَشُ فُلَانًا وَقَدْ وَشَّوَشَهُ إِذَا حَدَّثَهُ سِرًّا فِي أُذُنِهِ وَكَذَلِكَ الْوَسْوَاسَةُ وَمِنْهُ وَسْوَاسَةُ الْحُلِيِّ لَكِنْ هُوَ بِالْشَّيْنِ الْمُهْمَلَةِ أَحْصَى . وَرَبُّ النَّاسِ : الَّذِي يُرِيهِمْ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ - وَتَدْبِيرِهِ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ فَهُوَ الْخَالِقُ لِلْجَمِيعِ وَالْأَعْمَالِ . { مَلِكِ النَّاسِ } الَّذِي يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ فَإِنَّ الْمَلِكَ يَتَصَرَّفُ بِالْكَلَامِ وَالْجَمَادُ لَا مَلِكَ لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَعْقِلُ الْخِطَابَ لَكِنْ لَهُ مَالِكٌ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَلِكُ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنْهُ وَالْحَيَوَانُ يَفْهَمُ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ كَمَا قَالَ : { عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } { قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّملُ } . فَلِهَذَا كَانَ لَهُ مَلِكٌ مِنْ جِنْسِهِ وَمِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ كَمَا كَانَ سُلَيْمَانُ مَلِكُهُمْ . وَالْإِلَهِ : هُوَ الْمَعْبُودُ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْإِرَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ كُلِّهَا كَمَا قَدْ بَسُطَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّمَا خَصَّ النَّاسَ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَعِيدُونَ أَوْ لِأَنَّهُمْ الْمُسْتَعَاذُ مِنْ شَرِّهِمْ ذَكَرَهُمَا أَبُو الْفَرَجِ وَلَيْسَ لَهُمَا وَجْهٌ فَإِنَّ وَسْوَاسَ الْجِنِّ أَعْظَمُ وَلَمْ يَذْكُرْهُ بَلْ ذَكَرَ النَّاسَ لِأَنَّهُمْ الْمُسْتَعِيدُونَ فَيَسْتَعِيدُونَ بِرَبِّهِمْ الَّذِي يَصُوهُهُمْ وَمَلِكُهُمُ الَّذِي أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ وَبَاهَهُمُ الَّذِي يَعْبُدُونَهُ مِنْ شَرِّ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَعِيدُونَ أَيْضاً مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يَحْصُلُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ مِنْهُمْ وَمِنْ الْجِنَّةِ فَإِنَّهُ أَصْلُ الشَّرِّ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْهُمْ وَالَّذِي يَرُدُّ عَلَيْهِمْ .

فَصْلٌ : وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بَعْضُ هَذِهِ الْإِسْتِعَاذَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَعِذْ الْمُسْتَعِيدُونَ بِمِثْلِهِمَا فَإِنَّ الْوَسْوَاسَ أَصْلُ كُلِّ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ وَعَصْيَانٍ فَهُوَ أَصْلُ الشَّرِّ كُلِّهِ فَمَتَى وَفِي الْإِنْسَانِ شَرُّهُ وَفِي عَذَابِ جَهَنَّمَ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَفِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ فَإِنَّ جَمِيعَ هَذِهِ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِطَرِيقِ الْوَسْوَاسِ وَوُقْيَ عَذَابِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُعَذَّبُ عَلَى الذُّنُوبِ وَأَصْلُهَا مِنَ الْوَسْوَاسِ ثُمَّ إِنْ دَخَلَ فِي الْآيَةِ وَسْوَاسٌ غَيْرُهُ بَحِثْ يَكُونُ قَوْلُهُ { مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ } اسْتِعَاذَةً مِنَ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يَغْرِضُ لَهُ وَالَّذِي يَغْرِضُ لِلنَّاسِ بِسَبَبِهِ فَقَدْ وَفَى ظَلَمُهُمْ وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُرِيدُ وَسْوَاسُهُ فَهُمْ إِنَّمَا يُسَلِّطُونَ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِ وَهِيَ مِنْ وَسْوَاسِهِ قَالَ تَعَالَى : { أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } وَقَالَ : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } وَقَالَ : { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } . وَالْوَسْوَاسُ مِنْ جِنْسِ الْحَدِيثِ وَالْكَلَامِ ؛ وَهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ { مَا تُوَسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ } قَالُوا : مَا تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسُهُ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ } . وَهُوَ نَوْعَانِ : خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ . فَالْخَبَرُ : إِنَّمَا عَنْ مَاضٍ

وَأَمَّا عَنْ مُسْتَقْبَلٍ . فَالْمَاضِي يُذَكِّرُهُ بِهِ وَالْمُسْتَقْبَلُ يُحَدِّثُهُ بِأَنْ يَفْعَلَ هُوَ أَمُورًا أَوْ أَنْ أُمُورًا سَتَكُونُ بِقَدَرِ اللَّهِ أَوْ فِعْلٍ غَيْرِهِ
فَهَذِهِ الْأُمَايِي وَالْمَوَاعِيدُ الْكَاذِبَةُ وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ وَهَيَّ وَإِبَاحَةٌ . وَالشَّيْطَانُ تَارَةً يُحَدِّثُ وَسَوَاسَ الشَّرِّ وَتَارَةً يَنْسَى الْخَيْرَ وَكَانَ
ذَلِكَ بِمَا يَشْغَلُهُ بِهِ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ . قَالَ تَعَالَى فِي النَّسِيَانِ : { وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } وَقَالَ فَتَى مُوسَى : { فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ } وَقَالَ تَعَالَى : { فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ } . وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { إِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ أَذْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ
حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأَذِينَ فَإِذَا قُضِيَ التَّأَذِينَ أَقْبَلَ فَإِذَا ثُوبَ بِالصَّلَاةِ أَذْبَرَ فَإِذَا قُضِيَ التَّنَوُّبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَنَفْسِهِ فَيَقُولُ : أَذْكَرُ كَذَا أَذْكَرُ كَذَا لِمَا لَمْ يَذْكُرْ حَتَّى يَظُلَّ الرَّجُلُ لَمْ يَذْكُرْ كَمْ صَلَّى } فَالشَّيْطَانُ ذَكَرَهُ بِأُمُورٍ مَاضِيَةٍ حَدَّثَ
بِهَا نَفْسَهُ مِمَّا كَانَتْ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَفْعَالِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَفْعَالِهِ فَيَتَلَكَّ الْأُمُورَ نَسِيَ الْمُصَلِّي كَمْ صَلَّى وَلَمْ يَذْكُرْ كَمْ صَلَّى فَإِنَّ
النَّسِيَانَ أَرَالَ مَا فِي النَّفْسِ مِنَ الذِّكْرِ وَشَغَلَهَا بِأَمْرِ آخَرَ حَتَّى نَسِيَ الْأَوَّلَ . وَأَمَّا إِخْبَارُهُ بِمَا يَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ
الْمَوَاعِيدِ وَالْأُمَايِي فَكَقَوْلُهُ : { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي
عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلُمُوا أَنْفُسَكُمْ } وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرُهُ وَوَعْدُهُ وَقَالَ تَعَالَى :
{ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا } { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } {
أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا } وَقَالَ تَعَالَى : { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ
مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } فَفِي هَذِهِ أَيْضًا أَمْرُهُ وَوَعْدُهُ . وَقَالَ مُوسَى لَمَّا قَتَلَ الْقَبِيضِي : { هَذَا مِنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } . وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ : كَأَنِّي بَكَرٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ فِيمَا يَقُولُونَهُ بِاجْتِهَادِهِمْ :
إِنْ كَانَ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ . فَجَعَلُوا مَا يُلْقَى فِي النَّفْسِ مِنَ الِاغْتِقَادَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ
مُطَابَقَةً مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا آثِمًا لِأَنَّهُ اسْتَفْرَغَ وَسَعَهُ كَمَا لَا يَأْتُمُ بِالْوَسْوَاسِ الَّذِي يَكُونُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ
الشَّيْطَانِ وَلَا بِمَا يُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَهُ وَقَدْ قَالَ الْمُؤْمِنُونَ : { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } وَقَدْ قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتَ .
وَالنَّسِيَانُ لِلْحَقِّ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالْخَطَأُ مِنَ الشَّيْطَانِ . قَالَ تَعَالَى : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ { مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا } وَلَمَّا نَامَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرِ قَالَ :
لَأَصْحَابِهِ : { ارْتَحِلُوا فَإِنَّ هَذَا مَكَانٌ خَضَرْنَا فِيهِ شَيْطَانٌ } وَقَالَ : { إِنَّ الشَّيْطَانَ أَتَى بِالْأَلَا فَيَجْعَلُ يَهْدِيهِ كَمَا يَهْدِي
الصَّبْيَ حَتَّى نَامَ } وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُلُّ بِلَالٍ أَنْ يُوقِظَهُمْ عِنْدَ الْفَجْرِ وَالنَّوْمِ الَّذِي يَشْغَلُ عَمَّا أُمِرَ بِهِ
وَالنُّعَاسُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنْ كَانَ مَغْفُورًا عَنْهُ ؛ وَهَذَا قِيلَ : النُّعَاسُ فِي مَجْلِسِ الذِّكْرِ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَذَلِكَ الْإِخْتِلَامُ فِي الْمَنَامِ
مِنَ الشَّيْطَانِ وَالتَّائِمُ لَا قَلَمَ عَلَيْهِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ :
رُؤْيَا مِنَ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ وَرُؤْيَا مَا يُحَدِّثُ بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ فِي الْيَقَظَةِ فَيَرَاهُ فِي النَّوْمِ } وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ ابْنِ

سِيرِينَ لَكِنَّ تَفْسِيمَ الرُّؤْيَا إِلَى نَوْعَيْنِ : نَوْعٌ مِنَ اللَّهِ وَنَوْعٌ مِنَ الشَّيْطَانِ صَحِيحٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَا رَيْبٍ .
فَهَذَانِ النُّوعَانِ : مِنْ وَسْوَاسِ النَّفْسِ وَمِنْ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ وَكِلَاهُمَا مَغْفُوقٌ عَنْهُ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ رَفَعَ الْقَلَمُ عَنْهُ وَوَسْوَاسُ
الشَّيْطَانِ يَغْشَى الْقَلْبَ كَطَيِّفِ الْخِيَالِ فَيُنْسِيهِ مَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْصِيَ عَنِ الْحَقِّ فَيَقَعَ فِي الْبَاطِلِ فَإِذَا كَانَ مِنَ
الْمُتَّقِينَ كَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } فَإِنَّ الشَّيْطَانَ
مَسَّهُمْ بِطَيِّفٍ مِنْهُ يَغْشَى الْقَلْبَ وَقَدْ يَكُونُ لَطِيفًا وَقَدْ يَكُونُ كَثِيفًا إِلَّا أَنَّهُ عِشَاوَةٌ عَلَى الْقَلْبِ تَمْنَعُهُ إِنْصَارَ الْحَقِّ . قَالَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةً سُودَاءَ . فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ
زَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبُهُ فَذَلِكَ الرَّاغِبُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . لَكِنَّ
طَيِّفَ الشَّيْطَانِ غَيْرُ رَيْنِ الدُّنُوبِ هَذَا جَزَاءٌ عَلَى الذَّنْبِ وَالْغَيْنِ أَلْطَفُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { إِنَّهُ لِيَغَانِ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً } فَالشَّيْطَانُ يُلْقِي فِي النَّفْسِ الشَّرَّ
وَالْمَلَكُ يُلْقِي الْخَيْرَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ
قَرِيبُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَقَرِيبُهُ مِنَ الْجِنِّ . قَالُوا : وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ وَفِي رِوَايَةٍ فَلَا
يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ } أَيِ اسْتَسْلَمَ وَانْقَادَ . وَكَانَ ابْنُ عُيَيْنَةَ يَرْوِيهِ فَأَسْلَمَ بِالضَّمِّ وَيَقُولُ : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُسَلِّمُ لَكِنَّ قَوْلَهُ فِي
الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى : فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ ذَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ يَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَهَذَا إِسْلَامُهُ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كِنَايَةً عَنْ خُضُوعِهِ وَذَلَّتِهِ
لَا عَنْ إِيْمَانِهِ بِاللَّهِ كَمَا يَقْهَرُ الرَّجُلُ عَدُوَّهُ الظَّاهِرَ وَيَأْسِرُهُ وَقَدْ عَرَفَ الْعَدُوَّ الْمُقْهَرُ أَنَّ ذَلِكَ الْقَاهِرَ يَعْرِفُ مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَيْهِ
مِنَ الشَّرِّ . فَلَا يَقْبَلُهُ بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَى ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ لِنَقْهَارِهِ مَعَهُ إِلَى أَنَّهُ لَا يُشِيرُ عَلَيْهِ إِلَّا بِخَيْرٍ لِذَلَّتِهِ وَعَجَزِهِ لَا لِصَلَاحِهِ
وَدِينِهِ ؛ وَهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ } وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : إِنَّ لِلْمَلِكِ لَمَّةً
وَإِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً فَلَمَّةُ الْمَلِكِ إِعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ . وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إِعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى
: { إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } أَيِ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَائِهِ بِمَا يَقْذِفُ فِي قُلُوبِكُمْ مِنَ الْوَسْوَاسَةِ الْمُرْعِبَةِ كَشَيْطَانِ الْإِنْسِ
الَّذِي يُخَوِّفُ مِنَ الْعَدُوِّ فَيَرْجِفُ وَيَحْذُلُ . وَعَكْسُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَلَّا يَكُونَ مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ
آمَنُوا سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } وَقَالَ تَعَالَى : { يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا } وَالتَّثْبُتُ جَعَلَ الْإِنْسَانَ ثَابِتًا لِأَمْرِ تَابَا
وَذَلِكَ بِالْقَاءِ مَا يُثَبِّتُهُ مِنَ التَّصْدِيقِ بِالْحَقِّ وَالْوَعْدِ بِالْخَيْرِ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : لَمَّةُ الْمَلِكِ وَعْدٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ
فَمَتَى عَلِمَ الْقَلْبُ أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ صَدَقَهُ وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَهُ بِالتَّصْدِيقِ وَثِقَ بِوَعْدِ اللَّهِ فَثَبَّتَ فَهَذَا
يُثَبِّتُ بِالْكَلَامِ كَمَا يُثَبِّتُ الْإِنْسَانُ الْإِنْسَانَ فِي أَمْرِ قَدْ اضْطَرَبَ فِيهِ بِأَنْ يُخْبِرَهُ بِصَدَقِهِ وَيُخْبِرَهُ . بِمَا يُبَيِّنُ لَهُ أَنَّهُ مَنْصُورٌ
فَيُثَبِّتُ وَقَدْ يَكُونُ التَّثْبُتُ بِالْفِعْلِ بِأَنْ يُمْسِكَ الْقَلْبُ حَتَّى يَثْبُتَ كَمَا يُمْسِكُ الْإِنْسَانُ الْإِنْسَانَ حَتَّى يَثْبُتَ . وَفِي الْحَدِيثِ
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ وَكَلَّ إِلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ الْقَضَاءَ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ أَنْزَلَ اللَّهُ

عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ { فَهَذَا الْمَلَكُ يَجْعَلُهُ سَدِيدَ الْقَوْلِ بِمَا يُلْقِي فِي قَلْبِهِ مِنَ التَّصْدِيقِ بِالْحَقِّ وَالْوَعْدِ بِالْخَيْرِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ سَبَبُ خُرُوجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَقَدْ ذَكَرَ إِخْرَاجَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ فِي غَيْرِ آيَةٍ . كَقَوْلِهِ : { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } وَقَالَ : { هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } وَقَالَ : { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } وَفِي الْحَدِيثِ { أَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الْخَيْرِ } وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا بِتَعْلِيمِهِ الْخَيْرَ يُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالْجُزْءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَهَذَا كَانَ الرَّسُولُ أَحَقَّ النَّاسِ بِكَمَالِ هَذِهِ الصَّلَاةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ } . وَالصَّلَاةُ هِيَ الدُّعَاءُ إِمَّا بِخَيْرٍ يَتَضَمَّنُ الدُّعَاءَ وَإِمَّا بِصِغَةِ الدُّعَاءِ فَالْمَلَائِكَةُ يَدْعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : { وَالْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَاةٍ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ مَا لَمْ يُحْدِثْ } فَبَيَّنَ أَنَّ صَلَاتَهُمْ قَوْلُهُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ . وَفِي الْأَثَرِ { إِنَّ الرَّبَّ يُصَلِّي فَيَقُولُ : سَبَقْتُ - أَوْ غَلَبْتُ - رَحْمَتِي غَضَبِي } .

وقال ابن القيم ي بدائع الفوائد : " وقوله تعالى : { مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } اختلف المفسرون في هذا الجار والمجرور بم يتعلق فقال الفراء وجماعة هو بيان للناس الموسوس في صدورهم والمعنى يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس أي الموسوس في صدورهم قسمان إنس وجن فالوسواس يوسوس للجن كما يوسوس للإنسي وعلى هذا القول فيكون من الجنة والناس نصب على الحال لأنه مجرور بعد معرفة على قول البصريين وعلى قول الكوفيين نصب بالخروج من المعرفة هذه عبارتهم ومعناها أنه لما يصلح أن يكون نعتا للمعرفة انقطع عنها فكان موضعه نصبا والبصريون يقدرونه حالا أي كائنين من الجنة والناس وهذا القول ضعيف جدا لوجوه أحدها : أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدور الجن ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي ويجري منه مجراه من الإنسي فأبي دليل يدل على هذا حتى يصح حمل الآية عليه الثاني : أنه فاسد من جهة اللفظ أيضا فإنه قال : { الَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } فكيف يبين الناس بالناس فإن معنى الكلام على قوله : { يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } الذين هم أو كائنين من الجنة والناس أيجوز أن يقال في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم هذا ما لا يجوز ولا هو استعمال فصيح

الثالث : أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين جنة وناس وهذا غير صحيح فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه الرابع : أن الجنة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه لا أصلا ولا اشتقاقا ولا استعمالا ولفظهما يأبى ذلك فإن الجن إنما سموا جنة من الإجتنا وهو الاستتار فهو مستترون عن أعين البشر قسموا جنة لذلك من قولهم جنة الليل وأجنه إذا ستره وأجن الميت إذا ستره في الأرض قال : ولا تبك ميتا بعد ميت أجنه ... علي وعباس وآل أبي بكر

يريد النبي صلى الله عليه وسلم ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه قال تعالى: {وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} ومنه الجن لاستتار المحارب به من سلاح خصمه ومنه الجنة لاستتار داخلها بالأشجار ومنه الجنة بالضم لما بقي الإنسان من السهام والسلاح ومنه الجنون لاستتار عقله وأما الناس فبينه وبين الإنسان مناسبة في اللفظ والمعنى وبينهما اشتقاق أوسط وهو عقد تقاليب الكلمة إلى معنى واحد والإنس والإنسان مشتق من الإيناس وهو الرؤية والإحساس ومنه قوله: {آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا} أي رآها ومنه: {فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا} أي أحسستموه ورأيتموه فالإنسان سمي إنسانا لأنه يونس أي يرى بالعين والناس فيه قولان أحدهما: أنه مقلوب من أنس وهو بعيد والأصل عدم القلب والثاني هو الصحيح أنه من النوس وهو الحركة المتتابعة فسمي الناس ناسا للحركة الظاهرة والباطنة كما سمي الرجل حارث وهمام أصدق الأسماء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم صحيح لأن كل أحد له هم وإرادة وهي مبدأ وحرث وعمل هو منتهى فكل أحد حارث وهمام والحرث والهم حركتا الظاهر والباطن وهو حقيقة النوس وأصل ناس نوس تحركت الواو قبلها فصارت ألفا هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق الناس وأما قول بعضهم أنه من النسيان وسمي الإنسان إنسانا لنسيانه وكذلك الناس سموا ناسا لنسيانهم فليس هذا القول بشيء وأين النسيان الذي مادته ن س ي إلى الناس الذي مادته ن وس وكذلك أين هو من الإنس الذي مادته ان س وأما إنسان فهو فعلا ن من أن س والألف والنون في آخره زائدان لا يجوز فيه غير هذا البتة إذ ليس في كلامهم أنس حتى لا يكون إنسانا إفعالا منه ولا يجوز أن يكون الألف والنون في أوله زائدين إذ ليس في كلامهم انفعلي فيتبين أنه فعلا ن من الأنس ولو كان مشتقا من نسي لكان نسيانا لا إنسانا فإن قلت: فهلا جعلته إفعالا وأصله إنسيان كقيلة إصحيان ثم حذفت الياء تخفيفا فصار إنسانا قلت: يأبى ذلك عدم افعلال في كلامهم وحذف الياء بغير سبب ودعوى ما لا نظير له وذلك كله فاسد على أن الناس قد قيل: إن أصله الأناس فحذفت الهمزة فقيل الناس واستدل بقول الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلين

ولا ريب أن أناسا فعال ولا يجوز فيه غير ذلك البتة فإن كان أصل ناس أناسا فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس ويكون الناس كالإنسان سواء في الاشتقاق ويكون وزن ناس على هذا القول عال لأن المحذوف فاؤه وعلي القول الأول يكون وزنه فعل لأنه من النوس وعلى القول الضعيف يكون وزنه فاع لأنه من نسي فقلبت لامه إلى موضع العين فصار ناسا ووزنه فلعا والمقصود أن الناس إسم لبني آدم فلا يدخل الجن في مسماهم فلا يصح أن يكون من الجنة والناس بيانا لقوله: {فِي صُدُورِ النَّاسِ} وهذا واضح لا خفاء فيه فإن قيل لا محذور في ذلك فقد أطلق على الجن اسم الرجال كما في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ} فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم الناس قلت: هذا هو الذي غر من قال إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية وجواب ذلك أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعا مقيدا في مقابلة ذكر الرجال من الإنس ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقا

وأنت إذا قلت إنسان من حجارة أو رجل من خشب ونحو ذلك لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب وأيضا فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجنى أن يطلق عليه اسم الناس وذلك لأن الناس والجنة متقابلان وكذلك الإنس والجن فالله تعالى يقابل بين اللفظين كقوله: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} وهو كثير في القرآن وكذلك قوله: {مَنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ} يقتضي أنهما متقابلان فلا يدخل أحدهما في الآخر بخلاف الرجال والجن فإنهما لم يستعملا متقابلين فلا يقال الجن والرجال كما يقال الجن والإنس وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ الناس لأنه قابل بين الجنة والناس فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر فالصواب القول الثاني وهو أن قوله: {مَنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ} بيان للذي يوسوس وأنها نوعان إنس وجن فالجنى يوسوس في صدور الإنس والإنسي أيضا يوسوس إلى الإنسي فالموسوس نوعان إنس وجن فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب وهذا مشترك بين الجن والإنس وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن والجنى لا يحتاج إلى تلك الوسوسة لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرى الدم على أن الجنى قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم" رواه البخاري والترمذي فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} فالشيطان يوحى إلى الإنسي باطله ويوحيه الإنسي إلى إنسي مثله فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني ويشتركان في الوسوسة وعلى هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبتها أصحاب القول الأول وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين الإنس والجن وعلى القول الأول إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط فتأمل أنه بديع جدا". (لكن يبقى اشكال هل يقال للإنسي الموسوس انه خناس؟). ((

١ - التعريف في {الموسوس} للجنس على الراجح من أقوال المفسرين؛ فيشمل كل وسواس.

{الخناس}: صفة مبالغة من الخنوس، وهو الاختفاء، وهذا يعني أنه كثير الخنوس أو شديد الخنوس، لأن المبالغة هنا تكون لأحد هذين المعنيين، الكثرة والشدّة، والله تعالى أعلم.

وكذلك الوسوسة تتفاوت كثرة وشدّة.

واقتران الصفتين ببعضهما دليل على تلازمها، وهذا التلازم فيه شر إضافي.

ففي وسوسته شر، وفي خنوسه شر، وفي كثرة وقوع الوسوسة والخنوس وتتابعهما شر عظيم يستوجب الاستعاذة بالله تعالى من شره.

والأمر بالاستعاذة من شره دليل على أن العبد لا يستطيع بنفسه أن يعصم نفسه من كيد الشيطان، وكل موسوس خناس.

وإنما يحتاج إلى الاستعاذة بمن يعصمه منه، وهو الله جل وعلا وحده.

• وقال الطاهر بن عاشور : " و(من) في قوله : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بَيَانِيَّةٌ بَيِّنَتْ ﴿الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ بِأَنَّهُ جِنْسٌ يَنْحَلُّ بِاعْتِبَارِ إِرَادَةِ حَقِيقَتِهِ وَجَازَهُ إِلَى صِنْفَيْنِ: صِنْفٍ مِنَ الْجِنَّةِ وَهُوَ أَصْلُهُ، وَصِنْفٍ مِنَ النَّاسِ وَمَا هُوَ إِلَّا تَبَعٌ وَوَلِيٌّ لِلصِّنْفِ الْأَوَّلِ، وَجَمَعَ اللَّهُ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢ .]

وَوَجْهُ الْحَاجَةِ إِلَى هَذَا الْبَيَانِ خَفَاءٌ مَا يَنْجُرُّ مِنْ وَسْوَسةِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّ الْأُمَّمَ اعْتَادُوا أَنْ يُحَذِّرَهُمُ الْمُصْلِحُونَ مِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ، وَرَبَّمَا لَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَنَّ مِنَ الْوَسْوَاسِ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْ وَسْوَاسِ الشَّيَاطِينِ، وَهُوَ وَسْوَسةُ أَهْلِ نَوْعِهِمْ وَهُوَ أَشَدُّ خَطَرًا، وَهُمْ بِالْتَّعَوُّذِ مِنْهُمْ أَجْدَرُ، لِأَنَّهُمْ مِنْهُمْ أَقْرَبُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَخْطَرُ، وَأَنَّهُمْ فِي وَسَائِلِ الضَّرِّ أَذْخُلُ وَأَقْدَرُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ (مِنَ) بَيَانًا لِلنَّاسِ، إِذْ لَا يُطْلَقُ اسْمُ النَّاسِ عَلَى مَا يَشْمَلُ الْجِنَّ، وَمَنْ رَعِمَ ذَلِكَ فَقَدْ أَبْعَدَ. وَقَدَّمَ (الْجِنَّةَ) عَلَى (النَّاسِ) هُنَا لِأَنَّهُمْ أَصْلُ الْوَسْوَاسِ كَمَا عَلِمَتْ بِخِلَافِ تَقْدِيمِ الْإِنْسِ عَلَى الْجِنِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] (لِأَنَّ حُبْنَاءَ النَّاسِ أَشَدُّ مُحَالَةً لِلْأَنْبِيَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَصَمَ أَنْبِيَاءَهُ مِنْ تَسَلُّطِ الشَّيَاطِينِ عَلَى نَفْسِهِمْ. قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ إِبْلَاحَ وَحْيِهِ لِأَنْبِيَائِهِ، فَزَكَّى نَفْسَهُمْ مِنْ حُبِّ وَسْوَسةِ الشَّيَاطِينِ، وَلَمْ يَعْصِمَهُمْ مِنْ لِحَاقِ ضَرِّ النَّاسِ بِهِمْ وَالْكَيْدِ لَهُمْ لِضَعْفِ خَطَرِهِ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وَلَكِنَّهُ ضَمَّنَ لِرُسُلِهِ النَّجَاةَ مِنْ كُلِّ مَا يَقْطَعُ إِبْلَاحَ الرِّسَالَةِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ مُرَادُ اللَّهِ.

وَالْجِنَّةُ: اسْمُ جَمْعٍ جِيءَ بِبَاءِ النَّسَبِ إِلَى نَوْعِ الْجِنِّ، فَالْجِنِّيُّ الْوَاحِدُ مِنْ نَوْعِ الْجِنِّ، كَمَا يُقَالُ: إِنْسِيٌّ لِلْوَاحِدِ مِنَ الْإِنْسِ. "

• قال ابن تيمية في الفرق بين الالهام والوسوسة : " قال تعالى { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ } وَقَالَ تَعَالَى : { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } وَإِذَا كَانَ قَدْ قَالَ : { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى

وَإِذَا أَحْسَنَ الْعَبْدُ الِاسْتِعَاذَةَ بِاللَّهِ تَعَالَى بِالْقَلْبِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لَمْ يَضُرَّهُ كَيْدُ الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ.

وَالْخَنُوسُ فِي اللُّغَةِ يَعْنِي التَّأَخَّرَ، أَوْ التَّرَاجُعَ، أَوْ الْإِخْتِفَاءَ وَالتَّوَارِي. وَتَطْبِيقُ هَذَا الْوَصْفِ عَلَى الْإِنْسِي الْمَوْسُوسِ (الَّذِي يَدْعُو غَيْرَهُ لِلشَّرِّ وَالْبَاطِلِ) يَكُونُ عِبْرَ طَرِيقَتِي

١ - يَخْنَسُ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ: فَالْإِنْسِي الَّذِي يَوْسُوسُ لْغَيْرِهِ بِالسَّوْءِ، إِذَا وَجَدَ صَاحِبَهُ ذَاكِرًا لِلَّهِ، مُسْتَعِيزًا بِهِ، مُتَشَبِّهًا بِالْحَقِّ، فَإِنَّهُ يَتَرَاجَعُ وَيَنْقَبِضُ وَيَخْنَسُ وَيَنْصَرِفُ لِيَأْسِهِ مِنْهُ.

٢ - يَخْنَسُ إِذَا طُيعَ: وَنُقِلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ أَنَّ الْمَوْسُوسَ: هُوَ الشَّيْطَانُ بِأَمْرِهِ، فَإِذَا أَطَاعَ خَنَسَ. وَ "خَنَسَ" أَيُّ قَضَى حَاجَتَهُ وَتَوَارَى وَاخْتَفَى.

النَّحْلِ { الْآيَةُ . فَذَكَرَ أَنَّهُ يُوحِي إِلَيْهِمْ فَأَلَى الْإِنْسَانَ أُولَى وَقَالَ تَعَالَى : { وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا } وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا } { فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُلْهِمُ الْفُجُورَ وَالتَّقْوَى لِلنَّفْسِ وَالْفُجُورُ يَكُونُ بِوَاسِطَةِ الشَّيْطَانِ وَهُوَ إلهَامٌ وَسَوَاسٍ وَالتَّقْوَى بِوَاسِطَةِ مَلَكٍ وَهُوَ إلهَامٌ وَحْيٍ هَذَا أَمْرٌ بِالْفُجُورِ وَهَذَا أَمْرٌ بِالتَّقْوَى وَالْأَمْرُ لَا بُدَّ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ خَبَرٌ .

وَقَدْ صَارَ فِي الْعُرْفِ لَفْظُ الْإلهَامِ إِذَا أُطْلِقَ لَا يُرَادُّ بِهِ الْوَسْوَسةُ . وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ إلهَامِ الْوَحْيِ وَبَيْنَ الْوَسْوَسةِ . فَالْمَأْمُورُ بِهِ إِنْ كَانَ تَقْوَى اللَّهِ فَهُوَ مِنْ إلهَامِ الْوَحْيِ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْفُجُورِ فَهُوَ مِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ . فَيَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْإلهَامِ الْمَحْمُودِ وَبَيْنَ الْوَسْوَسةِ الْمَذْمُومَةِ هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَإِنْ كَانَ مِمَّا أُلْقِيَ فِي النَّفْسِ مِمَّا دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى أَنَّهُ تَقْوَى لِلَّهِ فَهُوَ مِنَ الْإلهَامِ الْمَحْمُودِ وَإِنْ كَانَ مِمَّا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ فُجُورٌ فَهُوَ مِنَ الْوَسْوَسةِ الْمَذْمُومَةِ وَهَذَا الْفَرْقُ مُطَرَّدٌ لَا يَنْتَقِضُ وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو حَارِثٍ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ وَسْوَسةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ فَقَالَ : مَا كَرِهْتَهُ نَفْسُكَ لِنَفْسِكَ فَهُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهُ وَمَا أَحَبَّتَهُ نَفْسُكَ لِنَفْسِكَ فَهُوَ مِنْ نَفْسِكَ فَاتَّهَمَهَا عَنْهُ .

• وقال الغزالي في (الإحياء) في بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركنٍ وشرطٍ من أعمال الصلاة، ما مثاله: وإذا قلت: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فاعلم أنه عدوك ومرصدٌ لصرف قلبك عن الله عز وجل؛ حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له، مع أنه لمن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها، وإن استعادتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه، بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك؛ فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو ليقتله فقال: (أعوذ منك بهذا الحصن الحصين) - وهو ثابت على مكانه ذلك - لا ينفعه، بل لا يفيدُهُ إلا بتبديل المكان، فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محابُّ الشيطان ومكاره الرِّحْمَنِ، فلا يغنيه مجرد القول، فليقتِرَنَّ قوله بالعزم على التَّعوُّذِ بِحِصْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، وَحِصْنُهُ: (لا إله إلا الله) إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبيُّنا ﷺ: «ولا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي» . «والمُتَحَصِّنُ بِهِ مَنْ لَا مَعْبُودَ لَهُ سِوَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَأَمَّا مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، فَهُوَ فِي مِيدَانِ الشَّيْطَانِ لَا فِي حِصْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . انْتَهَى .

وَمُلَخَّصُهُ أَنَّ التَّعوُّذَ لَيْسَ هُوَ مُجَرَّدُ الْقَوْلِ، بَلِ الْقَوْلُ عِبَارَةٌ عَمَّا كَانَ لِلْمُتَعَوِّذِ مِنْ ابْتِعَادِهِ بِالْفِعْلِ عَمَّا يَتَعَوَّذُ مِنْهُ، فَكَانَ تَرْجَمَةً لِحَالِهِمْ . وَهَذَا الْمَعْنَى كَانَ يَلُوحُ لِي مِنْ قَبْلِ أَنْ أَرَاهُ فِي كَلَامِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ، حَتَّى رَأَيْتُهُ فَحَمِدْتُ اللَّهَ عَلَى الْمُوَافَقَةِ . السَّابِغَةُ: قَالَ الْإمامُ الْغَزَالِيُّ فِي (الإحياء) أَيْضاً، فِي بَيَانِ تَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْقَلْبِ بِالْوَسْوَسةِ وَسَبَبِ غَلَبَتِهَا، مَا مِثَالُهُ:

اعْلَمْ أَنَّ الْقَلْبَ فِي مِثَالِ قُبَّةٍ مَضْرُوبَةٍ لَهَا أَبْوَابٌ تَنْصَبُ إِلَيْهِ الْأَحْوَالُ مِنْ كُلِّ بَابٍ، وَمِثَالُهُ أَيْضاً مِثَالُ هَدَفٍ تَنْصَبُ إِلَيْهِ السَّهَامُ مِنَ الْجَوَانِبِ . أَوْ هُوَ مِثَالُ مِرْآةٍ مَنْصُوبَةٍ تَجْتَازُ عَلَيْهَا أَصْنَافُ السُّورِ الْمُخْتَلِفَةِ فَتَرَأَى فِيهَا صُورَةً بَعْدَ صُورَةٍ وَلَا يَخْلُو عَنْهَا . أَوْ مِثَالُ حَوْضٍ تَصُبُّ فِيهِ مِيَاهٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ أَهْمَارٍ مَفْتُوحَةٍ إِلَيْهِ . وَإِنَّمَا مَدَاخِلُ هَذِهِ الْأَثَارِ الْمُتَجَدِّدَةِ فِي الْقَلْبِ فِي

كُلِّ حَالٍ، إِمَّا مِنَ الظَّاهِرِ فَالْحَوَاسُّ الْخَمْسُ، وَإِمَّا مِنَ الْبَاطِنِ فَالْحَيَالُ وَالشَّهْوَةُ وَالْغَضَبُ وَالْأَخْلَاقُ الْمُرَكَّبَةُ مِنْ مِزَاجِ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَدْرَكَ بِالْحَوَاسِّ شَيْئًا حَصَلَ مِنْهُ أَثَرٌ فِي الْقَلْبِ، وَكَذَلِكَ إِذَا هَاجَتِ الشَّهْوَةُ مَثَلًا بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْأَكْلِ وَسَبَبِ قُوَّةِ الْمِزَاجِ، حَصَلَ مِنْهَا فِي الْقَلْبِ أَثَرٌ، وَإِنْ كَفَّ عَنِ الْإِحْسَاسِ فَالْحَيَالَاتُ الْحَاصِلَةُ فِي النَّفْسِ تَبْقَى وَيَنْتَقِلُ الْحَيَالُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، وَبِحَسَبِ انْتِقَالِ الْحَيَالِ يَنْتَقِلُ الْقَلْبُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ آخَرَ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْقَلْبَ فِي التَّغْيِيرِ وَالتَّأَثُّرِ دَائِمًا مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَأَخْصُ الْأَثَارَ الْحَاصِلَةَ فِي الْخَوَاطِرِ، وَأُعْنِي بِالْخَوَاطِرِ مَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالْأَذْكَارِ، وَأُعْنِي بِهِ إِدْرَاكَاتِهِ عُلُومًا، إِمَّا عَلَى سَبِيلِ التَّجَدُّدِ وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ التَّذَكُّرِ؛ فَإِنَّمَا تُسَمَّى خَوَاطِرَ مَنْ حَيْثُ إِنَّمَا تَخْطُرُ بَعْدَ أَنْ كَانَ الْقَلْبُ غَافِلًا عَنْهَا.

وَالْخَوَاطِرُ هِيَ الْمُحَرِّكَاتُ لِلْإِرَادَاتِ، فَإِنَّ النَّيَّةَ وَالْعَزْمَ وَالْإِرَادَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَ خُطُورِ الْمَنَوِيِّ بِالْبَالِ لَا مُحَالَةً. فَمَبْدَأُ الْأَفْعَالِ الْخَوَاطِرُ. ثُمَّ الْخَاطِرُ يُحَرِّكُ الرَّغْبَةَ، وَالرَّغْبَةُ تُحَرِّكُ الْعَزْمَ، وَالْعَزْمُ يُحَرِّكُ النَّيَّةَ، وَالنَّيَّةُ تُحَرِّكُ الْأَعْضَاءَ. وَالْخَوَاطِرُ الْمُحَرِّكَةُ لِلرَّغْبَةِ تَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَدْعُو لِلشَّرِّ، أَعْنِي إِلَى مَا يَضُرُّ فِي الْعَاقِبَةِ، وَإِلَى مَا يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ، أَعْنِي إِلَى مَا يَنْفَعُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. فَهُمَا خَاطِرَانِ مُخْتَلِفَانِ. فَافْتَقَرَا إِلَى اسْمَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ. فَالْخَاطِرُ الْمَحْمُودُ يُسَمَّى إِلَهَامًا وَالْخَاطِرُ الْمَذْمُومُ، أَعْنِي الدَّاعِي إِلَى الشَّرِّ، يُسَمَّى وَسْوَاسًا. ثُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْخَوَاطِرَ حَادِثَةٌ، ثُمَّ أَنَّ كُلَّ حَدِيثٍ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ، وَمَهُمَا اخْتَلَفَتِ الْحَوَادِثُ ذَلَّ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَسْبَابِ، هَذَا مَا عُرِفَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَرْتِيبِ الْمُسَبِّبَاتِ عَلَى الْأَسْبَابِ. فَهُمَا اسْتَنَارَتْ حَيْطَانُ الْبَيْتِ بِنُورِ النَّارِ، وَأُظْلِمَ سَقْفُهُ وَاسْوَدَّ بِالْدُخَانِ، عَلِمْتُ أَنَّ سَبَبَ السَّوَادِ غَيْرُ سَبَبِ الْإِسْتِنَارَةِ، وَكَذَلِكَ لِأَنْوَارِ الْقَلْبِ وَظُلُمَتِهِ سَبَبَانِ مُخْتَلِفَانِ: فَسَبَبُ الْخَاطِرِ الدَّاعِي إِلَى الْخَيْرِ يُسَمَّى مَلَكًا، وَسَبَبُ الْخَاطِرِ الدَّاعِي إِلَى الشَّرِّ يُسَمَّى شَيْطَانًا. وَاللُّطْفُ الَّذِي يَتَهَيَّأُ بِهِ الْقَلْبُ لِقَبُولِ إِلَهَامِ الْخَيْرِ يُسَمَّى تَوْفِيقًا، وَالَّذِي بِهِ يَتَهَيَّأُ لِقَبُولِ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ يُسَمَّى إِعْوَاثًا وَخِذْلَانًا. فَإِنَّ الْمَعَانِيَ الْمُخْتَلِفَةَ تَفْتَقِرُ إِلَى أَسَامٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَالْمَلَكُ عِبَارَةٌ عَنْ خَلْقٍ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى، شَأْنُهُ إِفَاضَةُ الْخَيْرِ وَإِفَادَةُ الْعِلْمِ وَكَشْفُ الْحَقِّ وَالْوَعْدُ بِالْخَيْرِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ خَلَقَهُ وَسَخَّرَهُ لِذَلِكَ. وَالشَّيْطَانُ عِبَارَةٌ عَنْ خَلْقٍ شَأْنُهُ ضِدُّ ذَلِكَ، وَهُوَ الْوَعْدُ بِالشَّرِّ وَالْأَمْرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالتَّخْوِيفُ عِنْدَ الْهَمِّ بِالْخَيْرِ بِالْفَقْرِ؛ فَالْوَسْوَاسَةُ فِي مُقَابَلَةِ الْإِلَهَامِ. وَالشَّيْطَانُ فِي مُقَابَلَةِ الْمَلَكِ، وَالتَّوْفِيقُ فِي مُقَابَلَةِ الْخِذْلَانِ.

ثُمَّ قَالَ الْغَزَالِيُّ: وَلَا يَخْوَ وَسْوَاسَةُ الشَّيْطَانِ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا ذِكْرُ سَوَى مَا يُوسَّوسُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا خَطَرَ فِي الْقَلْبِ ذِكْرُ شَيْءٍ انْعَدَمَ مِنْهُ مَا كَانَ مِنْ قَبْلُ. وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ سَوَى اللَّهِ تَعَالَى وَسَوَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، فَيَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ مَجَالًا لِلشَّيْطَانِ. وَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُؤْمَنُ جَانِبُهُ وَيُعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ مَجَالٌ، وَلَا يُعَالِجُ الشَّيْءَ إِلَّا بِضِدِّهِ. وَضِدُّ جَمِيعِ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ ذِكْرُ اللَّهِ بِالْإِسْتِعَاذَةِ وَالتَّوَكُّلِ عَنِ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِكَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَذَلِكَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا الشَّيْطَانُ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ فِي أَوْقَاتِ الْفَلَنَاتِ عَلَى سَبِيلِ الْخِلَاسَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾

فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]

ثُمَّ قَالَ: فَالْوَسْوَسَةُ هِيَ هَذِهِ الْخَوَاطِرُ، وَالْخَوَاطِرُ مَعْلُومَةٌ؛ فَإِذَنْ الْوَسْوَاسُ مَعْلُومٌ بِالمُشَاهَدَةِ، وَكُلُّ خَاطِرٍ فَلَهُ سَبَبٌ، وَيَفْتَقِرُ إِلَى اسْمٍ يَعْرِفُهُ، فَاسْمُ سَبَبِهِ الشَّيْطَانُ، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَنْفَلِكَ عَنْهُ آدَمِيٌّ، وَإِنَّمَا يَحْتَلِفُونَ بِعَصِيَانِهِ وَمُتَابَعَتِهِ؛ فَقَدْ اتَّضَحَ بِهَذَا النَّوعِ مِنَ الْإِسْتِبْصَارِ مَعْنَى الْوَسْوَسَةِ وَالْإِلْهَامِ، وَالْمَلَكِ وَالشَّيْطَانِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْخِذْلَانِ. انْتَهَى.

• قال ابن القيم في بدائع الفوائد في الفرق بين السورتين: " وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها. وهو الشر الداخل في الإنسان، الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة. فسورة الفلق: تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد. وهو شر من خارج. وسورة الناس: تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل. فالشر الأول: لا يدخل تحت التكليف، ولا يطلب منه الكف عنه. لأنه ليس من كسبه.

والشر الثاني في سورة الناس: يدخل تحت التكليف، ويتعلق به النهي. فهذا شر المعائب. والأول شر المصائب، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب. ولا ثالث لهما.

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات. وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة. "

وهذه الشرور المذكورة في السورتين لا ينفع في التوقي منها الطب المادي وإنما ينفع الالتجاء إلى الله تعالى والاستعاذة به واسمائهم الحسنى فاستعاذ في سورة الفلق بشيء واحد من ثلاث شرور بينما استعاذ بثلاثة أسماء من شر واحد في سورة الناس وهو شر الوسواس الخناس لعظيم خطره وصعوبة التحرز منه لأنه يلقي هذه الوسواس دون أن يشعر بها المرء لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم فلا يعرف ما رد عليه هل هو من قبيل تزوين النفس أو من الشيطان فيورد عليه الخواطر ويكررها عليه حتى تستقر ويزينها له وينسيه سوء العواقب حتى تتحول إلى عزم إلى الفعل فإذا أدرك نهمته أفاق وقد يكون الفعل مما لا يمكن استدراكه .

• وقال البقاعي في (نظم الدرر): "لما جاءت سورة الفلق للإستعاذة من شر ما خلق من جميع المضار البدنية وغيرها العامة للإنسان وغيره، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق، والساحر، والحاسد، فكانت الاستعاذة فيها عامة للمصائب الخارجة التي ترجع إلى ظلم الغير، والمعائب الداخلة التي ترجع إلى ظلم النفس، ولكنها في المصائب أظهر، وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد، جاءت سورة الناس متضمنة للاستعاذة من شر خاص، وهو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، ويرجع إلى المعائب الداخلة اللاحقة للنفوس البشرية التي أصلها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب

والمعاصي كلها، وهي من الجن أمكن وأضر، والشر كله يرجع إلى المصائب والمعائب. اهـ.

• وقال الشيخ عطية سالم في (تنمية أضواء البيان): المستعاذ منه في السورة الأولى أمور تأتي من خارج الإنسان، وتأتيه اعتداء عليه من غيره، وقد تكون شرورا ظاهرة، ومثل ذلك قد يمكن التحرز منه أو اتقاؤه قبل وقوعه، وتجنبه إذا علم به. بينما الشر الواحد في الثانية يأتيه من داخلية، وقد تكون هواجس النفس وما لا يقدر على دفعه، إذ الشيطان يرانا ولا نراه. اهـ.

وكذلك الحكم بأن الشرور الداخلية أشد من الخارجية هو من جملة اللطائف المستنبطة من السورتين، وإلى ذلك يشير قول أبي حيان في (البحر المحيط): لما كانت مضرة الدين، وهي آفة الوسوسة، أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت، جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث: الرب، والمملك، والإله، وإن اتحد المطلوب. وفي الاستعاذة من ثلاث: الغاسق، والنفاثات، والحاسد بصفة واحدة وهي الرب، وإن تكثر الذي يستعاذ منه. اهـ.

ونقل ذلك الشيخ عطية ثم قال: هذه الأخرى لفئة كريمة... وهي أنه تعالى في سورة الفلق جاء في الاستعاذة بصفة واحدة وهي «رب الفلق»، وفي سورة الناس جاء في الاستعاذة بثلاث صفات، مع أن المستعاذ منه في الأولى ثلاثة أمور، والمستعاذ منه في الثانية أمر واحد، فلخطر الأمر الواحد جاءت الصفات الثلاث. اهـ.



والله اعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورتي المعوذتين

جمع واعداد

محمد مريس الحجاجي

[المصادر]

- ١- تفسير جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري.
- ٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
- ٣ - تفسير المحرر الوجيز ابن عطية.
- ٤- تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .
- ٥ - تفسير الكشف والبيان للثعلبي
- ٦- تفسير الجامع لاحكام القرآن للقرطبي.
- ٧- تفسير للرازي.
- ٨- تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي.
- ٩ - تنمة أضواء البيان لمحمد عطية سالم .
- ١٠- تفسير المجموع الثمين لابن عثيمين .
- ١١ - تفسير النكت والعيون للماوردي.
- ١٢ - موسوعة التفسير المأثور لمجموعة مؤلفين -معهد الامام الشاطبي .
- ١٣ - تفسير فتح القدير للشوكاني.
- ١٤ - تفسير معالم التنزيل للبغوي.
- ١٥ - تفسير نظم الدرر للبقاعي.
- ١٦ - بدائع الفوائد لابن القيم.
- ١٧- تفسير البحر المحيط لابن حيان الاندلسي.
- ١٨ - تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للالوسي.
- ١٩ - تفسير زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي .
- ٢٠- تفسير فتح البيان لحسن صديق خان.
- ٢١- اسرار الصلاة لابن القيم.
- ٢٢- زاد المعاد لابن القيم .
٢٣. اعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم.

- ٢٤- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين للشوكاني
- ٢٥- جمال القراء لعلم الدين علي بن محمد السخاوي.
- ٢٦- نكت القرآن لمحمد بن علي الكرجي القصاب.
- ٢٧- البرهان في علوم القرآن لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي.
- ٢٨- المحلى لابن حزم .
- ٢٩- كتاب التقريب لابي بكر بن الطيب .
- ٣٠- تفسير سورة الإخلاص لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي.
- ٣١- شرح الكرماني على البخاري لمحمد بن يوسف بن علي الكرماني.
- ٣٢- فتح البراي لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
- ٣٣- عمدة القاري لمحمد بن أحمد بن موسى العيني.
- ٣٤- التوثيق لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.
- ٣٥- إرشاد الساري لأحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني.
- ٣٣- المصنف لعبد الله بن محمد بن أبي شيبه العباسي.
- ٣٤- مجمع الزوائد لعلي بن أبي بكر بن سليمان الهيتمي.
- ٣٥- القرطين لمحمد بن أحمد بن مطرف الكناي.
- ٣٦- تفسير القرآن لابي المطهر منصور بن محمد السمعاني .
- ٣٧- لباب التأويل لعلي بن محمد الحازن.
- ٣٨- السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج لصديق حسن خان القنوجي.
- ٣٩- فيض الباري لمحمد أنور الكشميري.
- ٤٠- مناهل العرفان للزرقاني.
- ٤١- مثنى «طبيبة النشر» في القراءات العشر لشمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري.
- ٤٢- مجموع فتاوى ابن تيمية .
- ٤٣- الرد على المنطقيين لابن تيمية.
- ٤٤- احياء علوم الدين للغزالي.

٤٥- شرح الطحاوية لصالح ال الشيخ.

٤٠- التعليق على المصباح المنير لخالد السبت.

٤١- تفسير مصطفى العدوي.
